د. خليـــل حســـن

السلطنـــة

الجزء الثالث من الوسيـــة

Amly
http://arabicivilization2.blogspot.com

الناشر
مكتبة مدبولى
الطبعة الأولى ١٩٩٤

عـاد الى وطنه ، بعـد خـمس سنوات طوال . كـان غـادره بعـد فـجـيعـة ١٩٦٧ ، عندمـا هزم الصـهـاينه جـيش بلاده . أسـرع الى مسقط رأسه. ود أن يشاركه أفـراحه بانتصـار اكتوبر. أمنيـة من أمانيـه، أن يسمع أهله يترنمون بأهازيج الفوز. شارك بلده فواجعه. وأصبح من حقه أن يفرح معه ، وهو ينتصر على قوى الغدر.

ركبتـه نعرة افـريقـيـة . أمضى مدة فى القـارة السودا ء . يدرس لمخططيـهـا كـيف يقـهـرون التـخلف فى بلادهم . الذى غرس جذوره البيض المستـعـمرون، والسود خلفا ء المستـعـمرين. سافر الى مصر بالخطوط الافـريقـيـة. «أير أفـريك» حـديثـة التكوين. تسـهـم فى رأسمـالهـا بلاد افـريقـيـة عدة. لكن الطائرة مـقلعـة من داكـار، مـقر عمله، الى لاجوس فـحسب. «الخطوط الجوية النيجيرية» لا تطير الا فى الصباح. عليه المبيت فى عاصمة نيجيريا . أوصلته الطائرة النيـجـيـرية الى نيـروبى. وجـا ءت الطائرة المصـرية. لكنهـا جـا ءت مـعطوبة. بـات ليلة أخـرى فى الطريق الجـوى. أمـضـى أيامـا ثلاثة للوصول الى القاهرة!

كـان قـد قـرأ انتـصـار الجنود المصـريين فى الجـرائد الافـريقـيـة

والاجنبية : النمور السمر يقاتلون بشراسة . يعبرون القناة، ويفر الاسرائيليون أمامهم فى الصحراء.

وصل الى القاهرة. ذهب فى الحال الى طريق السويس. أراد أن يرى أرض النضال والنصر. فوجئ بثلة من الجند يعترضون الطريق. عربات مصفحة تغدو وتروح. فى الوجوه قلق وجهامة. أين بريق النصر، ووهج الفوز؟ لعل الابطال جادون. لا يلعب النصر العاجل برؤوسهم. انهم مصرون على النصر النهائى.

ـ قف. الى أين أنت ذاهب؟

ـ الى ميدان الشرف بالقناة.

فرت دمعة من عين الجندى الذى أوقفه. وجاء ضابط ليجيب :

ـ ممنوع المرور على الطريق.

ـ لماذا ؟ أرجوك لا تحرمنى أمنيتى. جئت من أفريقيا لتحقيقها.

ـ أيه أمنية؟

ـ أن أرى أبطال بلادى، يحررون أرض الوطن من غاصبيها.

ـ آسف لا تستطيع !

كـان وقع العبـارة على فتـانا قـاسيـا. فطن الضـابط الى مـافى عينيه من ضراعة. وما فى وجهه من خيبة أمل . لم يشأ أن يفجعه فى أمنيته. عاود القول:

ـ لا تؤاخذنـى . الأوامر صريحـة. تمنـع المـرور فى الطـريق منعا جازمـا.

ـ أتمـنـعـون المـواطنـين مـن رؤيـة زمـلائهـم ، يستـردون الأرض السليبـة؟

ـ ماذا أقول لك، وماذا أعيد؟

ـ لقد تكبدت مشاق للحضور الى هنا.

لاحظ خالد نغمة خافتة فى صوت الضابط ، وشعاعا حزينا فى عينيه. هل هذه علائم للنصر؟ رباه. أمضى الضابط برهة مترددا: لا أريد أن أحـرم هذا المواطن أمنيـتـه. لكننى، حـتى لو خـالفت الأوامر، مـاذا سيـرى فى أرض المعـركة. ليس من الأمـانة كذلك أن أخفى عليه الحقيقة. انه سيسمعهـا فـى كـل مكـان. قرر الضـابط ان يصارحه :

ـ لا تستطيع المرور فى الطريق. اليهود عند الكيلو ١٠١.

لم يشأ أن يسأله ماذا حدث. لأنه لم يكن بقادر على أن يسأل . فى الطريق الى منزله، اشترى الجرائد. عناوين سوداء : الصهاينة يخترقون صفوف القوات المصرية. يحدثون ثغرة. يعبرون القناة الى الشاطئ الغربى. يتقدمون فى طريق السويس تجاه القاهرة. ويصلون الى الكيلو ١٠١.

ما بال القاهرة خانقة؟ عوادم السيارات تثير دخانا وترابا. تدفع بسمومها فى خياشيم الناس. صدورهم تنفثها زفرات. أهذه زفرات التلوث ، أم لواعج النصر الموؤد ؟

تحامل على نفسه الى أن دخل منزله. ارتمى على أول مقعد، رغم التراب الذى يغطى المقاعد، أحس براحة لأول وهلة. خيل اليه أنه حال بين الهموم وبينه، حينما صفع الباب خلفه. قضى برهة متخففا. لكن الهموم عاودته. انها لا تسرى من ثقوب الباب. ولكنها تنبثق من داخله هو. هل يخرج الى الشارع ويبحث عن أصدقائه القدامى، ويبثهم آلامه؟ لعل الالام نفسها تمزقهم. كيف يتحاور أصحاب الوجدانات الممزقة؟ عدل عن فكرة الخروج. ماذا يفعل ؟ آه ... التليفزيون.

أدار مفتاح التليفزيون. الرئيس يخطب. هذه أول مرة يراه فيها على الشاشة الصغيرة. ومع ذلك، أدار المفتاح بطريقة غريزية الى القناة الثانية. وجده هناك أيضا. لامفر من المشاهدة والاستماع.

أمر غريب . الرجل أنيق. بالغ الاناقة. صورة التليفزيون مخالفة تماما للصورة التى رسمها له صديق. رآه فى الاستراحات الامبراطورية في الاسماعيلية. لكن صورته فى التليفزيون فيها وسامة ورشاقة. من الممكن أن يبرر المرء فخامة حلته، وقميصه، وكرافتته. مادتها الخام تأتى من لندن وباريس وروما. من الممكن أن يرجع الفن الرفيع فى تفصيلها، الى المحلات العالمية، كبيير كاردان، وسانت لوران ، ولاروش وغيرهم. لكن ماذا صنعوا بوجهه؟ هل يلمعون الحكام، كما يلمعون نجوم الغناء والرقص والتمثيل؟ الرجل يخطب. «أبنائى المواطنين، بناتى المواطنات. أنا أمرت بوقف اطلاق النار. وبدأت التفاوض مع اليهود. أريد أن أحمى حياة أبنائى الجنود. لقد حققوا النصر الاكبر. ذلك هو نصر العبور العظيم. لاتخافوا. انا قائد العبور، وبطل السلام. سأحقق لكم السلام والرخاء. وسأناجى الله قريبا من وادى الرحمة فى سيناء. المكان الذى كان موسى يكلمه فيه ربه»!

كانت الكلمات تخرج من شدقيه غلاظا . فى عينيه بريق. لم يتكسر منهما شعاع. شاربه كث كما هو . لم تطر منه شعرة واحدة. وكأن النصر الكبير لم يجهض. والجهود البطولية لجنود مصر، لم تضع. وكأنه لم يأمر الجنود بالتوقف عن الضرب. ويتيح للاسرائلين اختراق صفوفنا. ويحرمنا من تحرير الارض؟

اختلطت الامور فى ذهن خالد، فلم يستطع لهذه الظواهر فهما: سينا لم تتحرر. العدو تفككت خطوط دفاعه. طاش كالجراد أمام زحف الابطال . الرجل يقول للشعب: انه أبلغ الولايات المتحدة أنه سيوقف القتال. ولن يتوغل لاسترداد أرضه. بشرط أن تصبح أمريكا شريكة أصلية في المفاوضات. وأن تبذل جهودها فى أن تبدأ المفاوضات مع اسرائيل لتسوية المشكلة. واستحدث بذلك تقليدا فريدا فى تاريخ الحروب : منتصر يطلب من عدوه أن يفاوضه ليحصل الأول من الاخير على أرضه وحقوقه!

كيف يعين عبد الناصر هذا الرجل خليفة ؟ فى كتابه عن «سيرته الذاتية» سرد مواقفه الوطنية: اتهم بالاشتراك مع حسين توفيق فى اغتيال أمين عثمان، الوزير الوفدى، الذى كان موسوما بممالأة الانجليز. لم يمسك بالمسدس ليصرعه. ولكنه انتظر بعيدا

فى سيـارة يراقب الاغتـيـال. اشتـرك مع حفنه من الضبـاط فى «الحرس الحديدى»، الذى كان الملك فاروق يستخدمه ضد خصومه. ارتكب هذا الجـهـاز جرائم عـدة ضـد الزعـمـاء الوطنيين المناهضين للسراى. كما حدث فى محاولة اغتيال مصطفى النحاس باشا. اتصل بالالمان ليعمل معهم، ابان هجومهم على مصر فى الحرب العالمية الثانية. عينه عبد الناصر عضوا بمجموعة الضباط الاحرار. ذهب الى منزله ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، عند قيام الثورة، فوجده فى السينما!

الاذاعة والتليفزيون، والاغانى، والرقصات والاستعراضات، تزف الى الناس قائد النصر، وبطل العبور، الذى عبر القناة فقط، وكان العبور هو الهدف، وليس تحرير الارض المصرية والعربية. اختلط الامر على الشعب : هل المقصود أن الحاكم بطل عبور الجيش المصرى الى سيناء ؟ أم أنه بطل عبور الصهاينة الى الجانب الغربى للقناة؟

ظلت هذه الخواطر تلح على رأس خالد حتى صدعته. لم يجد لها جوابا شافيا. الواقع يصور الانتصار بأنه موؤد . والزفة

الاعلامية تجعل منه انتصاراً تاريخيا.

قرر ألا يفتح المذياع أو التلفزيون. لجأ الى الجرائد والمجلات. الموضوعات التى تطرقها أكثر سوادا من المداد المسكوب على صفحاتها: بطل العبور. قائد النصر. رسول السلام. صانع الرخاء. مزق الصحف، لن يستمع الى المذياع. لن يشاهد التليفزيون. لن يقرأ الجرائد. ماذا يفعل؟ هل جاء من أفريقيا ليعزل نفسه فى هذه الشقة؟ ليس الاعتزال، والاضراب عن وسائل الاعلام هو الحل السعيد لحالته التعيسه.

فى خضم هذه الحرب النفسيه العاتيه دق الباب. رأى انسانا يتسق وحاله. الزائر هو مجاهد العامل، رفيقه فى الجهاز الطليعى أيام عبد الناصر.

عانقه لا كصديق أو رفيق، لكن كمنقذ. طال العناق. لم يستطع مجاهد لهذا العناق الحميم تفسيرا. برر حرارته بطول السنين التى غابها خالد عن مصر:

ـ من أى سماء هبطت؟ أى ريح عطره ألقت بك الى؟

ـ هل غدوت آديبا؟

- كنت أفكر فى الاتصال بك. كيف عرفت بحضورى؟

- نحن نتابع أخبارك. متى وصلت؟

- منذ يومين. كانا يومين رهيبين.

- أيامنا هنا كلها رهيبه.

- ماذا فعل الله بكم؟

- يبدو أن الله تخلى عنا. وأسلمنا الى الشيطان.

- احك . احك.

- الحكاية طويلة . لا أدرى من أين أبدأ.

- أرأيت الى الذين يجهضون النصر. ويحولونه الى هزيمة؟

- هذا أمر يهون. وهو نتيجة طبيعية لما تتطور اليه الأمور.

- النصر المجيد يهون ويعتبر طبيعيا. كيف؟

- لا أستطيع أن أفصل لك فى هذه «الشقة» المقبضة. دعنا نخرج الى الهواء؟ لنتنفس.

ـ الدخان والغبار والهموم فى الشارع ، تكتم أنفاسى. وزفرات الناس تحرقنى.

ـ الشارع هو ميداننا. هيا بنا.

ـ خرجا الى الشارع. وفى ناد من النوادى المجاورة دار الحديث:

ـ ماذا حدث لكم ولمصر؟

ـ ألا تقرأ الجرائد المصرية؟ ألم تلاحظ اختفاء كلمة «اشتراكية» من الجرائد ـ والكتب كما اختفت فى الاذاعة والتليفزيون، ومن القاموس السياسى لخليفة عبد الناصر.

ـ وددت لو حدثتنى عن معركة تحرير الأرض. كيف نبدأها بانتصار مذهل. ثم ننتهى ببتر الانتصار والتسليم بالهزيمة.

ـ اختفاء الاشتراكية سوف يعيننا على فهم ظاهرة النصر المهيض.

لم يكن خالد بحاجة الى تكرار كلمة «الاشتراكية». رنينها متواصل فى وجدانه. طالما افرحته وأشقته. من أجلها انضم الى رجال يوليو. وخاض معهم معارك فكرية باسلة. وعمل فى

المؤسسات الاقتصادية والاكاديمية ، وفى الميدان السياسى: الاتحاد الاشتراكى والجهاز الطليعى، ومنظمة الشباب، يثير الفكر الاشتراكى أينما حل . وأينما سار.

وطالما شقى من أجل هذه الكلمة. كان يشهد علائم محبطة: الباشوات الجدد يديرون القطاع العام. البرجوازيون يقودون العمل السياسى. الفرقاء والألوية يتخذون من الشركات العامة، والخاصة، وسايا جديدة. انضمت اليهم قطاعات من البرجوازية المتوسطة والصغيرة، فامتلكوا القطاعين العام والخاص معا . هاجم هذه الفئات، التى كانت تخرب النظام. تقبلت القيادة هجومه أول الامر. ثم تخلت عنه، أو برمت به. فتكت به قوى البرجوازية الضارية. وألقت به فى غياهب المعتقل. كانت حجتهم أنه يدرس الماركسية، فى منظمة الشباب . مع أنهم كانوا يحضرون المحاضرات أثناء القائها. ويراجعونها قبل أن تلقى!

لكن كيف يتسبب اختفاء الاشتراكية في النكسة التى أصابتنا فى اكتوبر؟ ودلو يحظى باجابة عن هذا السؤال المحير، دون ان يغوص فى الجذور. سأل مجاهد:

ـ ما العلاقة بين الاشتراكية والنصر الضائع؟

ـ الخلف مخطط بارع. انضم الى الضباط الاحرار بقيادة عبد الناصر. رغم اعتراض زملائه عليه، ظفر برضا عبد الناصر، فبقى فى المجموعة. قبل مهام هامشيه ليظل على اتصال بمركز الحكم. بقى فى الظل مدة طويلة. متربصاً منتظرا فرصته. اختلف عبد الناصر مع جهابذة اليمين من زملائه: زكريا محى الدين، عبد اللطيف البغدادى، كمال الدين حسين، نحاهم عن السلطة، بعد أن نحى ثوار اليسار من قبل: خالد محى الدين ويوسف صديق. لم يبق الا اثنان...!

وتدخل خالد:

ـ يعنى مافضلش على المداود......

ـ وانت تعرف الصراع على السلطة، بين أنصار عبد الناصر وخليفته.

ـ لايا عم. انا كنت في الخارج ـ أريد أن أسمع الوقائع منك.

ـ وهو كذلك: عقدت اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى للنظر فى تعيين خليفة عبد الناصر، انضم اليهم بعض العناصر

الوطنية من اللجنة المركزية ودارت المناقشة:

- نختار خلفا للزعيم الراحل من بين زملائه.

- أى زملاء؟

- زميل من الذين كانوا حوله قبل وفاته.

- قبل وفاته كان هناك فريقان : المخضرمون والمحدثون

- نختاره من المخضرمين.

- هؤلاء أبعدهم عبد الناصر ، لاسيما الاقوياء منهم.

- لكن بقى نفر منهم .

- حرام عليك. واحد منهم درويش. والثانى لانعلم عنه كثيرا. كان يقوم بمهام ثانوية.

وتدخل فى الحوار قطب من أقطاب النظام:

- النورى! كان قريبا من الزعيم الراحل فى أيامه الأخيرة

واعترض عضو:

- القرب أو البعد عن الزعيم لا يعنى كثيرا. هذا الرجل لم يقدم على عمل بطولى ولم يعرف عنه انحيازه للجماهير، أو مناهضته

للأغنياء.

واشترك فى المناقشة عضو متحمس:

- نرفض أمثال هؤلاء قادة لنا. يجب أن تختار الجماهير رئيسا فى انتخاب حر يتقدم للترشيح فيه كل من يريد من جميع الطبقات.

هاجت المجموعة القيادية . وصرخ واحد منهم:

- هذا مستحيل. رأى مرفوض تماما.

استمر العضو المتحمس يعرض وجهة نظره:

- من مبادئ عبد الناصر أن يحكم الشعب نفسه بنفسه. أى أن تسود ديمقراطية حقيقية.

قفز واحد من المجموعة القيادية قائلا:

- من قال لك هذا؟

الديمقراطية أحد المبادئ السته الاساسية لحركة الجيش.

- الديمقراطية التى عناها الراحل، ليست تلك الفوضى السابقة على عهده. والتى فتك فيها الاغنياء بالفقراء. وضحكوا على

ذقونهم. وأفهموهم أن الديمقراطية هى أن يذهب الكادحون الى صناديق الانتخاب، كل خمس سنوات لينتخبوا مستغليهم.

- أنا لم أقصد ديمقراطية من هذا النوع.

- ماذا تقصد اذن؟

- أقصد أن يمثل الوطن من يمثل الاغلبية الحقيقية فيه. أليس هذا هو كنه الديمقراطية؟ حكم الأغلبية. من هم الأغلبية فى مجتمعنا: الفلاحون والعمال وأبناؤهم من المثقفين. نريد أن يمثل الجماهير واحد من أولئك الذين يضربون الارض بفئوسهم، فتبوح لهم الأرض بأسرارها. وتثرى الوطن بخيراتها . أو من أولئك العمال والمثقفين. الذين يقدمون لنا ناتج سواعدهم وقرائحهم، سكنا، وغذاء وعلما وتقدما.

- هذا بالضبط ما قمنا به فى ظل الرئيس الراحل. ونعمل من أجله حينما نختار خليفته.

وتهلل عضو معتدل:

- الحمد لله آراؤكم متفقة.

ورد العضو المتحمس:

- لا . بيننا خلاف كبير على أسلوب ادارة البلد. يجب أن تدار ادارة ديمقراطية يختار الناس - وهم أعرف بشئونهم - الرئيس من صلب الاغلبية الحقيقية، أى من الفلاحين والعمال.

انتفضت المجموعة القائدة. هبت هبة رجل واحد : نحن لا نسمح بمثل هذا الكلام. هذا كلام هدام. ليسكت هذا العضو. بل ليخرج من الاجتماع.

كان الشرر يتطاير من العيون. وتفح فى المكان أنفاس كاللهب . ولما خبا الشرر، وتخافت الفحيح، قال العضو المعتدل:

- الشعب يتجمع فى الخارج. يريد لنا أن نقدم له حلا مرضيا.

هدوء يسود الاجتماع قطعه عضو من القيادة فجر قنبلة جديدة:

- اننا نحن الذين سنختار الرئيس ، ونقدمه للشعب، أى لمجلس الأمة. وليس للشعب أن ينتخبه بنفسه. الشعب مازال غير واع بحقوقه. وعلينا نحن أن نحافظ على هذه الحقوق.

أحدث الانفجار دويا. انتفض له العضو المتحمس. صرخ فى الاجتماع قائلا:

- ان الجماهير ناضجة. وهى أدرى بصالحها من غيرها. فهى

التى تفلح الزرع وترعى الضرع، وتنتج الخير. ولا تريد اوصياء عليها.

حاول أعضاء القيادة اسكات العضو بالقوة. وساد صخب، استطاع العضو المتحمس أن يعلو بصوته فوقه:

- لانريد وصاية على الشعب من العسكر. لا أحد يضمن أنهم سيكونون أكفاء ، فى اختيار الرئيس الجديد. كذلك لانريد لهم أن يكتموا أنفاسنا بأسلحتهم المعبأة، وبرؤوسهم الفارغة.

صاروخ دمر الاجتماع. فى اليوم التالى عقد اجتماع، استبعد منه العضو المتحمس. ولم يسمع الناس عن ذلك العضو. ولم يروه منذ ذلك اليوم. قدمت المجموعة القائدة للمجتمعين أسما وحيدا كانت لهجة الاقتراح واضحة، لا لبس فيها وأعلن الخليفة على الشعب. وسارت المواكب لتهنئته.

اختتم مجاهد كلامه قائلا: هذه هى القصة.

تركزت دهشة خالد في نقطة واحدة من القصة كلها:

- هل ذهبت مواكب شعبية لتهنئته؟!

ورد عليه مجاهد:

ـ لا تندهش، فالمواكب ليست غريبة على تاريخ مصر. طالما نصبت الزفة للحاكمين من كل لون.

ـ دهشتى، أن الشعب ينصب الزفة للحاكمين، أحبهم أم كرههم!

تريث خالد قليلا ، ثم ألح عليه ، التساؤل:

ـ كيف يعين عبد الناصر هذا الرجل نائبا له؟ هل يمكن أن يكون خليفة لزعيم الاشتراكية؟ لقد وجدوا فى جراج منزله اثنى عشر سيارة فارهة، وهو رئيس مجلس الامة واستولى لنفسه على فيلا فى الهرم، وقصر على شاطئ النيل ، فى غيبة عبد الناصر ووضع أصحابها تحت الحراسة!

ـ لا أدرى

ـ هل بلغ بالرجل الدهاء ، فيضحك على ذقن عبدالنصار نفسه؟

أشك فى ذلك

اذن لماذا قربه؟

ـ ـ ـ ـ

- ٢ -

لم يستطع مجاهد الرد على هذا السؤال . غير أن خالد كانت لديه اجابة: أوفده المعهد الافريقى للتخطيط والتنمية، الذى يعمل به فى داكار ، لتمثيله فى مؤتمر للمنفيين السياسيين من العالم الثالث. عقد أخيرا فى مدينة الجزائر . ذهب خالد ليمثل المعهد، وليمثل نفسه. كان منفيا فكريا. غادر مصر ، بعد أن أفرج عنه من المعتقل.

كان فى غرفته بالفندق، الذى ينزل به المؤتمرون. الباب يطرق طرقات وئيدة. فتح الباب. آخر انسان يتوقع رؤيته: عبد الحميد ماجد صديقه الوزير فى عهد عبد الناصر. وكان لقاء حارا . بادره خالد:

ـ أين أنت ؟

ـ فى الدنيا . تركت مصر. وأعمل هنا مستشارا للرئيس بومدين.

ـ مستشار عسكرى أو سياسى، أو مستشار مؤامرات؟

ضحك عبد الحميد ضحكته الرزينة، التى توحى لك بأنه كفء

للاغراض الثلاثة. ثم قال:

ـ مازلت يا عم خالد «قفاشا» كالعهد بك.

كان عبد الحميد ماجد يعمل ملحقا عسكريا بسفارة مصر فى العراق. فى الفترة التى شهدت الانقلابات المتعددة، بعد عزل الملك فيصل وقتله. أسهم فى معظمها. وخاصة تلك المضادة للحكومات المعادية لعبد الناصر، كعبد الكريم قاسم. وتساءل خالد:

ـ كيف جئت الى هنا، وزملاؤك كلهم فى السجن؟

ـ تحادث الرئيس بومدين مع السادات بشأنى. وطلب منه الموافقة على أن أعمل مستشارا له.

ـ هل أنت راض؟

ـ كيف أرضى، وبلادنا محكومة بكلاب ضارية.

ـ ألم يكن هؤلاء الكلاب زملاءكم فى الحكم؟

ـ نعم. بكل أسف.

ـ ألم يختر عبد الناصر السادات نائبا له؟

ـ نعم بكل أسف

أرجو أن تترك الاسف، وتجيبنى على الاسئلة المحيرة.

وهنا صارحنى عبد الحميد بأمر جلل:

ـ فى الفترة الاخيرة من حكم عبد الناصر. وبعد كارثة ١٩٦٧، حدثت تغييرات كبيرة فى سلوك عبد الناصر، وفى صحته، ومزاجه. قضى معظم أوقاته فى السنوات الاخيرة، مع الخلف وحرمه. .. فى قصرهما المطل على النيل.

ـ ماذا تقول؟

ـ هذا واقع. أنا لا أعطى للواقعة أية تفسيرات. ولكنى أذكرها لك كما حدثت.

ـ أيمكن أن تكون هذه الرابطة ، سببا لهذه القربى، بين عبد الناصر وبينه؟.. وتعيينه نائبا. وبالتالى خليفة له. الم يكن يعلم بالاتجاه السياسى لهذا الرجل. كيف يأتمنه على النظام «الاشتراكى»؟

ـ لا ترغمنى على تفسير لا استطيع ان اساهم معك فيه.

ـ على اية حال . عبد الناصر استاذكم. وقد سرتم على دربه. الم ترشحوا الخلف للرياسه بعد وفاته؟

ـ الحق معك . اخترناه ، واصررنا عليه . بل فرضناه على البلد فرضا

ـ كيف تقدمون على ذلك العمل ؟

ـ زعيمنا اختاره نائباً ، لم يكن امامنا حل اخر.

ـ كيف استطاع الخلف ، وهو رجل كان يعيش على هامش النظام، ان يضعكم جميعا فى السجن،فى يوم وليلة . وكنتم تمسكون بالقوه فى الجيش. والبوليس والتنظيم السياسى.

ـ انه رجل نابه ازرق.

ـ هذه ليست اجابة.

لم يجد عبد الحميد ما يقوله، بينما قال خالد:

ـ الاجابه العاجلة هى انكم جميعا كنتم تلامذة لعبد الناصر. لم يكن بينكم زعيم. فكان من السهل على الخف أن يجهز عليكم.

ـ صدقت.

ـ وقد يكون هناك سبب آخر أكثر عمقا . انه لم يكن وحده في المعركة معكم. كانت معه المجموعة التي تدير القطاع العام . والرأسمالية الوطنية. فالبرجوازيون الذين قادوا المشروعات العامة في عهد الزعيم ، استمروا في قيادتها عندما تولى خليفته . وكان البرجوازيون كذلك يقودون التنظيم السياسي. لهذا لم يستجب التنظيم السياسي لكم.

هذه المجموعات وجدت هويتها مع الحاكم ، أكثر مما وجدتها معكم ومع الزعيم. كان الخلف متكئا على قاعدة تنتصر له لا لكم.

وعلق عبد الحميد:

ـ كنا نتمنى أن تنضم الينا الجماهير.

ـ الجماهير العاملة واعية انها لم تشعر ابان حكمكم، بأنها جزء من ذلك الحكم. أو أنها قوة منظمة تساند الحكم وتحميه. عزلها النظام عن وسائل الانتاج فأصبحت مغتربة. بينما يقود الرأسماليون الجدد الاقتصاد القومي لمصلحتهم. بذلك لا يكون هناك فارق لديها بينكم وبين الحاكم الجديد. . الواقع ، أن الطبقة

ورد عبد الحميد:

- هل هذا الانفتاح الحالى، أو التسيب، يماثل نظامنا الاقتصادى؟

- الفارق بينهما فارق فى الدرجة. وليس فارقا نوعيا. البرجوازية كانت منضبطة نوعا فى عهد الزعيم. المرحلة كانت تتطلب ذلك. وهى الان طليقة. تفتح لها البلد أبوابها ونوافذها، على مصاريعها. زرعت البذرة فى عهد عبد الناصر. وتتفرع وتورق أشجارها هذه الايام.

وجه وزير الرياسة السابق الحديث وجهة أخرى:

- دعنا ننظر الى المستقبل. جئتك فى موضوع هام. نحن بصدد تكوين تنظيم ثورى.

- من سيسهم فيه؟

- لست فى حل من ذكر أسمائهم، الى أن تنضم الينا.

- أتذكر مجموعتك فى التنظيم الطليعى؟ كانت كلها فرقاء وألوية، ووكلاء وزارات، ورؤساء مجالس اداره، وعامل واحد مترف، أسوأ من هؤلاء جميعا!

- أتذكر مجموعتك فى التنظيم الطليعى؟ كانت كلها فرقاء وألوية، ووكلاء وزارات، ورؤساء مجالس اداره، وعامل واحد مترف، أسوأ من هؤلاء جميعا!

- ألم أرجك أن تنسى الماضى؟

- الماضى والحاضر والمستقبل مركب زمنى وتاريخى، يؤثر فى بعضه بعضا.

- أنا «مش قدك» يادكتور. أؤكد لك أن المجموعة الجديدة ثوار واشتراكيون.

- التجربة الاشتراكية فى مصر، كانت لها ألوان متعددة: سماها البعض الاشتراكية العربية، والبعض الاخر: «الاشتراكية الاسلامية» ثم أطلق عليها «الطريق العربى للاشتراكية». ونعتت فى الميثاق الوطنى بأنها اشتراكية علمية فأين أنتم من هذه الألوان؟

- اشتراكية تنظيمنا «علمية».

الاشتراكية العلميه، عرفت فى الفكر الانسانى، بأنها الاشتراكية الماركسية فهل أنتم ماركسيون.؟

ـ لا . لسنا ماركسيين.

ـ اصلاحيون؟

ـ نحن ثوريون.

ـ لو أمكنك أن تفصح عن بعض أسماء المشتركين معك ، لقلت لك على الفور أى نوع من الاشتراكية تتبعون. هذا اذا كان فى الاشتراكية أنواع.

ـ اعذرنى. لا أستطيع .

ـ دعنى أسألك : هل يضم التنظيم عناصر من الرأسمالية الوطنية؟

أجاب عبد الحميد بحماسة، دون أن يفطن الى «الفخ» الذى نصبه له خالد .

ـ نعم لدينا عناصر جيدة.

نسى عبد الحميد الحوار الذى دار بينه وبين خالد، ابان حكم عبد الناصر حينما قال له: كيف يمكن للرأسماليين «وطنيين» وغير وطنيين، أن يقودوا مجتمعا الى بناء الاشتراكية. وهدف

هذه أن تنزع الارض والمصانع ، من أيديهم، وتعطى للجماهير. وبين خالد له ، كيف خربت الاشتراكية فى عهد عبد الناصر بواسطة الرأسمالية الوطنية، وغير الوطنية. ثم استمر فى تساؤلاته:

- هل معكم عمال وفلاحون؟

حك عبد الحميد جبهته، وأجاب فى غير حماسة:

- أجل .. حتى الان لدينا عامل واحد.

ورد خالد على الفور:

- أعرفه!

- كيف ، والاسماء كلها سرية.

- أسمه «وجيه برغوت»! ذلك العامل الوحيد الذى كان عضوا فى مجموعتك فى التنظيم الطليعى. والذى كان عضوا فى مجلس الامة. ومنحتموه شقة فاخرة على النيل. وسيارة انسيابية. وكان يلبس «كارفته سولكا»!

ضاق صدر عبد الحميد بالطريقة التى يتبعها خالد فى الحوار.

ولو أنه كان مشهورا بالصبر. أخذ يتبرم. ثم قال:

- أرجو أن تأخذ الامور بجدية أكثر.

لا تغضب. ألم يكن وجيه عضوا فى جماعتك القيادية الطليعية؟

- قلت لك/ عفا الله عما سلف.

- وهو كذلك. لكن كيف يقوم تنظيم ثورى، يغير الاوضاع الاجتماعية الظالمة. ويقيم مجتمعا اشتراكيا ، يلغى فيه استغلال الانسان للانسان، من غير أن تكون عمده الاساسية ، العمال والفلاحون؟

- سوف نضمهم فيما بعد. انما النواة الثورية، ليس من الضرورى أن تكون من طبقة العمال والفلاحين فماركس مثلا، كان أستاذا جامعيا ، وصحفيا، من طبقة متوسطة. وانجلز كان أبوه من رجال الاعمال. ولينين لم يكن عاملا بالمعنى الحقيقى وشو ان لاى، انحدر من أسرة اقطاعية.

- أتفق معك فى أن الوعى الطبقى وليس الاصل الطبقى هو

الحاسم فى ثورية الانسان. فهؤلاء الذين ذكرت أتوا من طبقات غير عمالية. ومع ذلك فقد أبدعوا فكرا وتطبيقا ثوريا، يغطى نصف الارض. وذلك أنهم آمنوا بمشكلة الانسان، واستشعروا عناءاته. وصاروا قطعة من الجماهير المستغلة.

وخاضوا نضالا مذهلا من أجلها . ولم ينفردوا بقيادتها. فقد كانت مهمتهم خلق قيادات من الطبقة العاملة والفلاحية، لتتولى أمورها، وتحمى نظامها بنفسها. بينما من المتصور أن نجد عمالا ذوى وعى ضرير، كالاخ وجيه برغوت، الذى يعتبر كارثة على طبقته. وهنا قاطعه عبد الحميد:

ـ يا أخى فى عرضك . اعتقنى.

حاول خالد أن يهدئه:

ـ على أية حال، دعنى أفكر فى الأمر.

وأجابه عبد الحميد بنغمة محايدة:

ـ أرجو ذلك. وهذا هو عنوانى.

خاتمة روتينية: خالد ليس على استعداد لأن يسهم فى تجربة

برجوازية أخرى. وعبد الحميد لا يمكن أن يؤسس تنظيما اشتراكيا علميا.

- - - -

نقل خالد الى مجاهد صورة العلاقة بين عبد الناصر فى سنواته الأخيرة، وبين الخلف. توقع أنه سيجزع اذ يسمعها. لكن رد الفعل كان غير متوقع:

- كل شئ جائز فى مثل هذا الحكم. مزاج الحاكم هو الفيصل. مستقبل الملايين يمسك به انسان فرد. تتلاعب بهم جموحاته، ومتاعبه النفسية والجسدية. يختارخليفته كما يهوى. وكأننا تركة يسلمها الحاكم لخلفه من الوارثين.

وعلق خالد:

- اتفق معك. ولو أن الحاكم الفرد يمثل طبقة، هى التى تشكل سلوكياته.

هدأت الزفة، التى نظمتها المجموعة القيادية للاحتفال بتنصيب الخليفة رئيسا. وبعد انتهاء الزفة افترسهم جميعا. حاكمهم بتهمة قلب نظام الحكم. أسماهم «مراكز القوى».

ـ اعتقد أنهم كانوا مراكز ضعفَ!

ـ لهذا كانوا لقمة سلهة له. تخلت عنهم كل القوى البرجوازية الشريكة. ناصرت الخلف . وانقلب التيار «الاشتراكى» ، الى تيار رأسمالى بسهولة ويسر.

ـ ٣ ـ

مابرحت فكرة «العلاقة بين الغاء الاشتراكية»، وبتر الانتصار، تشاغل خالد. رغب فى أن يكتشف الأمر بنفسه. عليه أن يجوس خلال المدينة. يتصفح وجوه أهلها، ويحادثهم. لعله يجد اجابة شافية للسؤال المحير. ماذا دها القاهرة؟ الأرصفة محفرة، لايستطيع المشى عليها. الزبالة تقبح حتى الأحياء الراقية. الشوارع تمتزج فيها مياه المجارى بمياه الشرب. الناس يحشرون فى الاتوبيسات حشرا. يقذفون بأنفسهم على أبوابها ونوافذها وعجلاتها. ضاقوا بالانتظار فى وهج الشمس ساعات طوالا. قرروا الوصول الى غاياتهم أو الانتحار. الجماهير يتزاحمون بالمناكب على افران تبيع لهم خبزا لونه كالتراب. الاسعار عند الجزار

والبقال والخضرى، تمنع الطبقة الشعبية من الاقتراب منها. هل عاد الناس لأكل الخبز فحسب؟ ارتعدت فرائصة. تذكر الخبز الذرة، الذى كان يقتات به، مع الفلاحين ، فى وسية الخواجه اليونانى ، عندما كان يعمل فيها صبيا.

أخذ الطريق الجديد الموصل بين مصر الجديدة ووسط المدينة: طريق صلاح سالم. على مشارف مدينة نصر، وجد ابراجا وعمائر فخمة سامقة. سأل عاملا زرى الشياب، يلطخ الجير والاسمنت وجهه:

- لمن تبنون هذه العمائر؟

- للضباط.

تذكر الوسية العسكرية، فى عهد الملك، حينما كان جنديا فى الجيش. الفرقاء والألوية بعد ١٩٥٢، كان العساكر يقيمون لهم الفلل، بمواد من الجيش، تنقلها لورياته. لعل هذه الابراح السامقة التى يراها الآن تسكنها الرتب الادنى. سار فى طريقه. لم يمض طويلا حتى أشرف على منطقة المقابر: مقابر الخفير، والعباسية ، والامام الشافعى.

بشر يعبرون الطريق زرافات ووحدانا. لا يعبأون بالسيارات، ولا تعبأ بهم. كيف يمكن أن تزدحم المقابر بهؤلاء الناس؟ اليوم ليس خميسا أو جمعة، لكى يزور الناس موتاهم. هم كذلك خليط كبير من الشباب والشيوخ ، والنساء والاطفال. يهرعون الى شوارع «الجبانة»، يملأونها . ليس هناك نعوش يتجمعون حولها. ويحملون راكبيها الى مقارهم الأخيرة.

أثاره الفضول . عبر الطريق . سار مع المواكب الحية فى الشوارع الميتة. جماعات تنفصل عن المواكب. يدخلون المقابر. يقفلون الابواب خلفهم. الصبايا سمهريات القوام ، يدخلن كذلك. أجسادهن الهزيلة تغطيها ملابس زاهية رخيصة. يحاولن بالزينة تلوين الوجوه الشاحبة، والعيون الذابلة. كل هذا لا يستخدم لزيارة الموتى، أو وداعهم. لم يستطع أن يصل الى اجابة تريحه. تقدم نحو شاب فى مقتبل العمر. يلبس «بنطلون جينز» ، وقميصا مشجرا. شعره فاحم «خنفسى» . كان الشاب يهم بدخول مقبرة. استوقفه:

تسمح لى بسؤال:

أجاب الشاب بصوت فيه صليل الشباب ، ورنين الحياة.

تفضل :

بدأ خالد الكلام .. وكرر الشاب:

ـ تفضل

فتح الباب ، وأشار الى خالد بيده أن يدخل. تردد خالد:

ـ أين أتفضل؟

ـ هنا . هذا بيتى!

دلف خالد الى الداخل. هاله ما رأى لأول وهله. تزاوج الحياة والموت. القبر مسجى، وسط فناء البناء. متدثر بسياج سندسى. تحف به أصص من الزهر. قسمت المقبرة الى غرف باستخدام الستائر. هذه غرفة الجلوس، أو «المسافرين»، ربما الى الآخره! وتلك غرف النوم، والسفره والمطبخ ، ودورة المياه. كانت المقبرة، على ضيقها ، قد نسقت بيد فنانة . جمعت باقتدار فنى بين الدنيا والآخرة! لم يكن خالد يدرى شيئا عن هذه الظاهرة . ورجا ضيفه قائلا:

ـ ألا فسرت لى ما أرى.

ـ ألم تسمع عن الظاهرة الكبرى. ألا تعيش فى القاهرة؟

ـ جئت من أفريقيا منذ يومين.

ـ ألا توجد الظاهرة فى أفريقيا ؟

ـ حدثنى عنها أولا. لأنى لم أزر المقابر فى أفريقيا.

ـ هذا منزلنا!

ـ هل بناه المغفور له والدك؟ وهل هذا هو قبره؟

ـ المغفور له والدى مازال حيا ! وسأقدمه لك حالا. وهذا ليس قبره.

ـ قبر من؟

ـ لا أدرى.

وشرح له الشاب الظاهرة : مئات الالاف، أو الملايين ، من المواطنين، الذين يسكنون القبور. قال له:

ـ هكذا ترى الرخاء، الذى تتحدث عنه الحكومة.

ـ لكن على بعد امتار منكم، يوجد الرخاء ، فى شكل عمائر باسقات.

ـ هذه العمائر للاحياء.

ـ ولكننى أرى دفق الحياة فى وجهك.

ـ لا تأخذ بالمظاهر!

كان الحديث يدور، ومسجل يرسل من وراء القبر أنغاما صاخبة، من موسيقى الديسكو. الشاب يتمايل معها. قال خالد له:

ـ أحس بالحيوية تتفجر من حديثك. وحتى الموسيقى أحدث ماوصل الينا من أمريكا.

ـ الحق، أننا حينما حضرنا الى هنا، أول الامر، خيم الموت بسجفه الثقيله فوق رؤوسنا وأخذت أصابعه الثلجية تشق صدورنا. وتزرع الظلمة والعدم فينا. ثم يئسنا من الحكومة، ووعودها بشقة شعبية تأوينا. بعد ذلك تعودنا على الموت. وتعود الموت علينا. أصبحنا نصادقه ونخاصم الحياة!

سكت الشاب برهة ثم سأل خالد:

ـ لعلك أعجبت بتنسيق المنزل.

لم أر مكانا يمزج بين جمال الحياة والموت كهذا المكان. ان الذى نسقه فنان مبدع.

سكت لحظة. ثم استأنف خالد الحديث. الشاب ظاهرة تتطلب مزيدا من الاكتشاف.

ـ اننى لم أعرف اسمك حتى الان.

ـ صوفى.

ـ لهذا تتكلم فلسفة

ـ لست صوفيا ولا فيلسوفا. أنا طالب بالسنة الاخيرة بكلية لهندسة قسم العمارة!

ـ لهذا أبدعت هذه التكوينه الجمالية للمقبرة المسكن.

ـ اننى أخبئ لك مفاجأة.

ـ أكثر مما أرى.

المشروع الذى سأتقدم به فى امتحان البكالوريوس، سيكون موضوعه : ـ« البيت الأبدى » وهو استخدام فن العمارة لمزج الموت بالحياة!

ـ هل أنت جاد ؟

كل الجـــد. أرأيت أننى منذ التـــقـــيت بك ، لم أبتـــسم ، ولم أضحك، ولم «أنكت».

ـ هذا يدعو للأسى ، وأنت فى شرخ الشباب.

ـ لا تأس على شئ ولا تفرح لشئ ..فـالأسى والبـهـجـة يرتدان لشئ واحد هو أنهما لا شئ.

ـ هل يمكن أن تكون هذه أفكار شاب فى العشرين من عمره؟

ـ فى العـشـرين أو فى السـتـين، يسـتـوى الأمـر. كل الأعـمـار تنتهى هنا ـ ان المرء يخطو خلف أخيه.

أفكار الشـاب ، ورزانتـه، تحدث مزيجا كئيبا فى وجدان خالد. كلماته تعكس على وجهه غـمـامات من الهم الكظيم. ولا أثر لها على وجهه هو . كأنه لا يقول كلاما يخرب الحياة. وينفى الحكمة من وجودها. لمح صوفى تيارات الحزن التى تتخبط فى وجه ضيفه. قال له:

ـ لا تبـتـئس. فـأنا لست مـبـتـئـسـا . رغم أن طاحـونة الكون، بحـيـاته ومـوتـه، تجرشنى أنا ، ولم تمسسك. صـدقنى أن الانفـعـال والابتـئـاس يتـمـاثلان مع البـلادة والابتـهـاج. ألا ترى أن الحـركـة

والجمود يتحدان فى هذا المكان؟

ـ هل قرأت فلسفة؟

ـ أبدا. مرة أخرى ، لست متصوفا. ولا اعترف بالتصوف. انا لا أريد أن أنال من عقيدتك. فأنا لا أدرى ان كنت مؤمنا أم لست مؤمنا. يساريا أو يمينيا. يرمونك بالالحاد ، لانك ثورى ، تريد تغيير النظام الاجتماعى الظالم، أم لا يرمونك، لانك لاتبالى بالنظم الاجتماعية. أنا لا أعلم شيئا عنك. لكنى لا أعبأ بالايمان أو الالحاد. أنهما يولدان معا ، وينتهيان معا فى هذا الكون. انظر مليا الى هذا القبر، ينبئك بما أقول.

توقف صوفى عن الاسترسال فى أفكاره. لاحظ أنه أراد أن يخفف عن ضيفه، فاذا به يثقل عليه. أحب أن يغير المشهد ، ليدخل فيه ممثلون آخرون. نادى على افراد أسرته، للقاء ضيفه. هذا ابوه. شيخ يخطو نحو السبعين. بشرة بيضاء. أكبر الظن أن الزمن لم يجعدها. بقدر ما فعل منظر القبر. متين البناء فارع . أصبح فرعه لا يتجه الى أعلى. كما كان حاله قبل أن يقطن هذا المكان لقد انحنى تجاه القبر. كأن القبر مغناطيسى يجذبه اليه!

حـيـا خـالد الرجل. لاحظ أنه يتـجنب النظر الى القـبـر. اذا ماتصادف ، رغما عنه، انه لمحه، يصيبه ذعر بالغ. يظهر فى حركة عصبية تهز أهدابه وجفونه، وتطفئ مقلتيه. لم يقل الرجل شيئا غير عبارة واحدة. يرددها أحيانا بهدوء، وأحيانا تنطق على لسانه دون ارادته: دفنونا بالحيا. دفنونا بالحيا».

تخطرت اخوات صوفى الصـغـيرات. زهرات يانعـات . ينفـثن العطر فى رائحـة العـدم. كـانت البنات يتـحلقن حـول الموت، ولا يبالين به. وكأنهن ملائكة، حوريات صغار . يهبسن بالراقدين أن ينهضوا، فقد نفخ فى الصور. ردت صورة البنات الثقة فى الحيـاة فى صدر خالد. تلك الثقة التى أوشك صوفى أن يدهمها.

ثم جاءت كبراهن . برعـمـه متـفـتحـه. تشيع فى المكان جمـال الحـيـاة، واشـراق الكون. وريقـاتـهـا الرفـافـة، وغـصـنهـا المختـال ، وألوانها الزاهية، نثرت فى المكان بهجة ورواء . كيف ينبت الموت براعم فـواحـة؟ كيف تتـأود الاغصان فى دنيـا هامدة؟ الفـتـاة ردت الى خالد قلبه.

وحضـرت الأم : أصلهـا الفلاحى يبـدو فى مـلامـحهـا وكلامـهـا .

وجه الفلاحة الصبور المتحفزة، الشجاعة. رددت النغمة التى يرددها الناس فى الشوارع: الظالمون يرمونن فى القبور. أنهم يعتقدون بأن الاموات لا يطالبون بحقوقهم. قل لهم اننا سنبعث من القبور توا. قبل يوم الحشر بكثير! وسنسكن العمائر كما يسكن البشر. قل لهم كذلك أننا سوف نكون كراما . لن نلقى بهم فى القبور، كما ألقوا بنا!

حينما وجد صوفى أن خالد انتعش بعض الشئ بلقاء أسرته، اراد أن يستأنف نظرياته. واصل حفاوته بضيفه. أغرقه بافكار سخية. لم يظهر سخاؤه فى شكل مشروب ساخن أو بارد. فعنده يتساوى تقديم المشروب للضيف مع عدم تقديمه! قال:

ـ أنا لا أوافق والدى ، على الفكرة التى يرددها بأن الحاكم ورجاله «دفنونا بالحيا». ان الرجل أسدى الى جميلا لا أنساه. هو الذى قذف بنا الى هذه القبور. وأوحى الى بالفكرة الفذة، التى سأستخدمها فى مشروعى المعمارى: «البيت الابدى». الرجل يريد أن يريحنا : نولد ونعيش ونموت فى نفس المكان! ويوفر علينا متاعب الميلاد والحياة والموت، وازمة المواصلات . صدقنى أن فكرة تكديس الاحياء الاموات فى مساكن أبدية ، كالتى نسكنها فكرة

عبقرية! سوف تدرك نظرتى ، ونظرة الحاكمين، حينما يتقدم بك العمر. وتزداد خبراتك!

رد عليه خالد، الذى بدأ العقد الخامس من عمره:

ـ والدك لا يشاركك الرأى

ـ والدى له ظروف خاصة. ناضل طويلا ضد الموت الاجتماعى، الذى فرضته الحكومات المتتابعة عليه. وعلى جماهير مصر. لكن الموت الاجتماعى قهره. قذف به هنا، الى الموت الطبيعى.

ـ وأمك العظيمة؟

ـ أمى هذه فلاحه. تقول ما يردده الفلاحون والعمال والمطحونون. وهؤلاء لا يعون ما يقولون . انهم لا يرتفعون الى فلسفة الحكومة.

ـ وفلفستك كذلك.

ـ لا تقلل من شأن فلسفتى.

ـ هل غضبت؟ أنا آسف.

ـ عبارتك الاخيرة، تدل على أنك لم تفهم فلسفتى بعد. الغضب والرضا يستويان لدى. فكيف أغضب؟

صدر أختي ينضب. والمآل ، كما ترى أمامك ، القبر.

فزع خالد فزعا شديدا. شحبت في عينيه الوجوه النضره. صار العود المتأود يابسا . انتفض من مجلسه. يريد الفرار من هذا الشباب. هذه البيئة تنشب مخالبها في آماله وطموحاته. تحاول أن تفتك بفكرة الانسان والحياة لديه. أحسن الشاب بأن افكاره تضرب بمعاولها في جنان خالد. تحاول أن تهدم بناء غاليا من المبادئ، وحب الانسان والحياة. أراد أن يخفف عنه. لأنه أحب الحديث معه:

ـ الى أين أنت ذاهب؟

ـ أريد أن أغادر مدينة الاموات فورا.

ـ هل تعتبرنا من الأموات؟

ـ ان حديثك هو حديث الموتى.

ـ أصارحك، بأنني أستريح اليك. والامر الوحيد الذى آسف له، انك لم تتعمق أفكارى تماما.

ـ أشكرك، الى لقاء.

التى اسميها، «المدينة الكونية» ، وتسميها انت «مدينة الموتى».

تردد حسن فى البقاء ، ثم واتته الرغبة، فى الغوص فى هذه الظاهرةو التى تنفرد بها مصر. لم يشهد لها مثيلا، حتى فى أفريقيا. وافق على اقتراح صوفى.

أخذا يتجولان بين بيوت الموت «الابدية» . خالد مازال يرى الحياة تجرى فى سيقان الاطفال. الذين يلعبون فى شوارع المقابر. وفى اقدام الكبار، الذين يغادرون مدينة الموت كل يوم ، ليتشبثوا بالحياة خارجها. يؤدون وظائف وأعمالا وتجارة. ثم يعودون اليها بخطوات متثاقلة. لكن فيها حركة الحياة. صوفى لا يود أن يدعه فى تصوراته:

ـ لا تغرنك هذه الحركة. انظر الى الوجوه الشاحبه كوجوه الموتى. هذه الرؤوس المركبة فوق هذه الاجساد الهزيلة، هى نفس الرؤوس الموضوعة على المقابر!

وتصيب الرعدة خالد: كانت الوجوه شاحبة حقا. النظام الاجتماعى منطقى فى تشكيله لحياة الناس. لم يقتصر على تشريد هؤلاء الناس ، والقذف بهم الى الاخرة، وهم لا يزالون محسوبين

هؤلاء الناس ، والقذف بهم الى الاخرة، وهم لا يزالون محسوبين على الدنيا. مازالوا فى سن الزهور، والانتاج، والابداع. ولكن منحهم كذلك الجوع، والغذاء المتردى. ومن ثم الوجوه التى شاركت وجوه الموتى ألوانها. وأكمل صوفى الصورة. فتخيل خالد هؤلاء الناس قبورا تزحف نحوه، وتحيط به. ترنح. أوشك أن يساقط الى الارض. سانده صوفى. أيقظته أصوات طبل وزمر. انعشته. قضى طفولته وصباه فى القرية. طالما اهتزت مشاعره مع «الطبل البلدى». رأى مقبرة تتناثر على بابها ثريات كهربية! نظر الى صوفى، الذى أدرك معنى نظرته. وقال له:

ـ أنت لا توافق على أفكارى. لهذا لن أقول لك ماذا يجرى فى هذا البيت. أراد صوفى أن «يتقل» على خالد، حتى لا يعارضه. لكن رغبته فى البوح بأفكاره كانت قوية:

ـ سأخبرك بسر هذه المقبرة على الا تعترض على أفكارى!

ورد خالد:

ـ لك الحرية كلها فيما تقول . لكننى أتوسل اليك، ألا تفرغ فلسفتك فى دع قبسا من الحياة ينير طريقى. أصحبنى الى أى

مكان تريدنى أن أراه، دون أن تعلق. دعنى أنا استغرق فيما أرى.

- لانك صديق، فانى أوافقك. هذا «البيت الابدى» فيه عرس!

دخلا المقبرة مع الداخلين. منظر فريد. العروس والعريس يرتديان ملابس العرس يجلسان فى «كوشة» متواضعة. يواجهان القبر. يلتف «المعازيم» المحتفلون بهم حول القبر. الفناء صغير وليس بالمقبرة حجرات. مقبرة فقيرة ضيقة. آوت اليها عائلة فقيرة. كان صوفي متابعا لنظرات خالد. بادره قائلا:

- أرى فى عينيك تساؤلا . هذا هو الرد عليه: نحن الآن فى حى «العشش الابدية» ! تركنا حى «البيوت» . وسأطوف بك حالا ، فى «حى القصور والفلل الابدية»!

لم يجد خالد بدا من أن يسأل:

- هل تنقسم مدينة الموتى الى طبّقات؟

- أجل! بيتنا يقع فى حى الطبقة المتوسطة. وها نحن فى «أحياء الطبقات التى تسمونها كادحة».

كانت المقبرة «العشة» قد أخذت زخوفها وأزينت. الشرائط الحريرية الملونة، تصل ما بين الكوشة والقبر! تربط الشرائط فى القبر بشكل هندسى. يشير الى الجانب الجمالى. كما يشير الى الجانب الفلسفى: الرابطة العميقة التى تربط العروسين الفرحين بشبابهما ، بمصيرهما المحتوم. بهر المنظر خالد فى جانبيه الجمالى والفلسفى . فاجأ رفيقه:

ـ أنت الذى صممت هذه الزينة!

ـ كيف عرفت؟

ـ أسلوبك فى «الديكور» الابدى واضح.

ـ الآن، اطمئن الى استيعابك لرؤيتى!

ـ دعك من الاستيعاب الان . وامض فى رؤيتك، فانى مستمع اليك.

ـ أنت الذى طلبت ، فلا تلمنى.

ـ لن ألومك ، فاللوم والرضا يتشابهان!

ـ الله! لن اضن عليك اسمع يا سيدي. تابعت عينيك ، وهي

تبحث عن غرف واسرة ، كتلك التي في منزلنا، ولم تجد. القبر هنا ليس ككل القبور. منخفض يشبه المصطبة. العروسان سيضعان المرتبة عليه. ويضاجعان بعضهما فوقه!

- خطير انت. وحق نظريتك الابدية!

مضى خالد مع الشاب فى شوارع الموت. تعبث برأسه افكار عاصفة : هذه الالاف المولفة من الشباب، التي قذف بها إلى الموت. وقضى على طاقة الخلق والانتاج فيهم. وأصبحت طاقات للفناء. اكواخ الموت. لم ينقذها الموت من المصائب التى تحيق بأكواخ الاحياء. لم تعد المجارى هنا مكلفة للحكومة. انها لا تطفح. الاحياء الاموات يتخذون من الشوارع نفسها دورات مياه!

قاد صوفى ضيفه الى مشهد اخر فى حى الاكواخ الابدية امرأة تلد. النساء يزغردن. الطفل يصرخ.منظر القبر افزعه ! ايدرك اطفل قبح القبر ورهبته، ولم تكتمل حواسه بعد؟ شاء خالد الا يناقش صوفى هنا. أراد أن يأخذ هدنة بعيدا عن رؤيته. فلسف الأمر لنفسه، فلسفة مريحة. وضعت المرأة الطفل فوق القبر: الحياة تعتلى الموت.

ودلف به صــوفى الى منزل مــجــاور: نحــيب وعــويل، ولطم للخدود، وشق للجيوب:

ـ أهذا ميت جديد أتوا به من مدينة الاحياء؟

ـ لا . هذا مــيت جــديد من مــدينة الامــوات! من سكان هذه «العشة الابدية».

ـ يعنى ميت من الباب للباب !

ـ ألم أقل لك أن هذا الرجل الذى يحكمنا قد أراحنا كـثـيـرا. وفـر علينا مـشـقـة الانتـقـال من مـدينتكم الى هذه المدينة. الامـر بسيط. كان هذا الرجل بالامس من الراقدين فوق التراب، فأصبح من الراقدين تحته!

فهم خالد فلسفة زميله. اثارت فى ذهنه ضبابا . لكنه استمر فى المقاومة تحمل هذه الخلخلة الفكرية، لانه يريد أن يعرف. كان، طوال حياته، يدرك أن المعرفة بناء وايجابية وتقدم. لم يكن يدرى، أنه يمكن أن تكون للمعرفة وجوه أخرى: هدم وسلبية، وموات!

أسلم قياده مرة أخرى الى صوفي. شق به رفيقه حى القبور العشش. خاضا قذارة أبدية، تغرق شوارع الموت. عرج صوفى به

الى الفلل القبور: انيقة مطلية سامقه! وجد امام تلك الفلل والقصور بوابين وحراسا. تماما كبوابى العمارات الباسقة، والفلل الانيقة فى دنيا الاحياء. وفى «بدروم الفلل» توجد كهوف مظلمة، يعيش فيها البوابون وأسرهم. كما يعيش زملاؤهم خارج مدينة الموتى. كان على أبواب الفلل والقصور القبور اقفال ضخمة، ومزاليج قوية. لم يستطع للظاهرة فهما. اسعفه صوفى بالاجابة.

ـ اصحاب الفلل والقصور القبور عندنا ، هم أصحاب الفلل والقصور عندكم. يحتكرون الترف فى الحياة الدنيا وفى الاخرة! الامر ليس مقصورا على أن موتاهم يترفون. فيسكنون هذه المساكن الفخمة. لكنها حرام على أبناء الشعب الفقير من الاحياء ، الذين يقذف بهم النظام الاجتماعى الى دنيا الموت! كيف ينام الحى الفقير الكادح ، الى جانب الميت الغنى المترف؟ كيف يرقد العامل فى قبر الرأسمالى؟ كيف يسكنا نفس المسكن؟ هذه فوضى. هذه شيوعية!

تهلل خالد. صوفى لديه وعى اجتماعى. وعيه ليس أبديا فحسب . ربما يكون الوعى الابدى قد افرغه النظام فى جوفه.

ابتسم خالد قائلا:

ـ ما هذا الكلام الجميل؟

ـ أنا أقول كلاما جميلا دائما! اسمع ياسيدى: الفقراء الموتى، هم الذين يفتحون مقابرهم للفقراء الاحياء . أرأيت الى التعاطف الطبقى بين الاحياء والأموات!؟

ـ هل هذا معقول ؟ كنت تتكلم عن الموت، وأصبحت تتكلم عن الحياة.

ـ يخيل لك ذلك ، لانك شعبى . وانتم الشعبيون تفسرون الامور لصالحكم!

ـ كيف عرفت اننى شعبى؟

ـ هذا واضح، رغم ملابسك غير الشعبية! ودليلى، انك تهللت جذلا حينما سمعت عباراتى الاخيرة عن الكادحين والمترفين، وعن العمال والرأسماليين ودليلى الثانى، انك جئت الى هنا. ولا يأتى الى هنا من الاحياء الا الشعبيون.

اكتفى خالد بهذا القدر من التجول فى مدينة الاحياء الاموات . قنع بهذه الجرعه من فلسفة صوفى «الابدية» سعد بهذه الكبوة، التى انزلق اليها صوفى. اتخذ حديثه نغمة الحياة .فرق بين الغنى

والفقر ، والعمال والرأسماليين. ومع ذلك لم يشأ أن يترك صوفى متجليا فى رؤيته «الابدية». قال له وهو يغادره:

أنت ذكى ياصوفى. وتعلم أن نظام المجتمع، هو الذى قبرك وأهلك هنا.

وبدلا من أن تنقلب الى ثورى. وتناضل لانتشال الاحياء من مخالب القبور. اذا بك «تتدروش. على انك درويش نبيه. اخترت نوعا من الدراسة ينبئ بعبقرية. انت تدرس المعمار . والمعمار مهمة «المقاولون» وما ادراك ما «المقاولون» . وبعد تخرجك ستنضم اليهم. وستبنى العمائر السامقة، وتربح وتثرى من بنائها. وستسهم فى أن تقذف معهم باهلك ، وبالملايين من أبناء بلدك، فى هذه القبور. وسوف يكون شعارك، كما هو الآن : المالكون للعمائر، كغير المالكين. والساكنون للفلل كالساكنين للقبور! الا اذا انتصرت فيك ذرات الوعى الانسانى ، التى نطقت بها أخيرا. وثرت ، وأنقذت أهلك ومواطنيك من أنياب الفناء.

انطلق خالد بعد هذه العبارات يسابق الريح. يريد أن يهرب بجلده من هذا المكان. ومن صوفى ، ومن رؤيته. الخلخلة التى

تسبب فيها صوفى، مازالت جزئية فى عقله. قوى الحياة تناطحها لم يشأ كذلك أن يسمع رد صوفى عليه. ولى الادبار. سمع صوت صوفى، وهو يبتعد يصيح:

ـ الى اللقاء.

ـ أوشك أن يرد «أعـوذ بالله. الى غـيـر لقـاء» . لكن منع لسانه:

ـ الى اللقاء!

- - - -

ـ٤ـ

فر خالد من مدينة الفناء. ود أن ينقذ نفسه من خمود الموت. ومن قوم لهم رءوس كرءوس القبور. عبر الطريق الذى يفصل دنيا الأحياء ، عن دنيا الاموات. أطل عليه فجأة قبر كبير. قبر القلعة هناك خلف هذه الاسوار ، وتحت تلك القباب قبر لا ككل القبور. وضع فيه خالد مع مجموعة من زهرة شباب مصر.

لم يستطع أن يكمل رحلة الاستكشاف، التى بدأها فى الصباح

. هدت مدينة الموت، وقبر القلعة الكبير كيانه. عاد الى منزله. قضى ليلة بين «الكوابيس» والاحلام المفزعة. استرجع مشاهد الموت فى دنيا المقابر. انها تختلط مع مناظر المعتقل في القلعة. السياط تهوى على رءوس القبور. وآلات التعذيب تجرش صوفى وتصعقه. يختلط وجه صوفى بوجوه شباب منظمة الشباب فى قبر القلعة. يحاول فى نومه أن يمنع السياط من أن تمزق ظهر صوفى. الضابط الذى يباشر التعذيب هو تلميذه، من خريجى كلية الشرطة. كان أحد الضباط القائمين على المعتقل إبان اعتقاله. سأله:

ـ لماذا تضرب الشباب الثورى؟ كيف تضرب هذا الشاب ، وهو معكم ، أو على الاقل ليس ضدكم؟

ـ نحن نضرب الكل : من هو ضدنا، ومن ليس معنا. الا تذكر حوارك معه بالأمس ؟ كان يتحدث عن الفلل القبور، والعشش القبور!

ـ كيف عرفت؟

ـ ألم تعلمك كل هذه السنين؟ لدينا وسائل تمدنا بمكنون الأنفس،

وما تخفى الصدور!

استدار الضابط نحو خالد. أخذ وجهه يربد وترسل عيناه شواظا.

قال له بصوت غاضب:

ـ ما الذى جاء بك الى هذا المكان؟ ألم أقل لك: لا تأتى الى هنا مرة أخرى؟

ـ لا أدرى. أنتم الذين جئتم بى.

ـ هل عملت بنصيحتى ؟ قلت لك عندما نزلت ضيفا علينا ، فى المرة السابقة، ان تترك السياسة ، وتتبع عملية «الهبر»! يبدو أنك بدأت عملية الهبر. فقد ذهبت الى افريقيا ، وتعمل في الأمم المتحدة. هذا مجال للهبر. الهبر الدولى، الذى شرحته لك منذ عدة سنوات. ولكنه هبر ضئيل ، يعتمد على العمل!

قبل أن يجيبه خالد، اكفهر وجه الضابط. طوح فى يده بكرباج غليظ أسود ـ صاح فيه صيحة مرعبة:

أنا لم أعذبك فى المرة الماضية، لانك أستاذى. أما هذه المرة فقد

عصيت أوامرى. يخيل الى أنك لم تباشر الهبر الحقيقى بعد ، ومازلت تفكر فى السياسة. لن أكرمك هذه المرة.

وهوى على وجهه بكرياجه القاتل . هب خالد من نومه، وهو يصرخ. ولما وجد بصيصا من النور يتسلل من نافذة الغرفة، فرح فرحة أرعشت بدنه.

فى الصباح، دق جرس التليفون. المنقذ: مجاهد. اتفقا على اللقاء وسط المدينة. لاحظ مجاهد، عندما تقابلا أن خالد هزيل الحركة. تحوط عينيه هالات سوداء سأله:

ـ مابال لونك شاحبا ؟

لم يستطع خالد أن يقص عليه قصة الأمس. سوف يوهن قصها المفصل من قوته. لخصها له تلخيصا شديدا. استمع مجاهد له فى هدوء غريب وقال:

ـ هذه قصة معروفة. ذنبك أنك غبت عنا . ولم تنعم بمصائبنا اولا بأول.

ـ هدوءك يثير أعصابى، يامجاهد. الحاكمون يحولون جزءا كبيرا من الجماهير الى موتى.

ـ وهل لايحولون الجزء الاخر كذلك الى موتى؟

ـ الجماهير الاخرى، يعرضونها للموت البطئ. أما هؤلاء، فيلقون بهم فى القبور مباشرة.

ـ الفارق ليس كبيرا. جزء كبير من الفلاحين يعيش فى «الزرايب» مع المواشى، أو بجوارها. وجزء كبير من العاملين، يعيش فى كهوف وأكواخ. ما الفارق بين «الزرايب» والاكواخ، وبين القبور؟

ـ لقد تخلصت من فيلسوف المقابر، لاجد فيلسوفا آخر.

ـ تعال معى. سأنقذك من الناعقين بالموت. وسأريك صناع الحياة.

ـ الى أين نذهب؟

ـ سنخرج من القاهرة.

ـ هل نستقل «تاكسى»؟

ـ يبدو أن فلوس الامم المتحدة ثقيلة فى جيبك. وفرها الان. سنحتاج اليها فى نضالنا.

قاده مجاهد الى أحد أوتوبيسات الاقاليم : نفس الصورة التى رآها فى أوتوبيسات القاهرة. البشر يقذف بنفسه على عجلات الاوتوبيس، وسقفه ونوافذه ـ اضافة بسيطة : القفف والاسبته ، التى يصحبها المسافرون بين القاهرة والريف. كان لخبرات مجاهد دور كبير فى أن يحشر نفسه بين المحشورين. قال مجاهد لخالد ، الذى كانت روحه في حلقومه:

ـ هذا الاتوبيس يختلف عن السيارات الخاصة، التى أصبحت من ركابها بفضل الأمم المتحدة.

ـ أف لك .. لم تعد بقادر على اختيار اللحظة الملائمة للهزل.

ـ أنا لا أهزل. ربما يكون من مهمتنا أن نعيدك الى سيرتك الاولى ، لتمارس التقشف من جديد.

كان خالد قد وصل الى نقطة انشطرت فيها نفسه: عمائر شاهقة تقام للمحظوظين . الى جوارها مدينة للموتى ، يدفن فيها الاحياء. قبر القلعة الكبير يقهر فيه الثوار. بشر يحشرون فى الاوتوبيس، وكأنه مركبة تنقلهم الى يوم الحشر. النصر الضائع. القفف النازلة على رأسه. العرق والروائح الكريهة. فوق كل ذلك

مجاهد يتهكم. لا مراء في أن مرتب الامم المتحدة، ومزاياها نقلته نقلة كبرى: الراحة، والعيش الرخي، والسيارات والسكن الفخيم. ما الذي يجبره على تحمل كل هذا العناء؟ ماذا يبقيه في بلد يبتذل فيه الانسان؟ أوشك أن ينفجر في وجه مجاهد. لكنه منع نفسه. قرأ مجاهد مايدور في رأسه. اعتقد أنه كان قاسيا معه. أراد أن يتخفف:

ـ ما بالك لم تعد تتحمل المزاح الهادف ؟ كنت من فرسانه من قبل.

ـ أراحت هذه العبارة خالد بعض الشئ ، ومضى مجاهد:

ان الثورة تتطلب من المناضل أن يغوص في عناءات الناس. لا ليجرب ولكن ليحس . وليستمد منها وقودا للنضال. التاريخ لايذكر لنا مثلا ناجحا لثورة، قلبت الظلم عدلا. ومكنت الجماهير من السيطرة الفعلية على أرضهاومصانعها ومتاجرها، وكان قادتها مترفين يسكنون القصور.

داعبت خالد ابتسامه .. وتابع مجاهد قوله:

ـ لاتبتئس بما تعانيه الان . دع هذه الاجساد البشرية

تعصرك، وتطهرك.

اعـرضت ابتـسـامـة خـالد! فـا ء الى نفـسـه. لم يعد يعـبأ بالقـفف تسـاقط على رأسـه. شق طريقـه الى خـارج الاوتوبيس، مع مـجـاهد عـرجـا بعـيـدا عن الطريق الزراعى. اجـتـازا حـقـلا من الاذرة: نبـات أخضـر طويل ممتشق. تتـعـمم سـوقـه بتـيـجـان بيـضـا ء. تتـدلى من كيزانه شرابات من حرير، حمراء وصفراء، وبنفسجية. ابتـهج خالد بالنبـات الناضـر. على أنه تذكـر الخـبـز الذى يصنع من هذه الاذرة، والتـى كـانت غـذا ءه فى الماضى. أفـسـدت الذكـرى الصـورة الحلوة للنبات الرشيق.

هبطا مـن حـقل الاذرة الى أكـمـة رائعـة : نخـيـل ، وكـافـور، وكـازورين. تصـعـد على سـوقـهـا نبـاتات مـتـسلقـة «طفـيليـة». الطفـيـليـون من البـشـر يتـسلقـون اعـواد الناس. ويمتـصـون منهـا رحـيـقـهـا وكـدحـهـا. ولا يعطون المجتـمع شيـئـا. لكن لهـذا النبـات الطفيلى وظيفة. يسهم فى تهيئة مخبأ من مخابئ الثوار.

فى ركـن آمن من الأكـمـة، كـان هناك نفـر من الناس. قـدمـهـم مـجاهد لـه: أبو زيد فلاح - راشد ، عـامل - على ، مـهندس زراعى - فـارس ، مـجند - وكـان هناك انسـان يقف وسط الاعـشـاب. وظهـره للمجموعه. وعندما استدار، كان لخالد مفاجأة حلوة: فوزى تلميذه فى منظمـة الشبـاب. رفـيـقه فى معـتقل القلعة! تعـانقـا. ثم قدم له

مجاهد مفاجأة أخرى: محبوبة، فلاحة. فتاة قوية البناء. يتحدى نهداها الناظر اليها. عيناها حوراوان. يشعان ذكاء وانوثة. الشمس لسعت وجهها ويديها. قلبت لونها الخمرى الى لون داكن، اكسبها فتنة خاصة. أمر غير مألوف ان تنضم هذه الفتاة الى تلك المجموعة. مكانها فى المجتمع، الذى نعيش فيه، بين ربات الصون. اللاتى يرفلن فى الحرير. ولا يتركن أحضان الرجال. بغض الطرف عن أن الرجال ازواج أو غير أزواج. لكن الفتاة اختارت طريقا صعبا، ليس مألوفا لبنات جنسها.

شئ ما يجتذبه فى هذه الفتاة. آه «اميناتو» اليافعة الأفريقية. تعرف على زميل شعبى من السنغال يعمل معه - معارفه دائما شعبية. دعاه زميله لزيارته فى منزله. كان يقطن حى الاكواخ الافريقى.. الاكواخ تتابعه. حتى وهو يعمل فى الأمم المتحدة! فى هذه الهيئة، اناس يعملون فى جنيف، ولندن، وباريس وروما، ونيويورك. لكن قدره أن يعمل مع المتخلفين في أفريقيا. رضى بقدره. لعله سعد به.

ذهب لزيارة صديقه. سكنه أقرب الى العشة الافريقية منه الى المنزل. سور مصنوع من القش، منخفض. يتيح لك أن ترى من فى المنزل، وأن يروك من بعيد. ما أن أقترب من الباب حتى تقدمت منه فتاة عارية الصدر تماما. الفتاة يافعة. بشرتها سمراء داكنة

جلدها ناعم. يشعر المرء بنعومته دون أن يمسه! نهداها ينفران من صدرها، كثمرتين فجتين من جوز الهند. كانتا جوزتين سوداوتين. لكن تكوينهما يوحى بأن اللون الأسود هو أحلى الالوان جميعا!

وقفت الفتاة وقفة طبيعية تستقبله. قال لها ، وقد غرس عينيه فى صدرها:

- ننجاديف (وتعنى «ازيك» بلغة الولوف. لغة الأغلبية فى السنغال).

وردت الفتاة:

- مانيفير كريك «كويسة».

كان ينبعث من صدرها الأسود نورا، وحنانا وجنسا. رفع عينيه ، لتلتقى بعينين كعيون المها. عيون المصريين القدامى . تجمع بين البياض والسواد والكحل الطبيعى. هاتان العينان هما اللتان ذكرتاه بهما عينا محبوبة . الانثروبولوجين يقولون بأن قبائل الفولانى، التى غزت جانبا كبيرا من وسط افريقيا وغربها، جاءت من مصر. من بلاد النوبة: الملامح المصرية، اللون الداكن العيون النجل البقرية. القوام السمهرى. الشفاة المكتنزة، التى تغرى بالقبل.

الفتاة طبيعية هادئة، وهى تحادثه. هو الذى يلهث. كانت تنظر

الى عينيه بينما يركز عينيه على نهديها. فطنت الى نظراته . خشيت أن يلتهم ثمرتيها وضعت ذراعيها على صدرها. استرد أنفاسه. سأل الفتاه:

ـ ما اسمك؟

ـ أميناتو .. (أمينة)

ـ اسم جميل.

ابتسمت عن اسنان ناصعة كالدرر. طلب منها:

ـ هل مسيو مامادو (محمد) موجود ؟

ـ لا ، غير موجود. ذهب الى المدينة.

أراد أن يرى جوزتى الهند مرة أخرى. تشجع. نبذ الحياء الذى نشأ معه فى بلده. مد يديه. امسك بذراعيها. فتحهما الى الجانبين. برزت الجوهرتان السوداوان. لمسهما وهو يفك ذراعيها. سرت اللمسة كهرباء الى جسده. لعبت باعصابه. لم تخجل الفتاه. لم تدع الحياء والعذرية. كانت سخية. تركت عينيه تشبع من نهديها. ارادت للشعاعات الساخنة، التى تنسال من عينيه أن تغزو صدرها، وتدفئه، وتضمه. تباعدت شفتاها فى بسمة أنثوية جميلة. رشقته بنظرة غزالية. تشكره على أنه يعنى بجمالها!

نمت الصداقة بين خالد وأميناتو. كبرت مع عودها الباسق، يزداد

فـراعـه وتأودا. ومع صـدرها الأملس. يسـتـدير ويصلب مع الايام. قالت له يوما:

ـ انى أحبك.

كان خالد فارعا. سمرة النيل قربته من قلوب الافريقيات، كما قربته من قبل من قلوب الاوروبيات عندما كان يدرس الدكتوراه فى انجلترا. أحبته، رغم كونه فى الخامسة والاربعين ، وهى فى الثامنة عشرة. الافريقيات لا يعبأن بالسن. قال لها انه متزوج، ويحب زوجته. وأن له أولادا. فهو لا يستطيع أن يتزوجها. ولكنها تؤكد له أنها تحبه ولاتريد أن تتزوجه!

فى ليلة دعاها الى العشاء فى كازينو «اللاجون» : مطعم فى مركب ، تسبح واقفة على مياه الاطلنطى. وعلى أضواء الشموع. وهما يأكلان «اللانجوست» قالت له:

ـ أنا مسلمة.

ـ أعرف ذلك.

ـ وأنا أحبك لانك مسلم. ولذلك أريدك أنت الذى تضاجعنى. ولا أريد أى شخص آخر من الاديان الاخرى.!

دارت به الأرض. أو دارت به المركب. كانت الفتاة قطعة من الفن

والجنس والشباب مثيرة. اصطرع مع نفسه كثيرا حتى لا يستجيب لهذه القوى الباطشة. يعترف بأنه رغب فيها. اوشك أن يستسلم. لولا قوى مضادة منعته من أن يقطف الثمرة. قال لها:

ـ زوجتى تكفينى تماما. لن أغرق معك فى الجنس.

ـ وماذا افعل أنا؟

ـ أنتظرى حتى تتزوجى.

ـ هذا ظلم. سأكون الوحيدة التى تنتظر!

هذه محبوبة مازالت عيناها تمسكان بعينيه. لم تكن عيون الغزلان هى التى ذكرته باميناتو فحسبَ. كانت الفتاة الافريقية كذلك، عضوا في جماعة سرية ثورية! تناهض حكم الطبقة البرجوازية ممثلة فى سنجور وحزبه. وتقاوم حليفها الاستعمار الفرنسى، الذى مازال رابضا على صدر «السنغال». يمتص ثدييها. وينهب « فولها السودانى » . لم يستيقظ من الغفوة إلا على صوت مجاهد:

ـ ها أنتم ترون أن اجتماعنا اليوم، يسهم فيه الزميل خالد. وهو معلمى، واستاذ الزميل فوزى. كلكم سمعتم عنه: كفاحه قبل

٢٣ يوليو ونضاله مع الثورة.

وقعت هناك مفاجأتان. ماكان من الممكن توقعهما .. يبدو أن هذا يوم المفاجآت.. قال أبو زيد:

ـ أنا من بلد مجاور لبلدكم الرباعى. أنا من كفور نجم.

أنت من بلد الابطال. بلد عنانى، والفلاحين، الذين هاجموا الاقطاع فى تفتيش الامير محمد على، قبل الثورة.

ـ هناك رابطة أخرى تربطنى بك. اتعرف محمد محمود الفلاح. الذى كان معك فى وسية الخواجة اليونانى؟ أنا ابنه!.

قفز خالد من مكانه قائلا:

ـ أمر غريب لكنهم سموك باسمى. كنت صديقا لوالدك. عندما كنت أعمل فى عزبة الخواجة تاكى وكان لدى والديك خمس بنات صغيرات.

ـ تمام . لقد جاءوا بى الى الدنيا، يوم أن غادرت أنت الوسية. لكنى أعرفك تماما . وأعرف قصتك فى الوسية. حكى لى أبى حكاية «شوال» الاذرة. الذى سرقته له فى جنح الليل من مخزن الخواجة، لتطعم به اخواتى وأمى. لا أكتمك القول بأنى أحببتك

على البعد لهذا العمل . مازال اسمى فى الدفاتر الرسمية، هو اسمك. اما أبو زيد، فهو اسم الشهرة!

- وأين والدك الآن؟

- ارتحل عنا.

كان آخر لقاء بينى وبينه فى مصر الجديدة، فى الستينيات، جاء يرد الى الجميل ، كما قال. اراد معاونتى فى معركة الانتخابات لمجلس الأمة، رغم تقدم سنه. وحكى لى أنه انتقل من وسية الخواجة الى تفتيش الامير محمد على. وحظى بفدانين من الاصلاح الزراعى.

غاص خالد بعينيه فى ملامح أبوزيد. وتذكر أباه. نفس الملامح المتزمته. والشارب الكث. الفارق أن شارب أبوزيد قوى الشعر. يبرمه تماما كشارب أبوزيد الهلالى سلامة . «يقف عليه الصقر» كما يقولون . كان أبوزيد مفتول العضلات، بارز الصدر والاكتاف، فارعا ، عملاقا . على نقيض والده الذى كانت قامته لاترتفع أكثر من متر ونصف. وجلده يغطى عظامه مباشرة، دون بطانة من اللحم والشحم! لفت هذا الفارق نظر خالد. ولم يفته أن

ـ لكنك عملاق. وكان المرحوم والدك ضئيل الجسم.

ـ لعلك نسيت والدتى «السيدة» . كانت فارعة تعلو والدى بنصف متر!

بقى فى جراب مجاهد مفاجأة أخرى: فارس الذى قال له:

ـ يبدو أن الوسية سوف تظل ممسكة بخناقك.

ورد عليه خالد:

ـ وأنت أيضا خريج الوسية اليونانية؟

ـ أنا لم أتخرج منها بعد. لم تعد وسية يونانية. ورثها الرأسماليون المصريون. ومازالت الوسية مستمرة. ومازلنا رقيقها. حتى بعد أن باعها الخواجة الى ثلاثة من الاغنياء المصريين. وقد ولدت أيضا يوم رحيلك من العزبة . يوم أن طاردك الخواجة بالمسدس، بين الحقول ، لانك حاولت حماية الفلاحين من سرقته لمحصولاتهم.

ـ هل علمت ذلك يوم مولدك!؟

ـ والدى، هو محمد خطاب الخفير ، الذي كنت تنام معه فى

ـ والدى، هو محـمـد خطاب الخـفـيـر ، الذي كنت تنام مـعـه فى الجرن. والذى كان يأخذ نصيبه فى الخيرات من الجرن ليلا. للأسف، غـادر والدى وسيـة الدنيا. مـات والأمل الوحيد البـاقى له أن يكون له نصيب فى خيرات الاخرة!

عـاش في أواخـر أوقـاته أيـامـا ضنكة. لم يسـتـخـدمـه الوارثون المصريون للوسية حارسا للخيرات.

ـ وماذا تفعل الأن يافارس:

ـ أنا الآن مجند.

ـ عـال . وجدت انسـانا أسـأله السؤال الذى لم أجد عليه اجـابة حتى الآن:

ـ كيف يبتر النصر الذي حققه زملاؤك الجنود الابطال؟

ـ كنت معهم. وشهدت عظمة النصر، ومهانة النهاية.

ـ أرجـو منك تفـسـيـرا عـسكريا. اذا كـان من الممكن فـصل الاسباب العسكرية عن السياسة.

واجاب فارس:

ـ عبرنا القناة كأسود زائرة. وجرى اليهود أمامنا قطعانا. غايتنا، كما تقول الخطة العسكرية التى شرحت لنا ألا نقف، الا عند حدود سينا الحقيقية مع فلسطين. ثم نعد أنفسنا لتحرير الارض العربية المحتلة. كانت الوقفة الطبيعية الاولى، أن نظل نطارد الصهاينة حتى مرتفعات الممرات. فهى الموقع الاستراتيجى الذى نستطيع منه أن نمنع العدو من القيام بهجوم مضاد. لكن ما أصبحت الممرات على مرمى المدافع والبصر، حتى صدر أمر بعدم التقدم اليها.

ـ من الذى أصدر الأمر؟

ـ الذى سمعته ان المعركة كانت مدارة سياسيا.

ـ كيف يقبل قادة الجيش الكبار، أن تدار المعركة سياسيا، بقيادة معلوماتها العسكرية بالية؟

ـ كبار القادة لم يعودوا كبارا ولا قادة. هناك كبير واحد، وقائد واحد.

ـ أليس يفرحه أن ينتصر جيش مصر، ويحررها وفلسطين، وأن يطلق عليه بحق« بطل النصر»؟

ـ لاندرى مـاذا يضـمـره هذا الرجل. أمـا بطل النصـر فـهـذا لقب خلعته عليه أجهزة الاعلام ، حتى واليهود فى غرب القناة.

ـ كيف ترك اليهود يحدثون الثغرة؟

ـ فى رأيى أن الوقـوف قـبل المـرات. والمفـاوضـة مع اليـهـود والامريكيين ، حتى بعد نصر العبور. والتردد فى خوض المعركة بكل طاقـاتنا. كل هذا أعطى اليـهـود الوقت للاسـتـعـداد . وشق صفوف جيشنا. والعبور المضاد للقناة.

ـ قال قائد الجيش الثانى، انه كان يمكن دحر القوات اليهودية، التى قامت بالاختراق.

ـ يبدو ان القيـادة السيـاسيـة ، لم ترغب فى ذلك. بل أصدرت قـرارا بوقف اطلاق النار. اسـتـمـر اليـهـود فى الهـجـوم لتـثـبـيت مـواقـعـهم. حـاصـروا الجـيـش الثـالث . وكـادوا ينزلون به كـارثة. ويصيبون مصر بمهانة. تتضاءل امامها مهانة يونيو ١٩٦٧.

- - - -

ـ٥ـ

بدأ مجاهد الاجتماع بالقول: بأن شعب مصر لم يحكم بلده فى

أية فترة من فترات تاريخها الطويل.لقد توالى على حكمه، بعد الفراعنة، الاغريق، والرومان والعرب والاتراك والمماليك والانجليز والفرنسيون والملوك« والعسكر» «والحرامية»..الديمقراطية هى حكم الاكثرية. والكثرة الكثيرة من هذا الشعب هم العمال والفلاحون، وغيرهم من الكادحين . الحكومات السابقة غير مشروعة. لم تكن تمثل الجماهير حقيقة: الحكم الديقراطى، هو المهمة الأولى لهذه الجماعة.

تدخلت محبوبة :

ـ تريد القول بأننا «سنعدل» نظام الحكم، لا سنقلب نظام الحكم!

ابتسم الجميع. كانت هذه طريقة الفتاه فى الحوار. تمزج المزاح الهادف، بالجد. واستأنف مجاهد قوله:

ـ الشعب ناضل ضد الخواجات المستعمرين، وطردهم. وكافح ضد الملك والبشاوات الذين اغتصبوا أرض مصر، ومصانعها، ومتاجرها. واسهم عبد الناصر وعساكر الجيش فى تنفيذ جزء من

مطالب الجماهير: وزع بعض الأراضى، على بعض الفلاحين. وأمم جزءاً هاماً من الصناعة والتجارة. لكنه اتاح للبرجوازية أن تخرب المسار الاشتراكى. وتستولى على القطاع العام. وتنمى القطاع الخاص وترث الملك والاقطاع. وتدمر المكاسب التى بذل الشعب عرقه ودمه فى سبيلها. ثم سلم التركه الى طغمة. فتحوا أبواب مصروجاء حلفاؤهم الاجانب، يسهمون معهم فى عملية النهب لثروات مصر. العمال والفلاحون هم القوى المنتجة. عملهم مصدر ثروة هذه البلد. إذن الملكية الجماعية، والسيطرة عى وسائل الانتاج من أرض ورأسمال، يكون من حق هذه الاكثريه، وهذا هو دور الشعب والجماعات الديمقراطية فيه.

خالد يستمع ثملاً الى مجاهد. كلماته تشنف أذنيه،و وتنعش وجدانه . كانا معاً فى التنظيم الطليعى الناصرى. رأيا لون الاشتراكية التى يقول بها التنظيم شهداً مخالب البرجوازيه والرأسمالية «الوطنية»، تنسب أظفارها فى رقاب الجماهير .

محبوبة تتدخل موجهه الكلام لخالد :

ـ اقرأ فى عينيك تساؤلاً: ماذا يمكن أن تقوم به هذه الجماعة

الصـغـيـرة فى تلك المهـام الصـعـبـة؟ لا تندهش. الجـمـاعـة لـيـست صغيرة.

ورد عليها خالد بأسلوب متخفف:

ـ يبدو يا انسه محبوبة، أنك قراءه للعيون !

وتدخل على فى جدية واضحة :

ـ اتفقنا فى هذه المجموعة، على أن يكون حديثنا جاداً. نقصره على شـئـون الثـورة . كـمـا اتفـقـنـا أن يخـاطب بعـضـنـا بعـضـاً بالأسـم مباشرة .

واسرع خالد. وقد وصلته الرسالة :

ـ أنا متـأسف. كنت أ حسب أننى أخفف من الجدية الحادة التى يتخذها الحديث .

ورد مجاهد :

ـ لابأس عليك.

واشترك أبو زيد :

ـ لاتظن أننا لا نمزح ابان الحـوار. ولكن المزاح يكون جـزءاً من الهدف الجاد.

وسأل خالد محبوبة :

ـ ماذا تعنين بأن الجماعة ليست صغيرة ؟

واسرع مجاهد يجيب :

ـ انت استاذنا .. أغلب المجموعة تتلمذوا عليك، فى الجامعة، والوسية ومنظمة الشباب، وتقدر الآن ما أقول. انت انقطعت عن العمل الثورى نحو خمس سنوات. وتتفق معى أننا يجب ألا نبوح لك بشئ. ويتوقف هذا على استئنافك للعمل الثورى. وان تصبح عضواً فى هذه الحركة. وقد جئت بك الى هنا. لعل هذه الشبيبة الواعدة تقنعك بالانضمام الينا .

وعقب خالد:

ـ أنا أقدر موقفكم تماماً. على أننى لم أنقطع عن العمل الثورى : نحن ـ زملائى وانا ـ ندرس الاشتراكيه العلمية فى معهد التخطيط والتنمية الافريقى وفى كل الندوات التى نعقدها فى ارجاء القاره.

وتدخل على :

ـ تدريس الاشتراكية، ليس عملاً ثورياً بالضرورة .

وتصدى فوزى لعلى :

ـ لا تهون من شأن تدريس الاشتراكية. أنا ومجاهد ثمره ذلك التدريس. بل أن أقوى مجموعة ثورية. قامت فى مصر، وهى منظمة الشباب، خرجت شباباً، وعية الثورى يخترق الحديد والنار. هذا الشباب، كان الدكتور خالد محاضره الاول .

وعقب خالد :

ـ انت يا فوزى متحمس لاستاذك. أنا لم أكن المحاضر الاول. كان هناك آخرون لعلك تذكر أننى طلبت منك ومن زملائك، أن تسمونى باسمى دون القاب.

ورد فوزى :

ـ كيف ؟ الاسم لا ينطلق من فمى عارياً .

ـ أفضل أن أكون عارياً !

ضحك الجميع بما فيهم على،الذى أخذ يفهم خالد رويدارويدا

.وبدأ يداعبه :

ـ ما هو لون الاشتراكية التى تدرسونها فى داكار؟

ـ ليس للاشتراكية ألوان الا فى مصر ! نحن ندرس الاشتراكية العلمية .

ودهش راشد العامل :

ـ هل يعنى ذلك أنكم تدرسون الماركسية ؟

ـ نعم . ونبحث فى التطبيقات التى تتلاءم والبيئه الانتاجية والثقافية فى افريقيا. والمرحلة التاريخية التى تجتازها.

ـ أرجو ألا يكون تدريسكم الاشتراكية، لتلك الفئه من الطبقة المتوسطة التى تعمل فى وزارات التخطيط والاقتصاد والصناعة والزراعة وغيرها. وبذلك تكونوا« بتنفخوا فى قربة مقطوعة» .

ـ ملاحظة جيدة يا أبو علوه . أرجو أن تسمح لى بأن اتخفف معك .

ـ خذ راحتك .

ـ المعهد يخاطب الحكومات. وهى التى ترشح لنا الدارسين.

بعضهم يتلقى الدروس، ويفيد، ويتشكل. وبعضهم ثورى، يستوعب ويتطور. ولا اكتمك أن البعض الاخر برجوازيون كما قلت. على أن دروسنا تسهم فى تحييدهم. بحيث لا يصبحون خصوماً للثورة. وهذا كسب.

ومع ذلك فالدارسون فى المعهد بعضهم من ثوار أنجولا وموزمبيق والكونغو واثيوبيا وزمبابوى وهذه بلاد تطبق الاشتراكية. وبعضهم من غينيا وغانا ومالى وتنزانيا، وهذه الاشتراكيات الاخيرة تشابه اشتراكية عبد الناصر والجزائر. لهذا أرجو ألا نستهين بالدراسة الاشتراكية فالثورى غير الدارس قد يزيف وعيه وتتخبط به الطرق.

ـ قال مجاهد:

– لا تخف. ملاحظة على، كان مقصودا بها أن تلقى الينا بما عندك. وأنت تعلم أنه يسعدنا أن تنضم الينا.

وهنا قاطعه فارس، الذى لم يسهم فى الحديث حتى الان:

– انه لابد أن ينضم الينا. نحن تلامذته، وأبناؤه. نكون أغلبية فى هذه الجماعة. أبو زيد، وفوزى وأنا حتى لو بقى مجاهد

محايدا، لانه أمين الجماعة.

ونحن نقرر انضمامك.

- أشكركم على هذه الثقة. ولكن لابد لمجاهد أن يستشير زملاءه. أنا أقدر هذا. وأنا كذلك أريد أن أستشير نفسى. فقد فاجآنى مجاهد بهذا اللقاء.

وتحمست محبوبة.

- لن نقبل أن يستشير مجاهد أحدا غيرنا. ولن نسمح لك بأن تستشير نفسك. وأنا أنضم لزملائى فى قرار انضمامك الى المجموعة.

ولم يضع على وقتا، فى أن يتبع محبوبة وانضم اليهم راشد. ثم الاجماع الا واحدا. هو مجاهد. مالبث أن ابتسم قائلا: اننا نملك حق تشكيل هذه الجماعة. ولامعقب على قرارنا. خالد كسب ثورى.

وتأثر خالد لهذا الاجماع، وقال لهم:

- لقد ضيعت عليكم مناقشة جدول الاعمال لهذا اليوم.

وردت محبوبة.:

- ضيعنا جدول الاعمال، وكسبناك.

سكنت الفتاة لحظة. ترددت. بدا أنها تريد أن تقول شيئا. تغلبت على ترددها.

وجهت الحديث لخالد:

- اسمع يابطل.. اصبحت منا. لابد أن نكافئك على انضمامك الينا. الجماعة ليست صغيرة..

ثم نظرت محبوبة الى زملائها. ودت أن تتبين أن كان هناك اعتراض على ما تعتزم التصريح به ...... وجدت النظرات راضية. واصلت:

- خدنى أنا مثلا: مجموعاتى من البنات الفلاحات ينتشرن فى محافظات الوجه البحرى كله«شفت»؟.. ومجموعات ابو زيد..

اعترض ابو زيد مبتسما:

-لاياستى. كيف تعرفين مجموعاتى. الزمى حدودك!

- طيب يا ابو زيد . سأحرمك من الاقتراب من دنيانا . نحن النساء!

وعلق خالد، ليقول لابوزيد:

- أنت الخاسر حقا.

وتدخل راشد ليقول:

- قد يكون من المستحسن أن يعطى مجاهد نفسه - وهو الذى يمثلنا فى المجموعات القيادية الأخرى- صورة للتنظيم.

عرض مجاهد فى عجاله للتنظيم.

- كل واحد منا له مجموعاته النوعية. وهذه الجماعة القيادية، ينتمى اعضاؤها لقطاعات متعددة. وكل عضو متصل بالمجموعات الثورية فى قطاعه. فأبوزيد مثلا، يقود مجموعات الفلاحين فى الدلتا. وراشد متصل بالمجموعات العمالية. فى هذه المرحلة آثرنا أن يكون التنظيم من مجموعات مهنية واحدة. وذلك لاعتبارات السهولة والفاعلية والأمن. ثم ينتقل التنظيم الى المستوى الجغرافى والسكانى فيما بعد. أما الصعيد، فله جماعاته القيادية ومجموعاته الفرعية.

ما أن سكت مجاهد، حتى تدخلت محبوبة:

- عليك الان يابطل، أن تكون مجموعتك من اساتذة الجامعات. نود أن نرى دوركم فى هذه المرحلة. نريد للجماهير، والمجموعات الثورية أن تتسلح بوعى قوى، يلزمنا فى النضال.

لفتت الفتاة نظر خالد بتدخلاتها الذكية فى المناقشات. كانت اثارت اهتمامه بجمالها. الذى توقف حينما علم صلتها بعلى. عرف من مجاهد قصتهما:

على ابن أحد الفاحين العاملين فى تفتيش الامير محمد على بكفور نجم.

شهد الخوله والنظار يجلدون ظهور أبيه وأمه واخواته. حينما كانوا يجنون القطن. ويقدمونه ترفا وثراء للامير. كان على صغيرا فى الخامسة. لم تمتد العصى والكرابيج الى ظهره بعد . كان لم يبلغ سن العمل. «فالتفتيش» لا يشغل الا الاطفال البالغين سبع سنوات. لم يبارح منظر الكرابيج نفسيته طوال حياته.

وبهذا كانت الثورة على الظلم، والاحساس بالاستغلال، ينموان معه، مع نمو جسده وعقله. رأى والده أن يعلمه. لعل العلم يكون منقذا له من الفقر.

قترت الاسرة على نفسها، لتنفق على ولدها. ولن يضير الشاة سلخها بعد ذبحها، اذا كان الفرد منهم يأكل رغيفا فى الوجبه، لماذا لا يكتفى بنصف رغيف؟

الامر يستوى. ليس فى الخبز المصنوع من الاذرة مادة غذائية،. الرغيف يتعادل مع نصف الرغيف.

نال دبلوم الزراعة المتوسطة. لم يستطع والده أن ينفق عليه فى التعليم الثانوى، والجامعة. كان سادة الاقطاع رحماء. هم لا يملكون الارض فحسب. وإنما يملكون ما عليها من آدوات وحيوان وناس. ملكيتهم لعمل الفلاحين وكدحهم واضحة ولكنهم يودون كذلك أن يحتكروا عمل الفنيين. على أصبح فنيا زراعيا. وهو ابن فلاحهم. يجب أن يظل خاضعا لهم رقيقا للارض. عينوه معاونا زراعيا فى التفتيش فرحت أسرته. ابنهم صار أفنديا.

ابتأس على. كان وعيه قد نما مع سنه ودراسته وقراءاته، والبأساء التى تطحن عائلته ومواطنيه. أحس على الفور، أنهم آرادوا ربطه بالاقطاعية واستغلاله كما يستغلون أهله. يستذلونه بالاجر الذى يعطونه له. صار أداتهم فى استغلال الفلاحين والهاب

ظهورهم بالسياط.

على أنه ابتهج أيضا بهذا الموقع. سيمضى فى لقاء الفلاحين والعمال. كان على جسورا شجاعا ثوريا. يهاجم الظالمين والمفسدين فى القرية علانية. فى وجدانه طاقة ثورية لاتنصب. عندما تسلم عمله فى التفتيش، عصفت به تناقضات عاتية.: ثورته عارمه على ملاك التفاتيش والوسايا. الان أصبح مستخدما لديهم. صار جزا من عملية القهر والاستغلال دماء، أهله تمتص تارة، وتسيل على الكرابيج تارة أخرى.

الحقول تغص باعداد كبيرة من الاولاد والبنات الصغار. منهكون جميعا فى تنظيف حقول الارز الشاسعة، من الحشائش الضارة. كانوا يخوضون فى حقول الارز المغمورة بالمياه. يتناثر الطين على وجوههم وأبدانهم. ويلطخ جلابيبهم، لم يرحم« الخولة» الاطفال من عصيهم وكرابيجهم. يستحثونهم على مزيد من العمل.

أجر الواحد منهم قرش واحد فى يوم بطول أربعة عشر ساعة، من الشروق الى الغروب.

كان يمشى على جسور القنوات. يشرف مع النظار على الانفار من بعيد. رأى منظرا دفعه لأن يقذف بنفسه فى حقل الارز. رأى أحد الخولة يضرب فتاة صغيرة فى السابعة. لم تتحمل الطفلة الضرب. انكفأت على وجهها فى الوحل. لم يرحمها الخولى. أسرع على لينفذ الفتاة. انحنى عليها وانتشلها. صرخ على فى وجهه:

- انت مافيش فى قلبك رحمة؟

وجم الخولى. أول مره فى تاريخ التفتيش يأتى أفندى معاون، ليدافع عن شغيله. وتهته الخولى يقول:

- أليست هذه هى أوامركم؟

طعنة أصابت عليا فى الصميم. الخولى يقول ما يردده ضميره فى كل وقت: ألست أنا لبنة من لبنات هذا التفتيش. حمل الفتاة خارج الحقل. وضعها على حافة قناة. وما أن أزاح الطين عن وجهها، حتى رأى ملامح آية فى الجمال. كيف يسمح المبدع الذى سواها، أن يمتهن ابداعه بهذه الطريقة.

أخذ على يغسل وجه الفتاة وأطرافها، وجلابيتها. سألها عن اسمها قالت:

- محبوبة.

دأبت محبوبة على أن تحضر الى حقول التفتيش تعمل فيها. وتنعم بحماية علي وبحنانه، الذى أخذ يترعرع فى قلبها مع الايام.

- - - -

- ٦ -

الأكمة الخضراء تقدم لنا هذه المرة مشهدا منعشا. كأن الطبيعة قد أخذت على عاتقها أن تحنو على مطلبين عزيزين للمجموعة الثورية: الحب والنضال النخيل تطعن بسعفها قبة السماء. والكافور يتيه بأعضائه ذات اليمين وذات الشمال. يسهم مع العشب المتسلق على نسج غلالة سندسية، تلف العشاق والمناضلين.

المشهد اليوم، يختلف عن مشهد الأمس: الطير أكثر انطلاقا. الأغصان أكثر حفيفا. الزهر أكثر رفيفا. الأكمة تستقبل اليوم عروسين، تهواهما هوى خاصا. وتهيىء لهما جوا معطرا نديا. كان ضيفاها فى ذلك اليوم هما علي ومحبوبه.

والد مكاسب فلاح متنور، حلو الحديث. دفاع على عن ابنته ضد« كلاب » الاقطاع، قربه كثيرا الى قلبه. أنس فيه على مودة، ورجولة، وخفة دم. جعله يميل اليه، ويتخذة صديقا. اصبح منزل عم عطية، مكانه المفضل. قص الرجل لاهل بيته قصة أسرة على مع الاقطاع. وقصة كفاح الشاب لتعليم نفسه. اسهمت قصته، مع انقاذه لها من طين حقل الارز، فى أن يحنو قلبها الصغير على صورته. ويطويها بين غلائله.

ما أن يطرق على باب « عم عطية » حتى تلهث اليه محبوبة. تود ان تكون الاولى فى استقباله. كانت تسرع اليه. وتعانقه، وتقبله (فى خده طبعا) احتلت الفتاة مكانة بهيجة فى قلبه، قبل أن تجتذبه رجوليا. أدت له خدمة لم يكن يتصور أن فتاة قروية ساذجة، سوف ترأب صدعا قديما غائرا فى فؤاده. كان قد أحب، ابنة عمه« البرجوازى » الذى رفضه زوجا لها. كان للجرح القديم بقايا. غير أن الطبيبة الصغيرة، أخذت ثمانى سنوات لعلاجها. وفى ربيعها الثامن عشر، مست القلب بأريجها الانثوى، فنسى أن فى القلب جراحا.

اختال عروسا الغابة على ضفاف الغدير. يزفهما الطير

والشجر. تنسج لهما الشمس من شعاعاتها وشاحا ذهبيا. يلفهما النسيم بغلائله الحانية. رمقته بنظرات ساهمة. ضاقت بسكوته ودت وقد أصبحت انثى ناضجة، أن يبدأها هو بالكلام، فى أول خلوة لهما. لكنه لاينبس بكلمة. لم تستطع على صمته صبرا:

- إيه الحكاية يا« باشمهندس»؟

ايقظه صوتها من سرحته.. وأجاب

- أية حكاية؟

- أنت ساكت.

- لاننى سعيد.

- أتخرس السعادة الالسنة؟

- أحيانا..

- أنت لست فى أحسن حالاتك..

- لست أدرى، ماذا أقول؟

تركت محبوبة لغة الحوار لتلجآ الى وسائل أخرى عضلية، هزته هزة قــوية تريد أن توقظه من نوبة الخــمــول، التى هبطت عليــه.

سحبته من يده. هرولت به عدة خطوات. ثم جذبته ليجلس بجانبها، تحت جذع شجرة. مازال صامتا. ثم.. ثم التصقت به.. اسرع الدفء الى عروقه. انسالت فى دمه رغبة عارمة. لكنه مالبث مترددا. لم يأخذ المبادرة بعد، وهو الرجل. الرجل المحروم، الذى فرض عليه لون من الحياة لم يتمكن معه من التعبير عن غرائزة. تعجبت مكاسب من أمره. أليس هو الشاب الذى يملأ الافواه والاسماع؟ صاحب القوام الرشيق، الذى تتمناه العذارى، وغير العذارى، لقد ترعرعت على حبه، سنة وراء سنة. ما باله صامتا، وهو الذى يملأ المجالس أنسا وحركة وحياة؟

دعنى أخطو خطوة أخرى، لاشجع هذا الرجل، الذى أنساه نضاله الاجتماعى ضد الجهل والفقر، أن له جسدا وقلبا. ألقت بجسدها اللدن على جسده استراح نهداها السخيان على صدره. تناثر شعرها المسترسل، من تحت طرحتها، على وجهه. لم يعد على يملك من نفسه شيئا. فترة الخمول التى غشيته ظاهرية. داخله يغلى. المعركة المستعرة فى كيانه كانت مزيجا: قيم المجتمع من حوله. قيمه هو.. تاريخه ونضاله. حرمانه وكبته. مجتمع صب بلاءه عليه. كان البلاء جهلا أم جوعا أم قهرا واستغلالا، غشيه

واهله، وقريته، وكل القرى؟

هب من غفوته، ليأخذها بين ذراعيه وليضغط بصدره نهديها. وليهوى على شفتيها المكتنزتين. نقلتهما القبلة الى دنيا أخرى. خمدت أنفاس الاشجار والاطيار. شاءت أن تشاركهما غيابهما عن الوجود. طالت القبلة طول الهوى العذرى والجوى المكبوت، وعندما آفاق على من السكرة أحس بشفتيها ترويان عطشه الطويل. وتخففان من السنين الجديبه التى عاشها.

كانت محبوبة ثملة لكنها تشعر بالسعادة خفقة خفقه. ترتشف النشوة قطرة قطرة. تصاعد هيامها. اشتد التصاقها به. رعشات جسدها. واضطراب نهديها، تصيح به أن افعل بريك ما تريد!

ولم يفعل على، رغم الرغبة المحتدمه فى عروقه. ورغم الاغراء القاتل الذى ينساب من جسدها. اكتفى بما ناله من متعة، مازالت فى نظره حلالا. أفاقت عروس الدوحة من الغفوة الحلوة. وجدت نفسها مازالت بكرا. القت عليه نظرة ليس فيها أسى أو بهجة. لكن فيها رضا واعجاب بفارسها. الذى زادها هياما به محافظته عليها. ونهضا ينفضان عنهما ورق الجنة!

لم يشأ على أن يحقق للفتاه رغبتها، حين استسلمت له.. لالعفة أو تقوى أو لانه لا يرغب فيها. لديه سبب قوى آخر: الفتاة زميلته فى المجموعة الثائرة. مؤمنة بالمبادىء التى يؤمن بها. عنصر حركى نشيط فى المجموعة. يكاد دورها يفوق دوره فهى عاملة فى المزرعة. فى ملامحها الشابة، قوة الفلاح، وأمله، واصراره على تحرير نفسه وأرضه من المغتصبين. حلاوة تقاطيعها تريح الناظر اليها. وتمده بالثقة.. وتلهمه الكفاح. تنساب من عينيها شعاعات، تجعل النضال حلوا. وتوحى بأن النصر قريب. هو كذلك يزمع زواجها.

كيف يمكن لعلى ألا يحنو على هذه اللؤلؤة. وألا يحافظ عليها. أنه قهر الجهل ومع الجهل قهر الجوع. لابد اذن من أن يقهر الغريزة. التى توشك أن تطيح ببناء جميل، عزيز عليه. بناء طالما تمناه: المجموعة الثورية، التى تجمعت بالامس فى الاكمة نفسها. وقهر الغريزة. انتصر على قوى فى عروقه. غاشمة عمياء. قوى عاتية، أعتى من الجهل والفقر. حبه لمحبوبة يتخطى مفاتن جسدها لينصب عليها كفلاحة واعية، تؤمن بتحرير أهلها. وتتطلع الى مجتمع ينعدم فيه الاستغلال والقهر.

آثر على الصـمت. لم يبح لهـا بما يكابده. لم تعـد تطيق أن يقتصر حبها له على نظرات لاهثة. تتكسر على عينيه الهادئتين، وبدت محبوبة تبوح: احببتك وأنا فى العاشرة من عمرى! بعد أن أنقذتنى من عصا الخولى فى تفتيش الامير.

كنت تأتى الى منزلنا لتـجلس مع والدى. وأنا أرقـبك من بعيد.. كنت تطلق قهقهاتك، التى ترن فى قلبى. أطير فرحا، اذا ما التقت عينانا. وأسعد اذ تقول « ازيك يا محبوبة » ! وعندما حصلت على الشـهادة، رقصت وزغـردت. وملأت البيت فـرحا وضجيجا. وعندما حضرت الى القرية، أخذتك بالاحضان. رغم أن « خراط الصبايا » قد خرط عودى.

قربنى اليك، وحببنى فيك، إن «نفسك حلوه» لم تنس أهلك والناس فى قريتك تشاركهم الافراح والاحزان. وقد عودنا المتعلمون من أبناء القرية، أن ينعزلوا عن أهلهم الفلاحين. ويتعالوا عليهم.

رف القلب لك رفيفه الحلو. زاد من رفيفه أنك تناضل من أجل الفلاحين والعمال والمطحونين جميعا. وأن الشهادة لم تمنعك من الانضمام الى الغلابة لست أخفى عليك أن أعجابى بك قبل الان،

كان اعجاب صبية بفتى له مكانة فى القرية. ولكن آراك الان فى صورة أخرى تملأ العين والقلب والعقل. ولن يتفوق على سعادتى بك، إلا فرحتى يوم ينتصر شعبنا على ظالميه.

استمع اليها على، وكأنه يستمع الى صوت مصر. أيمثل بدنها الخصيب، الخصوبة التى يتمناها لأرض الكنانة؟ أيعكس وجهها الجميل، صورة النظام الذى يتمنى قيامه فى مجتمعنا؟ نظام ينشر الحب والعدل والجمال بين الناس؟

فى نهاية اللقاء تعانقا. كان على يحتضن محبوبة ويحس بأنه يحتضن المبادىء التى يؤمن بها. ويقبلها، وكأنه يتلقى من شفتيها الدافئتين عهدا بالنضال، لبناء المجتمع بناء جديدا. وعندما اقتربا من حافة الأكمة قفزت كالغزال مضت فى طريقها الى القرية. وأخذ هو طريقا آخر.

- - - -

-٧-

كان خالد منتشيا، عندما غادر المجموعة الديمقراطية الثورية. لأول مرة يشهد تجمعا يمثل الشعب أو أكثريته الكبرى تمثيلا

حقيقيا. تجمع يضم السواعد والعقول المنتجة، الخالقة لوسائل الانتاج. لم يكن الامر كذلك فى التجمعات السياسية التى عاصرها. الاحزاب فى عهد الملك، باشوات يضحكون على الكادحين ويستغلونهم. ويحكمون باسمهم.

حركة يوليو، ركبت موجتها مجموعة برجوازية. امتلكت ناصية العسكرية، والسياسة، والاقتصاد. نادوا« بالاشتراكية» وهم فى الحقيقة يضعون بذور رأسمالية شاذة، ظهرت عوراتها، بعد وفاة عبد الناصر مباشرة.

بعض الشيوعيين القدامى، أصدروا بيانا عجيبا. أول تقليد فى حركة الطبقة العاملة فى العالم: الماركسيون يحلون تنظيمهم. ويندمجون فرادى فى الاتحاد الاشتراكى. يحتار المرء كثيرا لفهم هذا القرار. هل يمكن أن يكون للشيوعيين - وهم الفريق اليسارى النابض فى كل ثورة وطنية- فى مصر، طابع خاص؟ يجب ألا «يستوردوا» قراراتهم الثورية من الخارج. انهم يخشون أن «تعيرهم» القوى المضادة للثورة. لابد أن يكون القرار محليا. حلوا التنظيم الماركسى. وهو قرار فريد فى العالم كله. وكأن حركة الطبقة العاملة« وسية»، يملكها «الافنديات» الماركسيون، كما

يسميهم المتربع على الحكم. هل هذا القرار، يوضح الرابطة الواهية التى كانت بين بعض المنظمات الثورية القديمة، وبين الطبقة العاملة والفلاحية؟ هل كانوا حقا، كما يقول خصومهم، مجموعة من سكان الابراج العاجية، من مثقفى الطبقه المتوسطة؟ سلوكيات معضهم ملفته: يدخنون السيجار الفاخر، الطويل السميك. يتبارزون به فى اجتماعاتهم، عالقا فى آفواههم. تذكر حوارا مع أحدهم، حضر فى ذاكرته. قال له.

- سيجارك يشبه السيجار الذى يدخنه الباشوات، ورجال الأعمال.

بلع الثورى « السابق» الطعم. كان لديه استعداد واضح لبلعه. قال وعيناه تبرقان بلون من السعادة:

- نحن ندخن سيجار« هافانا »، المستورد من كوبا.

لعبت الخيلاء بأهداب عينيه، واستمر:

- السيجار الكوبى، أفخر سيجار فى العالم.

كان خالد لسانه« طويلا » وهو وأن كان يعتبر ترف الرأسماليين متوقعا، فانه ضيق الصدر بترف ممثلى الطبقة العاملة، والثوريين

من المثقفين يرى فى ترف هؤلاء انحرافا. وقدوة سيئة تدمر ثقة الجماهير بالقيادات. قال للاشتراكى السابق:

- تدخينك للسيجار. وفخرك بأنه من كوبا، يعطى اتجاها لقيمك السياسية. ويجعل الفارق بينك وبين الرّأسماليين ضئيلا ويستحدث فى الحركة الثورية مجموعة يمكن أن يطلق عليها «الباشوات الاشتراكيون».

كانت الصفعة عنيفة للثورى السابق. ظهرت آثارها فى احمرار وجهه، وتذبذب شفتيه.

- كيف تقول هذا الكلام؟ الا تعلم أن فيدل كاسترو، زعيم الثورة الكوبية يدخن السجار؟

- أعرف. لكن كاسترو يدخن منتجا وطنيا. اذا أمعنت النظر فى كاسترو والسيجار فى فمه، تجده كأنه سيجاره. لا يثير عظمة ولا باشويه. السيجار بالنسبة لكاسترو، كرغيف الخبز نستخرجه من مزارع الاذرة فى مصر. وكالجلابية الدمور نصنعها من القطن.

- أنت لم تدرس الاشتراكية العلمية دراسة كافية. نحن نفرق بين أموال الاستهلاك واموال الانتاج. أموال الانتاج يملكها الشعب

ملكيـة جماعـيـة. أما اموال الاستـهلاك فـيملكها الافـراد فى ظل الاشتراكية.

- هذه هى التـفـرقـة الاكـاديمية بين أمـوال الانـتـاج وأمـوال الاستـهلاك. أمـا السلوك الثـورى فـموضوع آخر. الذين يتـصدون لقـيـادة الثـورات، يجب أن يكونوا قـدوة لجـماهيـرهم. وذلك حـتى يكتسبوا ثقتهم، وتصدقهم الجماهير فيما ينثرون من مبادىء.

- أنا لست حاكما، لاعطى قدوة للناس.

- القائدون للثورة أحوج الى السلوك الاشتراكى من الحاكمين.

- - - -

صـورة مماثلة وثبت الى ذهنه، على الرغم من البـعـد الجـغـرافى والزمانى بين الصورتين:

فى داكار، فى السنغال، حيث عمل استاذا فى معهد التنمية الافـريقى، تذكـر مدير البحوث بالمعـهـد: انسـان ديناميكى نشيط اتاح للاشـتـراكـيين العلمـيين أن يعـرضـوا نتـاج قـرائحـهم على الدارسين. كان تقدمـيا. ينتمى الى الفكر الاشتراكى وكان ذكيا فى رسمـه لعلاقـاته بالدوائر السيـاسـيـة المختلفة كان مقربا الى

سنجور، جمعت بينهما الثقافة الفرنسية المشتركة. اتخذ سنجور منه مستشارا فى الشئون الاقتصادية. كانت هذه الصلة أساسا قويا لدفاع رئيس جمهورية السنغال عن المعهد ومدير بحوثه. قيل أن الامريكيين غير راضين عنه. لكنه مع ذلك بقى سنين كثيره يتناول مرتبا كبيرا من خزانة الامم المتحدة، التى يمول الامريكيون جزءا كبيرا منها .

هبطت الى داركار، ،فتاة أمريكية هيفاء. متينة البناء. فى وجهها رومانس وفى عينيها طموح. وفى جسدها جنس. ذهبت رأسا الى المعهد للقاء مدير الدراسات التقت بهيئة التدريس. اصبحت، فى غمضة عين، جزءا من المعهد. تستمع الى المحاضرات وتحاضر. تشارك فى وضع برامج المعهد، وفى تنظيم ندواته. وأحيانا فى قيادته. دخل خالد على المدير فى مكتبه. دهمه منظر عجيب. الغادة الامريكية تجلس فى مقعد المدير. تمد ساقيها المدملجتين حقيقة! على منضدة مكتبه. المدير يقف أمامها منحنيا. كانا يفحصان معا- من هذا الوضع- أوراقا لاشك أنها علمية، ربما كانا يبحثان فى خطه الفكرى.!

بلغت شهرة هذه الامريكية الحسناء ذراها ، اشتهرت علميا

واشتهرت كذلك جنسيا. بدأت صداقاتها تتسع. تقبل المدير الوضع. كانت صاحبة فضل وهيمنة عليه. كان فى الخمسين، وكانت فى العشرين.

آثارت العلاقة بينها وبين المدير غيره نائبه: افريقى، ممتشق القوام، حلو الملامح. عينه المدير نائبا له، لا لعلم غزير يتحلى به. ولكن كوجه افريقى يسهم فى ادارة المعهد. فيعطيها لمسة افريقية، تفرح بها دول افريقيا. ذلك أن مدير الدراسات كان مصريا، أبيض الوجه، سأل النائب خالد:

- هل أنت متأكد من أن المدير يضاجع هذه المرأة؟

- أمرك عجيب أيها النائب.. كيف أتأكد؟

- آه صحيح.. عندك حق.

نائب المدير هوايته النساء. كان عالى النظرة. لايحابى فى هذا المجال السوداء أو البيضاء أو الصفراء! الغريب أنه كان متعصبا للونه. كان يدعو الى كراهية البيض. شأنه شأن كثير من المثقفين السود فى أفريقيا وأمريكا. غير أنه يأخذ الظاهرة العنصرية بمظهرها السطحى: « البيض احتقرونا، واحتقروا اسلافنا. لابد أن نحتقرهم، ونبغضهم. ليس فى نظرته مضمون اجتماعى، ولا

منهج تاريخي. الا أنه كان يستثنى من نظرته النساء جميعا! لعل سؤاله لخالد عن الغادة الامريكية، كان المقصود به أن يسجل على رئيسه واقعة، قد تفيده مستقبلا. أو لعله يريد أن ينالها بدوره.

لم يكن لنائب المدير مشغلة غير البنات. وفى هذا الميدان، لايعبأ بأحد.

يتابع الفتيات فى قاعات المحاضرات، يجلس الى جوارهن وخلفهن. يغازلهن جهارا والمحاضر يتلو محاضرته. كان من بينهن فتاة من « جزر الرأس الاخضر » مستعمرة برتغالية استقلت حديثا. يبدو أن البرتغاليين امتزجوا جيدا بالافريقيات فى الجزر، فانتجوا بشرا ذا لون خاص: يجمع بين الاخضر والاصفر والاسمر! عيون الفتاة فيها سحر خفى. كحل طبيعى. وأهداب كالسهام. تجعلك تستسلم طلبا للسلامة.

الجسد «مخنصر» رشيق. شخصية قوية جذابة. صوتها فيه حشرجة الغابة، ورنين البرتغال! تابع نائب المدير فتاة الرأس الأخضر فى كل مكان: فى الكافتيريا، والحديقة، وغرف المحاضرات، جاءت الى الغرفة التى يحاضر فيها صاحبنا خالد. كان متحمسا كالعهد به. يسكب جرعاته العلمية والفكرية على طلابه. دخلت الفتاة

المزركشة الى القاعة تتثنى يتبعها النائب الافريقى. لا يهمه محاضر أو جمهور، اخذا مكانيها وسط الطلاب. لم يصل الى علمهما الحديث: «اذا بليتم فاستتروا». دار الغزل، « بالهمس واللمس». علت ضحكاتهما. جدية خالد حينما يحاضر فى التنمية، وفى الطبقات المعوقة لها. الاقتحام اللا أخلاقى لقاعة المحاضرة. محراب العلم الذى يتحول الى ماخورة. غلى كل ذلك فى عروقه. لا يريد مأساة علنية. كبت شعوره. انهى المحاضرة. وغادر القاعة.

أراد نقل الصورة الى المدير. كان صديقه، ومواطنه. وجده منغمسا مع الامريكية! تقسيم عمل، أو تخصص معقول: المدير مع البيضاء، والنائب مع الافريقية، التى اختلطت فى بشرتها الالوان السمراء والصفراء والخضراء.

الفتاة الامريكية عرف عنها- بعد أن رسخ قدماها فى المعهد، ورسخ فخذاها على منضدة المدير واكتافه- أنها مندوبة لجهاز المخابرات المركزية الامريكية. ارسلتها تحت رداء« فرق السلام» التى تقدم خدماتها التربوية والتعليمية لابناء القارة السوداء! ورغم ظهور هوية الفتاة ، فانها ظلت راسخة القدمين والفخذين.

حينما استعرض خالد هذه الصور السياسية ونماذج بعض الاشتراكيين القدامى، اصابته رعدة جذلة الجماهير الكادحة تبدأ تنظيمها لاقامة اشتراكية حقيقية.

- - - -

-٨-

أخذ خالد يدرس الحاكم عن كتب. استعان بزملائه فى الجماعة الثورية. اخذت منه الدراسة سنة كاملة. وجده مخططا لايبارى. حين تولى الحكم،« تغدى» بالمجموعة الناصرية قبل أن «يتعشوا» به. اختار مجموعة جديدة، تقود الجند والسياسة. ادرك أن البلد متدين. المسجد هو الطريق الى الرزق فى الدنيا، وإلى الجنة فى الآخرة. الائمة يدعون للحاكم. أى حاكم. يدعمونه بالمعانى الدينية، التى يؤمن بها الناس. اذن، لابد من السيطرة على هذه الكعبة، التى يقصدها الناس خمس مرات فى اليوم- أصدر قرارا بتعيين قادة المؤسسات الدينية. ولاؤهم سيكون له.

بدأ المشايخ عملية «غسيل مخ» مقدس للناس. استخدم القرآن الكريم، والاحاديث الشريفة، لتثبيت الحكم. اخذوا يشيدون

بالرئيس الجديد. ويتهجمون على الرئيس الراحل. الحاكم الجديد يذهب الى المساجد، ليصلى مع الناس، تسلط عليه عدسات التليفزيون، ساعات طويلة، وهو يعبد الله. الأمر الذى جعل المشايخ والصحفيين، يطلقون عليه طواعية «الرئيس المؤمن».

أصبحت السلطة وطيدة الأركان. سامقة الذرى قامت على أعمدة سياسية وعسكرية ودينية قوية. . على أن الخلف عرف قدره، وقدر السلف تماما. كان الناس يرون هذا عملاقا، ويرونه قزما. عرف ذلك، ولم يعترف به. الحكام السابقون، كانوا من الظالمين. وصف الحاكم الراحل وحده بالعدل. لكن من هو الراحل؟ انه زميل لى، لا أكثر ولا أقل. واذا كان قد أتى بأعمال أعجبت الجماهير. فأنا مشارك فى تلك الاعمال. المرحوم حظى بوهج المجد وحده. تلك أنانية منه. بطش بزملائنا جميعا. لم يتبق الاى. مشيئة الله اختارتنى لاخلفه. اخذه ربنا ليفسح الطريق أمامى. كان المفروض أن أتولى القيادة من أول الامر.

فأنا الذى أسست فريق« الضباط الاحرار» !ولو أن الزملاء أنكروا على ذلك. وقالوا أن عبد الناصر هو الذى كونه. وذلك لان الحقد قد أكل قلوبهم عندما أصبحت رئيسا!.

ما علينا. هذه هى الفرصة أمامى ذهبية. تضوى فيها اللالىء. التركة الذلول تطفح سمنا وعسلا. الله جاء بى الى هذا البلد. الناس يبتهلون الى، أن تولى الحكم. وما أنا الا ملب لارادة الله، وابتهال الجماهير.

أحمد الله على هذه المنحه الربانية. وأشكر العناية الالهية التى وفقتنى فى السيطرة على هذا البلد الآمن. أهله طيبون. حكمهم قوم يقلون عنى ذكاء والهاما. اننى ابن البلد. وأحق منهم جميعا. سوف أنسى الشعب الزعيم الراحل وسيفتح صدره لى وحدى، وللاعمال العظام التى سأقبل عليها.»

كان الرجل ذكيا، لا مراء. وضع عينيه على عبد الناصر. فهو الزعيم الحقيقى لحركة« الضباط الاحرار». دعنى اتقرب منه. وأنصره ظالما أو مظلوما. ولا اظهر طموحا أو قوة كما يفعل الاخرون. دع هؤلاء يتصارعون مع عبد الناصر. عبد الناصر أقوى منهم جميعا.

راقبت الصراع بينه وبين محمد نجيب. تخلص عبد الناصر منه، ومن خالد محيى الدين فى مارس ١٩٥٤. كما تخلص من يوسف

صديق قبل ذلك. كان الساذجون يصفون الصراع بأنه معركة الديمقراطية: كيف يمكن أن تنتصر الديمقراطية فى حركة قام بها الجيش، ويحرسها؟؟ كنت أعلم أن مصير البغدادى، وكمال حسين، وزكريا محى الدين هو نفس المصير. فتك بهم عبد الناصر.

هزيمة يونيوحطمت عبد الناصر فلاحتضنه أنا وقرينتى . تحققت نبوءتى. وجاء اليوم الاعظم، مات عبد الناصر، الله يرحمه. وكان لامناص لمجموعة التلاميذ، الذين كانوا يعملون معه من أن يختارونى رئيسا. عينونى اليوم. وبطشت بهم فى اليوم التالى: «ماخدوش فى ايدى غلوة»، كما يقول شعبى العزيز.

جاء الخلف الى الحكم بعد عملاق. كان الزعيم الراحل يحظى بشعبية جارفة. الجماهير أخذت تتنفس بعض الشيء من الاستغلال، الذى فرضه عليها الحكام السابقون. وأصبح مستغلوها يعانون بعض القهر، الذى صبوه على الناس فى الماضى. أثبتت الحوادث أن الخلف « عتويل» لم يكن امعه.حسبته مجموعة التلامذة كذلك. وكانوا هم الامعات. فهم لعبة الحكم فى البلد الطيب. انتهى الى أنه ليس من الضرورى أن يكون الحاكم

عــمــلاقــا ليلى الحكم. الحكم نفـســه هو الذى يجـعـل من الحــاكم عملاقا.

شعب مصر شهد حكاما امعات. اصبحوا عظماء في كرسى الحكم. وأنا ثورى. تاريخى حافل بالنضال. ورثت كرسيا كانت تحتله شخصية عظيمة. لكن الخطة التى رسمتها، لاسترداد الكرسى، ما كان فى استطاعة أحد أن يرسم مثلها. لايهم أن يكون الزعيم الراحل عملاقا أم قزما. فهو الميت، وأنا الحى. ولاريب أن الحى هو العملاق والميت هو القزم.»

نزل الراحل الى الناس بشعارات عدة: «الاستقلال» وهذا عمل اسهمت أنا فيه، حينما كان الراحل غير معروف للناس. القضاء على الاقطاع. ملكية الفلاحين المصريين للارض. تأميم المصانع والمتاجر. هذه شعارات لاتسهوينى. أن لى شعاراتى البراقة. أول شعاراتى: «الحرية» سوف أعلن على الملأ أننى سأغلق المعتقلات. ومن يريد أن يتأكد بنفسه فليتفضل.. مجلس الشعب يجب أن يكون صورة حية لشعار الديمقراطية. على أنه يجب أن يحكم تكوينه ليحقق أهدافى.. الاغلبية الكاسحة فيه، لرجالى. على أن الشكل الديمقراطى يتطلب، أن يوجد فيه نفر من غير رجالى.

على أن يكونوا أقلية ضئيلة. لايعتد بها. وزارة الداخلية لها تاريخ عريق فى «طبخ» الانتخابات النتيجة توضع مقدما ، فى صناديق الانتخاب بغض النظر عن ارادة الناس أعلنت النتيجة. كانت متوقعة تماما: ٩ر٩٩٪ لانصارى و١ر٪ لخصومى.

شعارى الثانى: هو« حكم القانون، ودولة المؤسسات »: كان الزعيم الميت مخطئا. وثق بقوته وجبروته كثيرا. حكم الناس «بالكرباج».

وأظهر «كرباجه» على الملأ ليراه الناس ويرهبونه. كان حكمه« عسكريا » سافرا. يستند الى قراراته وأوامره. وما كان فى حاجة لذلك. ولما كان حكمى ديمقراطيا ، فلابد من الغاء الوجه« العسكرى» للحكم، من حيث الشكل، اليكم حلا عبقريا. يضمن بقاء الاساس « العسكرى» للنظام، وفى الوقت نفسه يوهم الناس بأن القانون العادى هو الذى يطبق: تحول كل النصوص التى كانت سائدة فى الحكم العسكرى الى قوانين مدنية!.

يبدو ان الجماهير لم تقتنع بديمقراطية «الخلف» الشباب يغلى فى الجامعات والمدارس والمصانع ، ينادى بديمقراطية حقيقيه . الشباب فى منظمة الشباب يرى النذر تحيط بالخطوات

«الاشتراكية» يهبون للدفاع عن الحقوق المكتسبة للشعب . قامت المظاهرات فى كل مكان .

العدو الاسرائيلى ينعم باحتلال قطعة غالية من ارض الوطن : سيناء . ويمارس لونا من المهانة اليومية : يستحم جنوده من الرجال والنساء بالمايوهات البكينى فى البلاج الشرقى للقناة ! الشباب الوطنى المجند يمور فى الخنادق. تطلق عيونهم وصدورهم شهبا . تبرق داخل الخنادق . وهم يريدونها ان تحرق العدو ، يصرون على الانتقام من مهانة يونيو . شارك عبد الناصر الجنود رغبتهم فى الانتقام ، أمدهم بالاسلحة من الاتحاد السوفيتى . قاد حرب الاستنزاف ، التى دمرت دبابات العدو ، وعصفت بمعنوياته . لكن عبد الناصر مات قبل ان يقود المعركة ، آلت السلطة لخلفه ، واجهه اجماع من الجند ، على ضرورة استرداد الشرف السليب . ثورة الجند توشك ان تنفجر . مكثوا تحت الارض مدة طويلة . يعدون انفسهم للمعركة الفاصلة ، والانتصار على العدو .

لم يقتنع الجنود والضباط بالحجج الهزلية التى يلجأ اليها الخلف صارت هذه الحجج مجالا لسخرية الناس فى كل مكان: فى شهر يوليو، يكون هناك ضباب على القناة. الخلاف بين الهند

وباكستان على الحدود، أخذ من معركة القناة السلاح والاضواء!.

مازال الحاكم يسوف. يريد ضيعة آمنة. يتحكم فيها. ويستمتع بأموالها. المعارك غير مضمونة العواقب. اذا تحقق النصر، قد يكون للمنتصرين رأى فى النظام. الانتصار يطلق خيالاتهم ويشحذ وعيهم. لاسيما اذا كان النضال فى سبيله مرا.

واذا حدثت هزيمة، ربما يثور الناس على نظام تسبب فى الهزائم والنكبات. أرايت الى ثورة ٢٣ يوليو، بدأت طلائعها تتجمع بعد هزيمة ١٩٤٨ فى فلسطين.

الجند يلحون. مظاهرات الشباب تموج فى شوارع القاهرة. التقارير ترد اليه من اعوانه السفليين، محليين وأجانب: الثورة فى صدور الجند. إما أن تنفجر فى العدو، أو تنفجر فيه. لم يجدصاحبنا بدا من أن يستجيب للجند وللجماهير. وأصدر قرارا تاريخيا شجاعا بعبور القناة، وبدء حرب اكتوبر ١٩٧٣. هللت له جماهير مصر والأمة العربية جميعا. ولكنه وضع حرب اكتوبر فى اطار مخططه الذكى:

«عبرنا القناة، وحققنا النصر. وصلت بنا المعركة الى الأهداف التى نبتغيها:

رددنا لمصر شرفها السليب. وذاق الشعب حلاوة الانتصار، بعد أن تجرع مهانة الهزيمة فى عهد عبد الناصر.

النصر يجب ألا يلعب برأسي. رأسى هى التى يجب أن تلعب به. النصر أداة طيعه يمكن استخدامها لاستقرار الجبهة الداخلية ألا ترى المواكب تسير بذكرى، وتبتهل باسمى..؟؟ الشعب راض.. والمظاهرات الغاضبة على نظامى، أصبحت فرحة بى. أيا كان الامر، فالجبهة الداخلية ليست مشكلة.

« مهمتى اليوم هى الجبهة الخارجية. هى التى يمكن أن تنغص على هذه الضيعة الحلوب. ما هى القوى الخارجية، التى يمكن أن تدمر نظامى أو تعمره؟ الروس لا يعمرون، ولا يخربون، هم يخربون عن طريق الذين يؤمنون بنظامهم وافكارهم فى الداخل، وهؤلاء التعامل معهم سهل.

اذن الخطر الحال على نظامى هو اسرائيل. وأخطر منها الولايات المتحدة. القوة الكبرى التى تشد أزرها. اذا هجمت اسرائيل على من الممكن أن يتقوص نظامى. ألم يتقوص نظام الملك فاروق بعد هزيمة ١٩٤٨ اذا ما هزمت سوف تنشأ قوى من الجيش الوطنى

تقلب نظامی، كمـا قلبنا النظام الملكى فى عـام ١٩٥٢. ألم تقـتل هزيمـة ١٩٦٧ عـبـد النـاصـر، وانـهـتـه، وحكمـه، قـبـل الآوان، عـام ١٩٧٠؟»

أننى كذلك أحس برغبـة شديدة فى التـحالف مع أمـريكا. تحت المظلة الامريكية، ينعم نظامى بالحماية وأشعر بالامن والامان اننى أعشق النظام الاجتماعى، الذى يقوم فيـها: الرأسماليـة، والعز، والفخامة، والغنى. مالى أنا والشيوعية، التى ينادى بها الروس. نظام كريه الى نفسى. شيوعيـة الفقراء. أنا برمت بالفقر. لاحقنى صبـيـا، ولا حق أسرتى. والذى كـان مـوظفـا صـغـيـرا. فى وظيفـة كـتـابيـة هزيلة. عـاونه ضـابط كـبـيـر للعمل فى السـودان. رجع من السودان« بخفى حنين» أو بخفى الفقر. ترصد لى الفقر، بعد أن فـصلت من الجـيش، حـينمـا اتصلت بالالمان فى الحـرب العـالميـة الثانية. أنا منذ صغرى أحلم بالفخفخة، والبذخ، والعيش الرغيد. وهانذا أتربع على« وسـيـة» عـجب. ترابهـا ذهب. وهى لمن غلب. وأنا الغـالب هذا يتطلب اسـتـراتـيـجـيـة عـبـقـرية. أول مـفـتـاح من مـفـاتـيـحـهـا هو الامـريكـيـون سـيكفلون لى أن اسـرائيل سـتكون صديقة.. فـيـتـحـقق لى الامن المباشر. الامـريكـيـون أيضـا مصـدر

لسعادتى الايديولوجية. سنقضى معا على الشيوعية المحلية والدولية.

ينبنى على ذلك، أن نصر اكتوبر، يجب أن يكون أداة فى يدى لتدعيم الحكم واستقراره. فلاعد الامريكيين، اننى لن أتقدم الى الممرات فى سيناء. وسأوقف ضرب النار. وأجمد قواى فى مواقعها- وتبدأ المفاوضات على أن تكون الولايات المتحدة شريكا أصليا فيها وتضمن أن الاسرائيليين سينسحبون من الجانب الغربى للقناه. ثم تدور المباحثات حول سيناء.

- - - -

- ٩ -

دارت هذه العناصر، التى يبنى الحاكم استراتيجيته عليها، فى مخيلة خالد، وهو مصطجع فى سريره عصفت برأسه ليلة كاملة. استيقظ على جرس التليفون:

- آلو.. من؟

- أنا صوفى

- صوفى من؟

- هل نسيتنى بسرعة؟ صوفى مهندس« البيت الأبدى»؟

- بيت أبدى؟؟

- صوفى، يا أخى، ساكن المقابر.

- آه..... آهلا يا صوفى. أنا سعيد اذ أسمع صوتك. لكن صوتك لا يأتى من وراء الغيب. كما كان جرسه، عندما التقينا بين القبور.

- هذا هو التطور، الذى أود أن أراك من أجله..

تردد خالد.. يريد أن يتحاشى فلسفة العدم، تنضح من شفتى صوفى. تطعن نبض الحياة فيه. لايدرى ما هو التطور. ربما يكون اغراقا فى الفلسفة. لكن لعله استنقاذ منها. هذه الرؤية ليست من صنع الشاب. أنها من صنع النظام. كانت فى حديثه نتف من الوعى. بذور ربما تنمو، وتزهر فلسفة للحياة والتقدم. اذن لامناص من لقائه.

كان اللقاء مثيرا:

- ماذا فعل الله بك، ياعم صوفى؟

- قل ماذا فعلت بى المقابر والمقاولون؟

- أعرف مااذا فعلت بك المقابر. ولكن من هم المقاولون؟

- المقابر فعلت بى فعلا مضادا لما تعرف.

- كنت عاشقا لها. وصممت« البيت الابدى».

- كنت ..

- وماذا دهاك؟

- ازدحمت المقابر بالأحياء المشردين من غير سكن.

- وما شأنك بالزحام؟

- فى صبيحة يوم من الايام، دق باب المقبرة دقا عنيفا. قمنا مذعورين من نومنا كان هذا الطرق غريبا، فقد غمرتنا القبور بهدوء، وسكينة أبدية.

وقاطعه خالد مبتسما:

-«الأبدية» مرة أخرى؟

- وعندما فتحنا الباب وجدنا جمهرة من الناس: رجالا ونساء وأطفالا..

تقدم رجل يناهز الخميسن من عمره، قائلا بنبرة غير صديقة:

- من الذى صرح لكم بدخول هذه المقبرة والاقامة فيها ؟

وببعض الشجاعة قلت للرجل:

- هاجر الأحياء الى دنيا الاموات، فهاجرنا معهم.ووجدنا هذه المقبرة مفتوحة، فاحتللناها.

وأجاب الرجل:

- لم تكن مفتوحة. لقد اعتديتم على ملك غيركم.. وسكنتموه بغير اذن ولا عقد.

- هل هناك ملكية خاصة فى دنيا الأموات؟

- لا تتفلسف.. أنا الذى أملك هذه المقبرة ملكية خاصة.

فوجئنا بمالك المقبرة وبالجيش الذى يصحبه.. أقول لك الحقيقة، اننى تلعثمت. لم تنفعنى الفلسفة التى تعرفها.. وددت أن أمضى بالحديث مضيا صديقا:

- هل تريد سيادتك أن توقع معنا عقدا لايجار المقبرة. فنحن مستعدون ثم واتتنى فلسفة« اللامبالاة » فاستطردت. وليتنى ما فعلت:

- لكن لجان تقدير ايجار المقابر لم تأت الى هنا بعد..

صاح الرجل غاضبا:

- أنت تتهكم على، يا أفندى؟ تفضل. اخل المقبرة بسرعة. انقل هذا الاثاث من هنا. والا قذفت به فى الشارع..

وجمت أسرتنا وجوما شديدا. لم ينبس أحد منهم بكلمة. حتى أمى الثائرة، خرس لسانها. لم يتحدث الا أبى. انت تعلم صمته« الابدى» والعبارة التى يرددها دائما: « دفنونا بالحيا » أضاف الى هذه العبارة فى ذلك اليوم عبارة أخرى.« رضينا بالغلب، والغلب مش راضى بينا ».

أحببت أن أتوادد مع الرجل فقلت:

- أين نذهب؟

- اذهبوا الى قبر آخر.

- القبور كلها مزدحمه.

- ليس هذا شأنى.

سكت الرجل هنيهة. قال بعدها، ينصحهم وكأنه يفعل خيرا:

- ليس من الضـروری أن تسکنوا مـقـابر الطبـقـة الوسطی. انتقلوا الی المقابر الاکواخ..!

یبدو أن الرجل علی وعی عمیق بالطبقات فی دنیا الاموات..

لم یجد صوفی بدا من الرد علیه:

- نحن تعودنا علی مقبرة الطبقة الوسطی!

- هذا خطأکم. أنه تطلع طبقی . ما کان لکم أن تقدموا علیه.

فی هذه اللحظة، حضر « عربجی » یقود عربة کارو کبیرة علیها متاع « کراکیب ».

یبدو أن الرجل برم بالنقاش، فأراد أن یضع حدا له:

- تفضلوا اخرجوا . وخذوا عفشکم........ هذه الأسرة ستسکن المقبرة.

وسأله صوفی:

- أهذه أسرتك؟ ترید أن تسکن مع موتاها؟؟

أرید وجه الرجل. ضاقت عیناه. فتح فاه. اطلق منه شواظا:

- أنت ولد قلیل الأدب. لا تعترف بالجمیل. تسکن مقبرتی وتسب أسرتی؟

كنت هادئا. مازالت فلسفتى مسيطرة على. لم تحرجنى كلمات الرجل. لكن والدى هبا فيه هبة واحدة، وأمسكا بخناقه. كان على أن أفض الاشتباك. تطور الشجار. شمل الاسرة المهددة فى مسكنها. والاسرة المشردة التى تريد أن تأوى الى المقبرة، تجمع الناس اقترح بعضهم أن نخلى المقبرة. ركب والدى رأسيهما. امتنعا عن ترك المقبرة. استدعى صاحب المقبرة البوليس. تصور أن البوليس له نقطة هناك. ويتابع الانسان حتى وهو ميت. وعقب خالد:

- يمكننى أن اتصور!

ومضى صوفى فى سرد قصته.

- آخذنا رجل الشرطة الى نقطة البوليس. وبعد تحقيق طويل، أخذ الشاويش علينا تعهدا باخلاء القبر. وعدم التعرض لمالكه. كانت الاسرة التى احتلت القبر لها صلة قربى بصاحبه « الاقربون أولى بالمعروف».

أخذ صوفى فى وصف الموكب الشريد: أبواه وأخواته، وعربتان كارو تحملان إلاثاث. وصل الموكب الى حى القبور الشعبية.

انتقلوا من قبر الى آخر. الجماهير الكادحة زحفت عليها. القبور تعج بهم. لحسن حظهم وجدوا قبرا كوخا منعزلا. كأن القبور قد لفظته. حطوا فيه رحالهم ومتاعهم. تنزلوا الى الطبقة التى يجب أن يسكنوا معها.. انتهى الحلم. كانوا يحلمون بالانضمام الى الطبقة المتوسطة من الاموات، وقد عز عليهم الانضمام اليها فى الحياة الدنيا. لم يدم الحلم طويلا. أعيدوا إلى مكانهم بين الاموات من الطبقات الشعبية!.

كان خالد- وصوفى يقص قصته- قد هام فى دنيا يجللها الضياع. اختلط فيها الموت بالحياة، والقبح بالقبح. ضاق صدره حتى شعر بأنه بغير صدر. اذا كان الانسان يخضع لكل هذه الانواع من المهانة، فما هى الدنيا؟ وما هى الآخرة؟ وما هى النظم الاجتماعية؟ بل ما هو الانسان؟ الصورة التى تخترق وجدانه الان مختلفة عن صور المهانة التى حاقت بالانسان فى مجتمع «الوسية» الجوع والتخلف ينهشان ما فى الانسان من جوهر. التعذيب فى المعتقلات يجعله مشوها ممسوخا. لم يكن يعلم أن التشرد يفرض الموت على الناس، ومازالوا أحياء. يطفىء فيهم

شرارة الحياة، التى على ضوئها ينتجون ويتقدمون. رضوا بهذا الموت. فاذا بملاك القبور المتوسطة يطردونهم من ملكيتهم الخاصة. ويقذفون بهم فى القبور العشش! يبدو أن صوفى هذا ، سيسود الدنيا فى وجهه. ذعر. صوفى قدير على تعتيم الكون كله. اذا استسلم خالد لهذا السواد هيهات أن تبيض الدنيا مرة أخرى. رأى صوفى السحابه التى غيرت وجه خالد. قال له على الفور .

- لاترع. سوف أكمل لك القصة..

وقاطعة خالد:

- لا. لا أرجوك. أتوسل اليك. ارحمنى.

- أعاهدك على أن أغير النغمة.

- تغيرها الى « سلم» أكثر ترديا وشجنا.

- لا الى سلم صاعد.

- تمنيت لو تصعد. ونصعد معا.

-أعدك.

- تفضل.

واستـــدرك خــالد، حتى يضمــن أن الحديث سيـتـخـذ مـســارا آخر. سأله:

- ماذا فعلت فى البكالوريوس؟

-نجحت بدرجة، مقبول.

- لابأس. القبول على الله. مقبول أو ممتاز. الكل يتساوى.

- تماما.

جزع خالد مرة آخرى. لاحظ صوفى جزعه، قال:

- أنت الذى جررت ساقى. ارجو أن تتآنى.

- ... ومشروع بكالوريوس الهندسه؟

- تقدمت بمشروع« البيت الابدى» نلت عليه درجة ممتـاز.. كان من حظى أن استـاذا« درويشـا » هو الذى أشرف عليـه. وسعـد به سعـادة كبيـرة. وقال لى: أن ما صنعته عبقرية لم يشـهد مثلها فى تاريخ الفن المعمارى!.

وعلق خالد:

- يبدو أن الناعقين بالموت لايحتلون كراسى الحكم فـحسب بل

يحتل بعضهم كراسى الاستاذية فى الجامعات.

- هذا صحيح.

اعترى خالد جذل لذيذ. صوفى يوافق على أن القاذفين بالناس الاحياء الى القبور والناثرين لفلسفة العدم. والمعماريين الذين يصممون« البيت الابدى » كل أولئك ناعقون بالموت. واسترسل صوفى:

- أتدرى أين يعمل هذا الرجل؟ أنه يعمل مع « المقاولون»

- أليس أستاذا فى كلية الهندسة؟

- هو كذلك. لكنه فى الصبح نجارا، وبعد الظهر مستشارا. يعمل مستشارا كبيرا فى مؤسسة« المقاولون» وله شركة مقاولات باسم امراته. تعمل من« الباطن» مع «المقاولون».

- كل هذه الاعمال؟ كيف يؤدى مهمته العلميه فى الجامعة؟

- العلم لايهم.. القيم السائدة فى الدولة هى الاهم. الدولة لاتحترم العلم ومشغولة عنه. الاساتذة لايحترمون الدولة، ويشاركونها الانشغال عن العلم. الكتب المنقولة من الكتب

الاجنبية ارتفعت أسعارها. كفلت دخلا سمينا للاستاذ المؤلف. يجمعه من الطلبة الفقراء. هذا مصدر ضئيل. الفئات المسيطرة فى المجتمع هدفها الاثراء السريع. لايهم أن يكون الاثراء حلالا أو حراما. الاساتذة- وهم جزء من المجتمع وقيمه- يقلدون الطبقة المسيطرة. الفلسفة بكلمة شعبية قوية هى «الهبر».

معتقل القلعة. المعتقلون يلعقون الجراح التى شقتها السياط فى أجسادهم.

أمسية من أمسيات الخريف. سماء صحوة. نجوم ترسل أضواء باهته تتوه فى آضواء المدينة. ضابط المعتقل الذى كان تلميذه فى كلية الشرطة يأخذه من زنزانته.

يجلس معه فى الفناء الذى تصطف الزنزانات حوله. يقدم له الشاى. يدير معه حوارا عن السياسة والعلم. ينصحه بأن يترك السياسة ويلجأ الى« الهبر» ولاشىء غيره، حتى باستخدام العلم.

وسية الخواجه اليونانى، التى عمل فيها كاتبا وهو صبى. الجرن حافل بالمحصولات المتنوعة من الفول والقمح والشعير. النجوم باهرة الضوء، تتعلق بالسماء كاللآلى. كان محمد خطاب خفير

الجرن يقدم له الشاى. كان يشاركه النوم على قش القمح المهروس. دار بينهما حوار. حاول محمد خطاب بخبراته وذكائه أن ينقل اليه فلسفته: انه يحرس «الخيرات» فى جرن الخواجه. وأن له حقا عليها. فالخواجه استغله واستغل عمل الفلاحين معه. وتملك الارض وناتجها، الذى تنتجهه سواعدهم. اذن لابد أن يسترد نصيبه من هذه الخيرات فى جنح الليل. لايستطيع ذلك فى وضح النهار. كان يغربه، بأخذ نصيبه من هذه الخيرات كان فى نظره ولدا صغيرا لابد من تدريبه!

صوفى يكرر كلمة« الهبر» التى استخدمها ضابط المعتقل، وعناها خفير الوسية بكلمة « الخيرات » والتفت خالد الى صوفى وسأله :

- وماذا فعلت بعد التخرج ؟

- طلب منى الاستاذ الدكتور المهندس، المستشار، المقاول من الباطن،آن أعمل عنده فى شركته أو معه فى المؤسسة «الام» «المقاولون» وفضلت الاخيرة.

- اذن تحققت نبؤتى.

- تماما. ذهبت الى «المقاولون» لارى امبراطورية اقتصادية كبرى تتشعب فيها العلاقات وتتعقد. فهناك الشركة الام. وتمتلكها الدولة مع المقاولون تتفرع منها شركات تابعة. يسهم فيها المقاولون مع الدولة. وهناك شركات يملك المقاولون رأس مالها كله، تعمل من الباطن مع الشركة الأم وتابعيها. وهناك شركات من الباطن يشترك فيها المقاولون مع آخرين. وآخرى تعمل من باطن المستويات الثلاثة!

الاستاذ المهندس يطلق لحية كثة. يتدروش حينما يريد تخدير الناس. و«يترسمل» حينما يجلس على كرسيه فى شركته: أنه واحد من الملاك فى ذلك المخلوق المركب كالاخطبوط.

بينما كان صوفى يعرض على خالد الامبراطورية المعقدة، عنت للاخير فكرة: أن يصطحب صوفى الى المجموعة التى ضمه مجاهد اليها. فيلقى لها بصورة من صور الراسمالية الجديدة، ترشحه للانضمام اليها. وقال له خالد:

- يحسن أن نؤجل تفاصيل القصة الى مناسبة أخرى.

-كما تحب. لكنك سألتنى عما حدث لى بعد التخرج. فهل تريد أن تعرف ؟

- نعم.

- حينما تغلغلت فى أرجاء المقاولون،اخذت فكرة عما فيها من علاقات. وفهمت ـ الى حد ما ـ لماذا يلقى بالشعب فى القبور. وتتسلق هذه الفئة سماوات العمارات و«روف» الفلل ورنت فى وجدانى كلماتك. تلك الكلمات التى صرخت بها ، وانت تودعنى بعد لقائنا الاول «سوف تنضم الى المقاولين وتصبح حربا على أهلك.وسوف تبعث بمزيد من مواطنيك من أبناء الشعب، الى القبور».

ولا أكتمك اننى حين ارتقيت سماوات العمارات. وتجولت فى الفلل وحدائقها لعبت برأسى أطياف الثراء، وبدأت اتنصل من نظرية« الفقر أو الموت الابدى»، هالتنى الابهة التى يرفل فيها المقاولون وشركاؤهم. وتأثرت أول الامر بالاستاذ المهندس. كان الرجل تقيا يحمل دائما مسبحه. يحمدل ويحوقل عليها. يعظ الناس بالعزوف عن الدنيا ،ويجمع فى الوقت نفسه الالوف والملايين من عرق الجماهير.

وعقب خالد:

-أمر طبيعى، فهو يمثل فلسفتك.

وعلق صوفى:

-أنت لم تتعمق فلسفتى تماما. كانت تقوم على أن الغنى والفقر سواء،والحياة والموت يتشابهان. ولكنى لم أكن أبدا ذا وجهين: اظهر التقوى والدروشه ، واضحك على ذقون الناس، ثم أجمع الثروة من كدحهم.

ـ هذا صحيح. لكنك تقول أن فلسفتك« كانت » هل اقلعت عنها أم طورت فيها ؟

ـ « طول بالك » لا تتعجل رزقك لقد امنعت التفكير فى الاستاذ المهندس وجدته يستخدم الدين، لكى يجعل الناس يرضون بالفقر. ويكوم هو الاموا ل . نفاق وكذب على الله والناس. نفرت منه وعزفت عن أن أتخذ منه اماما .

سكت موفى برهة قصيرة، ثم حملق فى عينى خالد، وواصل :

ـ ظلت فلسفتى القديمة، وسلوك الاستاذ المهندس،و صرختك بعد انتهاء لقائنا الاول، تصطرع فى ذهنى. اضيف اليها طردنا من

قبور الطبقة الوسطى. والقذف بنا فى منطقة القبور الاكواخ ـ كنت أصعد العمارات الشاهقة. اراها تطل على النيل والحقول والمتنزهات. وترنو الى الاهرامات الخالدة. ثم ينكسر بصرى الى القبور حيث يرقد الموتى والاحياء من أهلى ومواطنى. واتوه فى ضباب لم يعد يتكشف فى « الفلسفة الابدية » التى كانت تمنحنى سلاماً !

واعترض خالد :

ـ كان سلاما مصطنعا، وتصورا هروبيا من الحياة.

ـ كان كذلك، لبثت ممزقاً فى داخلى متناقضات، تتلاطم فى وجدانى. تصعد معى حينما أصعد البناءات السامقة. وتهبط معى حيث القبور والموت والعدم. فى أول الأمر كنت أرى فى الاستاذ المهندس أملاً، وصورة للحياة المشرقة .

لكن نفاقة الدينى وجوهره الرأسمالى الاستغلالى اصابنى بغثيان. ثم انقذتنى حادثة قد لاتصدقها.

وطمآنه خالد:

– سأصدقك منذ الان . التناقضات التى اصطرعت فى داخلك ستطهرك.

-كان العامل الحاسم نتيجة لزائر جديد. ولدى. بعد لقائنا الأول بشهر حصلت على البكالوريس .ثم تزوجت وانجبت.

-لقد زدت من سكان القبور! مبروك.

مضى صوفى فى حديثه:

ـ العامل الحاسم، كان صرخة الطفل فوق القبر، يوم مولده! ايقظتنى صرخته من الخدر الطويل الذى غشينى. تخيلت الوليد يصرخ خوفا من الدنيا ،ومن التنظيم الاجتماعى فيها. كان فى صراخه نغمة خاصة. كان يشهد الموت والحياة،فى لحظة واحدة !تفتحت عيناه على منظر القبر،ومشرق الحياة فى نفس الوقت. أمر لايرعب الكبار فحسب،ولكنه يرعب الصغار كذلك!

مسح صوفى قطرات من العرق تساقطت من جبينه على عينيه،ثم استمر فى حديثه:قضت هذه الصرخة على الغيبوبة الفكرية، التى انتابتنى منذ جئنا الى المقابر.بدأت أدرك أن هذا الطفل،وكل الاطفال يولدون ليحيوا. لاليقبروايوم مولدهم.وان الشعوب يجب أن تتخلص من اعداء الحياة لكى تبنى مجتمعا يمجد الحياة. ويكرم الانسان.

نشوة تستشرى فى كيان خالد. تجربة الموت تصهر شابا ذكيا. وهى لامراء فاعلة ذلك بكثير من أمثاله. فيا أهلا بك ياصوفى لتنضم لزمرة المناضلين لتحرير الانسان.

- - - -

-١٠ -

خالد وصوفى يشقان طريقهماوسط المروج. موسم الحصاد يخلع على الحقول رداء ذهبيا ،يتجهان الى الأكمة. اشجار النخيل تعطى اللوحة لمسات حمراء وصفراء وبنية. تدلت تحت سعفها اسباط البلح الاحمر والاصفر والرطب.

تسللا الى المكان الذى تجتمع فيه المجموعة. مفاجأة. بأن أثرها المشرب بالخوف على الوجوه،حاول خالد ان يبدد أثرها ، قال:

-هذا هو صوفى،صديق جديد.

انتحى مجاهد بخالد جانبا. وقال باهتمام قلق:

-كيف تصحبه الى هذا المكان ؟

-لاتخف. انه شاب واع.

-متى تعرفت عليه وأين؟

-تعرفت عليه فى المقابر منذ حوالى سنة. ثم التقيت به اليوم.

-أتريد أن تدخل على المجموعة. مندوباللموت ؟؟

-كان مندوبا للموت،واصبح رسولاللحياة.

رجعا الى المجموعة.أخذ خالد يقص عليهم قصة صوفى. ثم انهى حديثه باقتراح مؤداه أن يعرض صوفى عليهم دنيا «المقاولون» قصد أن يترك للجماعة الحكم على صلاحيته للانضمام اليها.

وحين علمت محبوبة بقصة ساكنى القبور تقدمت باقتراح:

-الجماعات الثورية يجب الايقتصر دورها على التوعية السياسية واعداد الكوادر للانقضاض على اعداء البشرية. هناك عمل أساسى من أعمالها: التعرض لمشكلات الجماهير اليومية. والعمل على حلها. هذا هو المجال للأختلاط بالناس.واقناعهم بأن الثورة بناء. لماذا لانبنى مساكن لسكان القبور؟!

بدأت المجموعة على الفور مناقشة الفكرة. كانت الجماعة بحكم تكوينها مناسبة تماما لمثل هذا العمل.وأخذت الفتاةتوضح خطتها:

جماعتنا فيها العامل،والفلاح ،والمرآة الفلاحة،والمهندس المعمارى، والفنى الزراعى والجندى واستاذ الجامعة وممثل الشباب.ونحن نتتمى الى قرى، وأعمال مختلفة. ولنا اتصالاتنا بالناس فيها .ويمكن للشعب العامل أن يتصدى لهذه العملية وليعلن للظالمين،انه سيحل مشكلاته بنفسه. لامشكلة الحكم فقط. ولاالسيطرة على ارضه ومصانعه فحسب ، ولكن على عملية التعمير كذلك . انتقلت محبوبة بعد هذه المقدمة الى خطوات التنفيذ:

- أنامثلا، على أن أجمع عددا كبيرا من البنات الفلاحات من قريتى والقرى المجاورة. ليشتركن فى عملية البناء.وابوزيد صلته بالفلاحين واسعة. عليه أن يقدم جانبا آخر من العمالة.ومجاهد وراشد،عليهما احضار مجموعات أخرى من سكان الحوارى. وأما على،فلديه عربة«داتسن» يؤجرها فى عمليات النقل ليحسن دخله المنخفض. هذه تستخدم فى نقل مواد البناء والانفار.

وتدخل راشد وفوزى ومجاهد. قالوا انهم كذلك سيقدمون عربات تقوم بنفس الغرض.واشترك خالد:

-يبدو أن بالجماعة،نفرا من الراسماليين !

ور دراشد:

- العربة التى سأقدمها، هى عربة الشركة التى أعمل بها. وهى شركة تابعة للدولة.

وعلق خالد:

-هذا عمل غير مشروع.

- انه اكثر مشروعية من استخدام تلك السيارات فى نقل السلع التى تنتجها الشركة الى بيوت رؤساء مجالس الادارة،وكبار الموظفين. السرقة هنا مزدوجة. منتجات تغتصب من الدولة، ووسائل نقل توصلها الى البيوت. رغم أن هذه البيوت مليئة.فاذا ما استخدمت السيارات لبناء مأوى للجماهير المشردة،فهذا أمر أكثر من مشروع.

واشترك مجاهد:

-أما أنا فمن حظى،أننى أعفيت مؤقتا من العمل اليدوى فى مصانع النسيج! وأعطيت الاشراف على وسائل النقل فى شركتنا، وهى شركة قطاع عام تملكها الدولة.ولما كانت الدولة مسئولة عن بناء مساكن لمواطنيها .ولما كانت لم تفعل. وقذفت بهم الى

القبور.فسوف استخدم اللوارى، المملوكة للشعب فى أداء واجب كان على الدولة القيام به.

كان صوفى حتى الان صامتا، الا أنه تكلم:

- من الواضح أننى سأقوم بالرسم الهندسى لتلك المبانى، وبالاشراف على بنائها، وسأبذل جهدى، لتكون اقتصادية، متينة، ويمكن بناؤها بسرعة.

وعقب خالد:

-أرجو ألا يكون التصميم لبيوت هذه المدينة، هو نفس تصميم« البيت الابدى »، الذى قدمته كمشروع فى امتحان البكالوريس!

ورد صوفى، قبل أن تنفجر المجموعة ضاحكة، فقد أعطاها خالد خلفيه عن «البيت الابدى»، قال: تبا للبيت الابدى وتب!

كان راشد على الرغم من عمله فى شركة الحديد والصلب، واكتسابه خبرة فيها، على معرفة بالنجارة، فقد كان أبوه نجاراً. قضى فترة صباه، يتدرب فى ورشته الصغيرة. لهذا تقدم لتحديد دوره:

-أما أنا فسأقوم بعمليتين: عملية الحديد وعملية النجارة والخشب.

وذكر فوزى المجموعة بمشكلة أساسية: التمويل. وكان لدى صاحبة الفكرة حل لهذه المشكلة. كل منا له مجموعاته وقطاعاته،واتصالاته بالجماهير. وعليه أن يجمع تبرعات منها. أما المعمارى صوفى،وهو رمز لهذه المأساة، فعليه أن يجمع الاشتراكات من سكان المقابر. وهم تعدوا الالوف الى الملايين.

وأحبت محبوبة أن تتخفف فقالت:

ـ سيكون هذا الجمع للاشتراكات دليلا على أن صوفى،قد هجر الى غير رجعة فلسفته الابدية.

ضحك الجميع.وطرب صوفى كثيرا. والتفت الى خالد قائلا:

ـ اهنئك على آختيار هذه المناضلة،التى تطفح ثورة وبهجة.

وأسرع خالد للرد:

-لاتهنئنى.فأنا جديد على الجماعة مثلك.هنىء مجاهد،وزملاءه. وشجع الاطراء محبوبة لتلقى بقفشة هادفة أخرى،توجهت بها الى خالد:

- لاتبتئس يا آبا الخلد. لقد لاحظت أنك الوحيد الذى لم تسهم بشىء فى عملية البناء. لابأس عليك. فأنت لست عاملا يدويا! فنحن ننعم بعملك العقلى فى تكويننا كثوار. ولكن لاترع.فلك عندى اسهام كبير .عليك يابطل جزء هام من التمويل:فلوس الأمم المتحدة!

ضحكة جماعية أخرى، زادت من الامل فى حل مشكلة التمويل.

استمر خالد يقهقه بعد تخافت ضحكات الاخرين،وقال لهم:

- الرمية التى رمتنى بها الزميلة قد أصابت جيبى فى مقتل ومع ذلك فسعادتى باقتراحها بالغة. الحق ان هذا أعظم عمل يمكن أن تنفق فيه أموال الامم المتحدة!

وعاد فوزى للحديث:

- لا تظنونى أثير المعوقات : أين الارض التى سنقيم عليها المبانى؟

ورد على عليه:

-هذه مسالة سهلة. الصحراء فسيحة.نترك مسافة صغيرة بعد مدينة الموت ونبنى مدينة الحياة.

وعقب خالد:

- هذا اسم جميل للمدينة. لكن هذه الارض مملوكة للدولة.

وأجابه على:

- الاستيلاء على أراضى الدولة،يجرى على قدم وساق. يقوم به «المقاولون»وغيرهم فى كل مكان على أرض مصر. يغتصبونها مجانا، أو بمقابل اسمى زهيد. يفعلون ذلك ليقيموا عليها العمائر الشاهقة. ويكونون منها الثروات الكبيرة.ويحرمون الكادحين من سكناها. هذه الارض هى أرض الجماهير وهى الاكثرية من الشعب. حرمانها منها بواسطة دولة القلة المستغلة. واغتصاب المقاولين وغيرهم لها ، عمل غير مشروع . واسترداد الجماهير لها يعتبر مشروعا.

- هذا كلام جميل.. لكن ماذا نفعل لو استخدمت الدولة الجند لمنع عملية البناء، وايقظت كلمة الجند فارس ليسهم فى الحديث:

- الحكومة لم تمنع الناس من البناء على الارض الزراعية. فهى

تغط فى نوم عميق أضاعت مساحات شاشعة من الارض الزراعية المحدودة. كانت تمد الناس بالغذاء. فهى لن تفطن إلى حركتنا فى البناء فى الصحراء.

واسهم صوفى فى المناقشة:

- ان التصميم الذى أفكر فيه ، تقوم مبانيه بسرعة . المنزل سيتكون من غرفة أو غرفتين . يبنى بالخشب أو الطوب الخفيف . يجب ان تكوم المواد البنائية فى بضعة أيام ونقيم جدران المبانى فى ايام أخر. وعلي كل حال ، فهذه منطقة نائية ، تجاور القبور ، واذا ماقام البناء، واحتل الناس المساكن ، فلا يستطيع احد اخراجهم منها.

كانت الحماسة للفكرة طاغية. جعلت الشباب فى المجموعة الثورية، لايعبأ كثيرا باعتبارات الأمن. ويهون كثيرا من شأن الحكومة. حذرهم المخضرمون، كمجاهد وخالد، من هذه الاستهانة: قوات الخصم شرسة، منبثة فى كل مكان، يجب الاحتراس منها.

العدد الكبير المشارك فى عملية البناء، والعربات واللوارى، لفتت نظر خفير من خفر المقابر. جاء يسأل عن هذه الحركة. أراد أن

يظهـر سلطتـه. حـاول ايقـاف البنـاء. أهمل بعض العـاملين أمـره. تحرشن به البعض الآخر لولا أن جاء مجاهد. قابله مقابلة صديقة. اظهـر له احـترامـا يليق بمـمثل السـلطة! هدأ من غـضـبـة اعـتـذر له. لكن الخـفير أصر على ايقاف العمل. والا فـأنه سيـبلغ السلطات. بذل مجاهد معه جهدا صبورا، قال له:

- نحن نبنى مساكن لأهلنا من سكان القبور.

- ماليش دعوة يابوى. أنا مسؤل هنا، وحتقطعوا عيشى.

- ياصاحبى، أنت لست مسئولا. مسئوليتك تنتهى فى حدود المقابر فقط. ونحن نبعد عن المقابر مئات الامتار.

- هذا عمل ضد الحكومة. ومن واجبى منعه.

فطن مـجـاهد الى أن مـشكلة الخوف من المسئوليـة قد حلت. واصـبح الموضوع واجبا عـامـا نحـو الحكومـة ! نقل الحديث معـه نقلة أخرى:

- اين تسكن يا أخى؟

- فى عشش الدمرداش!

- هذه العشش لا تختلف عن القبور التى يسكنها اخوتك من ابناء الشعب.

كلمات «العشش»، «والقبور» واخوتك ايقظت الخفير. وحركت اللعنات، التى يختزنها داخله، على العيشة البائسة، التى يعيشها مسكنا، وملبسا، وغذاء. رد على مجاهد ردا غير متوقع:

- طيب، ما هى أختى وجوزها وأولادها ساكنين فى «الجبانة».

- أهو احنا بقه بنبنى لهم مساكن.

وعده الخفير بأنه لن يبلغ السلطات. وبأنه سيقول لعائلة اخته ان تشترك فى البناء. ثم قدم له نصيحة مفيدة.:

- الحكومة ليس لها أمان يجب أن تقللوا عدد الناس والعربات وتبنوا بيتا بيتا، إلى أن تستكملوا المبانى.

نصيحة مفيده. رددها المحضرمون. لكن حماسة الشباب تجاهلتها،. اخذت عملية البناء تهدأ وتقوم البيوت بيتا بيتا.

- - - -

قررت المجموعة أن توطن أو لا سكان القبور الاكواخ. هؤلاء لهم اولوية! سكان القبور المتوسطة يحظون بلون من المسكن المريح اسهم ملاكها مع الدولة فى تشريد السكان الشعبيين مرتين: مرة حينما قذفت بهم الحكومة الى دنيا الموت. ومرة أخرى حين طردهم المتوسطون من قبورهم. سكان الفلل القبور، ينعمون بالترف فى دنيا الموت. لم يستطيعوا أن يرفلوا فيه فى دنيا الحياة!

استقامت الدور فى وقت قصير. بذل العاملون جهدا خارقا فى مهمة يؤمنون بها. عملية فذة من التكافل بين القوى العاملة. وبعث أول فوج من سكان القبور الى الحياة مرة أخرى. احتلوا مدينة الحياة.

استيقظت الدولة من غفوتها، على زغاريد الجماهير وأفراحها. احتفلت قوى التعمير بافتتاح المدينة. رقصت الصبايا والصبية. غنت النسوة . طبل الشيوخ وصفق الاطفال. اختفى من وجوههم شحوب الموت. انساب فيها ورد الحياة. أصوات الفرح تنبه رئيس العسس: أمر عجيب. الطبل والزغاريد تأتى من منطقة القبور.

كيف يبتهج المقبورون ويصخبون ؟ اكتشف عسسه أنه بجوار القبور، قامت دور يسكنها أحياء. متى قامت تلك البيوت، وكيف؟

طارت الانباء الى الحاكم استدعى كبير العسس. سأله غاضبا:

- ما هذا الكلام الفارغ؟ ماذا يحدث؟

- دور قامت. انتقل اليها نفر من سكان القبور.

- من الذى اقامها ؟

- لا أدرى.. جاءتنى التقارير اليوم.

- يعنى أنت آخر من يعلم.. هذا عمل منظم. وخطورته تأتى من تنظيمه. أن لم تأتنى بالفاعلين، فانت مطرود.

ذهب كبير العس الى مدينة الحياة، ليستقصى الامر بنفسه. كان منظر الاهالى ينهضون من القبور يسعد الضمير الحى. ويثلج الصدر النقى. لكن كبير العسس لا يكون سعيدا الا فى دولة تسلم جماهيرها للموت قبل الاوان. لهذا لم يثره هذا المشهد الرائع. حاول أن يسأل الناس: من الذى بنى هذه الدور. وكان الجواب البدهى نحن الذين بنيناها.

عاد الى الحاكم صاغر الروح بادره .

- من الذى بنى الدور؟

وأجاب وزير العسس:

- سكان القبور، ياسيدى.

صرخ الحاكم صرخة مدوية. تطاير من فمه زبد كثيف. جزع كبير العسس. انكمش جسده المتكور. انطلقت الكلمات من فم الوالى، كدانات تطلقها مدفعية ثقيلة:

- أنت نايم كبير الخفر. كيف أكون ولى هذا البلد، وشعبى يبنى المساكن، ويهجر القبور، دون علمى؟

عين الحاكم كبيرا للخفر جديدا. توسم ما كان فى المعزول من طاعة ونفاق.

لكنه يتصف كذلك بقدر من الخسة، لم تكن متوفرة بنفس الدرجة فى زميله السابق.

- - - -

أحدث بناء مدينة الحياة، المشرفة على دنيا الموت، شكوكا وتساؤلات فى ذهن الحاكم.

«الشعب يبنى قرية لسكان القبور وسكان القبور الاكواخ بصفة خاصة. لا يمكن تبرير هذا العمل، بالقول بانه تعمير. فالتعمير والتخريب هو من عمل السلطة. الناس قاموا بالبناء، بعيدا عن أعين الحكومة. هذا يشجعهم على مزيد من حرية العمل والاستغناء عنها. ماداموا يستطيعون القيام بجلائل الاعمال، ستتدنى مكانتنا عندهم.

«الغريب أن يتم هذا العمل بتنظيم، لا عهد للبلد به. من هم المنظمون حقا أن من قيم القرية، أن يعاون الناس بعضهم بعضا فى الشدائد. لكن ليس بهذا الجهد والتنظيم».

كيف يستشعر الحاكم الخطر من حركة للبناء؟ أنه يطلق على الجماعات التى تعترض على حكم القلة المترفة« الجماعات الهدامة» لماذا يخاف من جماعة تبنى ولاتهدم؟ ولماذا يكون من الضرورى أن تكون هناك جماعة وراء هذا الانجاز؟ هل يخشى الحكام الجماهير، ويحسون الخطر من حركتهم حتى لو كانت للبناء؟

يبدو أن بناء مدينة الحياة كان انذارا للوالى بوجود جماعة« هدامة».لكنه تقبل الوضع فى صمت وتفكير وتدبير. لم يستطع أن يهدم المبانى لكنه حاصرها ومدينة الموت بعسكره.

بعد بناء مدينة الحياة ساد البلد صمت مريب. الهدوء يخفى فى أحشائه قوى تعمل فى الظلام. الحاكم يطلق جيشا سريا بقيادة رئيس عسسه الجديد. يبثه فى كل ركن. المجموعة الثورية أعادت تنظيم تجمعاتها. خشيت أن يكتشف الخليفة احدى حلقاتها، فيبطش بالحركة، وهى لا تزال يافعة.

اطمأن الحاكم. هناك جيش سفلى رهيب يحميه وجيش علوى يثير الرعب بين الناس. «دولة المؤسسات»، التى صنعها تقوم سامقة. و«حكم القانون» يسنه اتباعه كل يوم فى البرلمان. اعتقد أن الريح تهب عليه رخاء. تلمظت شفتاه الرماديتان تحت شاربه الكث. يستقبلونه فى مجلس الـ ٩ر٩٩٪ بحفاوة بالغة، هناك يجتمع جامعو الثروة من كدح الجماهير. يصفقون له تصفيقا حادا، يصم الاذان. تسلط الاضواء الباهرة، وعدسات التليفزيون على «الزعيم» يتقدم الى منصات الخطابة بخطوات امبراطورية. الفرحة تستشرى فى أعطافه: «ألم أقل لك أن الحاكم الذكى، حتى لو لم يكن عملاقا، أول الامر، يمكنه أن يسيطر على الشعب، ويصبح عملاقا. الله يرحمك يا زميلى الراحل..

- - - -

- ١٢ -

لكن الريح الرخاء قد تنقلب عاصفة. لا يهم أن تكون العاصفة هوجاء أو عاتية. من شأن العاصفة أن تهز المجتمع ومؤسساته. وهى فى حالتنا، انهت البهجة التى نعم الحاكم بها.

نصحه «الخواجات» الاجانب، و«الخواجات» الوزراء، الذين عزلهم الترف عن جموع الشعب الكادحة، بأن يرفع ثمن الخبز. فالبلد فقير. والموارد لا تكفى للانفاق على الادارة المدنية، وعلى العسس، وعلى بذخ الخليفة وحاشيته. لابد من ايراد جديد. لا يجدون بندا ينعش ميزانية الدولة غير رغيف الخبز. الناس جميعا يستهلكون الخبز. الضريبة عليه حصيلتها كبيرة. هى وحدها يمكنها انقاذ اقتصاد البلد المنهار!

استجاب الرئيس لكلام الخبراء فى تجويع الشعوب. أصدر قرارا برفع سعر الرغيف . هبت جموع الشعب ثائرة على هذا العمل. انتفضت الجماهير مستنكره قرار الرجل المترف، ومستشاريه الشباعى. كانت الانتفاضة تلقائية من ناحية: الجائع تنتزع لقمة العيش من فمه. يدافع عنها غريزيا. يحاول استردادها من خاطفها. أن لم يستطع هجم عليه، وقاتله.

ماذا يصنع الناس لاظهار سخطهم؟ ليس من سبيل الا الهجوم على منازل الاغنيـــاء، الناهبين لارزاقـــهم. وكـــذلك منازل الذين أصدروا القرارات، بحرمان الشعب من خبز يومه. اشعلوا النار فيها. حطموا متاجر القلة المستغلة. التى تتجر فى اقواتهم وتكون الثروات الحرام منها. أتلفوا العربات الفارهة لهذه الطبقة.

امتنع العساكر عن اطلاق الرصاص على الجماهير. فهم جزء منهم. سعر الخبز المرتفع، سوف يجوع معه أبناؤهم واخواتهم. استشرى العنف. احرقت الاوتوبيسات العامة.

تقدمت الجماهير تهاجم الاستراحة الامبراطورية للحاكم. المطلة على النيل العظيم فى أسوان. سمع فى جلسة العصارى، وعلى كركرة الجوزة، زمجرة الجماهير الغاضبة. وهتافهم بسقوطه. وسقوط نظامه. نقله اتباعه الى القاهرة بالطائرة. زحفت الجماهير كذلك، على قصره المنيف المطل على النيل فى الجيزة.

لم تكن الهبة تلقائية تماما. كيف يمكن أن تكون كذلك. وقد اندلعت فى مدن البلاد من الاسكندرية الى أسوان. لابد أن تكون الجماعات الثورية قد مست الجماهير، بلمساتها الفكرية

والتنظيمية. كانت تلك الجماعات قد انبثت فى المصانع، والثكنات والقرى والحوارى والجامعات. وكان الاتصال بالجماهير مكلفا به على وأبو زيد .

على ثورة عارمة، تمشى على الارض. وأبو زيد مثال حى لشباب الفلاحين فى الثلاثين من عمره.كان ملما بقدر من القراءة مكنه من الاطلاع على سيرة ابطال الفولكور الشعبى: ابو زيد الهلالى، عنترة ، الزير سالم ادهم الشرقاوى. تشبه بهم فى مشيته وسلوكه. لم يكن تشبهه بهم سطحيا . كان ينجد الملهوف. وينصف المظلوم من ظالمه، مهما بلغ شأن الظالم. ينتصر للضعيف. ويقول الحق ولو كان مرا .

عندما انضم الى المجموعة الديمقراطية، كان مكانه فيها أن يتزعم شباب الفلاحين. كان قدوة فى السلوك الرجولى، والخلق الاصيل. وغدا شعله لا تهمد. هذبت الفلسفة السياسية للجماعة من غلواء البطولات الفردية فى سلوكه. وصقل الحوار الذى يدور بين أعضائها تفكيره. لكن وهج البطولات الفردية ظل يلتمع فى وجدانه زمانا طويلا .

فى اتصالات سريعة مع زملائهما، صبيحة انتفاضة الخبز، أبلغ على وأبو زيد بقية الجماعة أنهما سيشتركان مع الجماهير، فى يوم الذود عن الرغيف. حاول بعض الاعضاء أن يثبطاهما، دون جدوى. ما كان لعلى وأبو زيد أن يتخليا عن الجماهير. لم يستطيعا الصبر، وانتظار قرار من الجماعة. الاحداث يركض بعضها أثر بعض. اذا لم يضربا اليوم، ويسهما مع الجماهير فى هبتها، متى سيحققان حلمها، وينتقمان من خصوم الشعب. صالا فى هذين اليومين وجالا. دمرا ما شاءا من ملكية الطبقة المستغلة.

وقبض عليهما فيمن قبض عليه من المنتفضين لحماية الرغيف. سيق الثائرون للمحاكمة. تصدى للدفاع عنهم خالد وزملاؤه المحامون، من لجنة الدفاع عن الحريات، التى شكلتها نقابة المحامين. انقلبت المحاكمة الى محاكمة للنظام. كان دفاع المحامين عن الثوار دفاعا قويا ساخنا. لكنه كان دفاعا تقليديا. يركز على تبرئة المتهمين. الدفاع المثير حقا قام به على وأبو زيد:

قال على: أن القضاة المبجلين هنا يحاكمون أناسا، لاشأن لهم بالجريمة التى وقعت فى ١٨و١٩ يناير. فالمجرمون الحقيقيون يجلسون فى مقاعد الحكم. خطفوا رغيف الخبز من افواه الجماهير،

فانتفض هؤلاء لاسترداده. وهذا أمر طبيعى. وحق لهم تفرضه الحياة والقوانين الانسانية فى كل مكان. ايها القضاه: أن استطعتم أن تأتوا بالمجرمين الحقيقيين، لتحاكموهم، فستثبتون شموخ القضاء المصرى، الذى كان دائما عظيما. وأن لم تستطيعوا، فأرجو أن تفضوا هذه المحاكمة. فهى غير ذات موضوع. الفاعلون الاصليون للجريمة غائبون عنها!

وكان دفاع أبو زيد أكثر بساطة، واشد وقعا: إن الابطال الذين يقفون أمامكم فى الاقفاص، يجب ألا يقتصر الاتهام عليهم. يجب أن تحضروا الى هذه القاعة الخمسة وأربعين مليونا، الذين يكونون الشعب المصرى. فهم الذين هبوا للدفاع عن رغيفهم. وذلك اذا اردتم أن تكون المحاكمة واقعية. ولكى يسود العدل، يجب آن يستثنى منهم، ومن المحاكمة، تلك القلة المترفة التى اصدرت قرارات انتزاع اللقمة من أفواه الملايين الجائعة!

- - - -

-١٣-

أنزعج الحاكم من« هبة الخبز» انزعاجا شديدا. الجبهة الداخلية

ليست سهلة كما تصورها. جاءت الجماهير الى قصوره واستراحاته. نغصت عليه حياته. اسمعته هديرها بسقوطه. عكرت عليه جو الترف. قطعت صوت الجوزة، التى تشنف كركرتها أذنيه. ويهوم فى دخانها. ويعبق صدره بأنفاسها. اخطر من ذلك أنها زعزعت جدران الملك. ازداد هلعه عندما رأى أن العساكر والقوى السفلية، لم تجده نفعا. لم تضرب الجماهير. هذه القوى، التى خالها فى يده، اخترقتها الجماهير. ودوى صوتها يقرع اذنية ويرجف اوصاله.

اشتد وجله عندما استمرت الحركة مشتعلة طوال يومين. وأن الجماهير لو اكتمل تنظيمها، لوقعت الواقعة. لكن الرجل لا ييأس: « هذه حركة تلقائية هوجاء. قام بها شباب ساذج. انضم اليهم المخربون والحاقدون. وتلك قلة يجب استئصالها، قبل أن تستشرى جراثيمها الى جسد المجتمع كله. الملك وارف الظلال. وسيبقى وارفا ».

لابد من مراجعة فلسفتى فى «الحرية»، وفى سياسة الحكم. يجب تغيير التكتيك. الاستراتيجية معروفة خطوطها العامة

واهـــدافـهـــا: أن احـتـــفـــظ بعـرش هـذا البلـد الطيـب الـرخى، الـــذى اجـلـسـنـى الله عليـــــه. واصـــــدر القـــوانين والقــــرارات «القـراقوشة» التالية:

- الحـديث فى النظام الاقـتـصـادى السـيـاسى القـائم، أو فى الشـقـاءات التى يعـانيـهـا الاهالى، يعـتـبـر حـقـدا طبـقـيـا، عـقـوبتـة الاشـغـال الشـاقـة. هذا النظام وضـعـه الاجـداد، وسـيـبـقى كـمـا هو للابناء والاحفاد. سنسلمه لهم لم تمسسه يد التغيير.

- حظر الاجتماع بين اثنين أو اكثر الذى فرضناه سابقا، لم يمنع المخـــربين فى ١٨و١٩ يناير من القـيـــام بالشـغـب. يجب أن يخطر اجتماع الانسان مع نفسه. ذلك أن النفس امارة بالسوء.

- لايجوز أن يسير فى الشارع أكثر من اثنين معا. والا اعتبر تجمهرا يعاقب بالسجن. ويعفى من تلك العقوبة من يثبت بأن من يسير معه احد افراد اسرته.

- لوزير الداخلية ورجاله، أن يشكوا فى أى انسان، مهما كان شريفا. ويفاجئوه بأنه مشتبه فيه. ويودعوه فى مكان أمين. وليس هناك أكثر أمنا من السجن أو المعتقل.

ومع كل هذا لم يستشعر الحاكم الأمان، لابد كذلك من اجراءات« ديمقراطية» اغلبية الـ ٩٩٫٩٪، التى يملكها انصارى لاتريحنى. يجب أن تعالج لدعم النظام.

هذه الاغلبية الساحقة، ما هى مكوناتها؟ جزء منها موظفون: هؤلاء يمكن كسبهم بالترقيات والبدلات. والأجور الاضافية، وامتيازات فى السكن والسيارات والتليفونات.

جزء ثان: العمال والفلاحون. وماهم بعمال ولا فلاحين. لاجرم اننى أدين بهذه الفكرة الفذة لعبد الناصر اراد أن يكسب نظامه مظهرا اجتماعيا اسماه تارة بالديمقراطية الحقيقية. وتارة أخرى بالاشتراكية. وقرر أن يمثل العمال والفلاحون بـ ٥٠٪ من مقاعد مجلس الأمة.

لكنه منح« ممثلى العمال والفلاحين فى المجلس، شققا فاخرة تطل على النيل، وعربات منسابه، ومكافات سخية بث الترف فى بعضهم. عزلهم عن الطبقة التى ينتمون اليها. ما يهمنى أن ولاءهم للنظام اشتد. هذا عمل رائع ياسلفى العظيم، أدين به اليك.

أما المالكون الكبار والمتوسطون والمصرفيون والمقاولون

والسماسرة، فهؤلاء أحبابى. هم اركان النظام، فليعفوا من الضرائب، وليكونوا من الثروات ما شاءوا. ولتفتح لهم الابواب على مصاريعها لكى يقودوا مصر الى الرخاء.

- - - -

حينما بث الخليفة الرشوة والامتيارات بين انصاره ليضمن ولاءهم، لم يكن يدرك تماما أنها ستصبح فلسفة النظام كله. اصبح انصاره جميعا روادا فى هذا المجال : انتشر خراب الذمم ، والفساد. وشاع الاثراء الحرام، أصبح الذى يثرى بسرعة هو الاكثر ذكاء. بل الاكثر ولاء للنظام.

ركب أهله الموجة: زوجته جميلة ذكية، قوية الشخصية. « واثقة الخطو، تمشى ملكا ». واعية بشئون المجتمع. أخذت فى تكوين حاشيتها ومستشاريها. جمعت دائرة ضيقة من الابناء، والاصهار والاقارب كونت منهم النواة، التى تخطط للاثراء. يبدو أنها على دراية بالتخطيط العلمى .

ضمت المجموعة المتخصصين فى الزراعة، والمقاولات، والتجارة والسمسرة. انضم اليهم المتعاملون فى المخدرات، والمتجرون فى السوق السوداء فى العملة وغيرها. تخصص اخوة الحاكم فى هذه

النشاطات الأخيرة. وكان سكرتير الرئيس المسمى« بالشاب المعجزة» عضوا فى المجموعة يتعامل بالاشتراك مع الحاكم فى أخطر قطاع: توريد الاسلحة للجيش. احتكرت هذه المجموعة ارزاق الشعب، فاتجرت فيها. جاءت بسلع فاسدة، أستهلكها الشعب. لانه لايجد غيرها. اكل الناس دجاجا ميتا، ولحما عفنا، وسمنا مسموما. استوردت السلع الترفية، لتكفل للدوائر المحظوظة ترفا فوق ترفها، ولتضخم من ارباحها. تركت السلع الاساسية اللازمة للاستهلاك الجماهيرى ولتنمية المصانع والمزارع. فكسدت الصناعة، وضعف الانتاج الزراعى.

تراكمت الارباح. لكن الملايين التى تجمعت، يجب الا تبقى فى البلد. أهلها سيستولون عليها حتما حينما يأتى يوم الخلاص. الثروات تحول للبنوك الاجنبية تشترى بها عقارات وضياع فى الخارج. بهذا تبقى فى مأمن من الجماهير الكادحة.

- - - -

\- ١٤ -

تسللت المجموعة الى الاكمة فرادى. استهل مجاهد الاجتماع بقوله:

- يجب أن نفيد من الدروس التى اعطتها الجماهير لنا حينما هبوا للدفاع عن رغيف الخبز. وتحدثت محبوبة:

- يؤسفنى أننى لم اشترك مع الجماهير فى انتفاضتها، ضد الذين يأكلون الجاتوه! ويمنعون الخبز عن الناس. فأنا فلاحة، وبنت. وقد كانت الحركة فى المدن وقفا على الرجال.

فوزى: حصيلة اليومين المشهودين مرضية ورائعة. حطمنا جانبا كبيرا من ملكية الطبقة المستغلة.

مجاهد: كنت أظن أن على وأبو زيد فحسب هما اللذان اشتركا فى الحركة. لكن يبدو أن الاغلبية اسهمت أنا اطرح الموضوع. ولست معارضا أو مؤيدا.

خالد: الواقع أن أى سهام فى حركة للجماهير، يجب أن يكون بقرار تنظيمى الجماعه فى بداية حياتها. يجب المحافظة عليها. الى أن تنضج الظروف الموضوعية للقيام بالحركة الشعبيه.

محبوبة: من المسائل التى تحيرنى هذه الجملة« تنضج الظروف الموضوعية» يادكتور خالد. أنا « محوشه خمسة جنيهات لاشترى جلابية. سأعطيهم لك اذا شرحت لى معناها!

قفشة من قفشات محبوبة، اضحكت المجتمعين.

تردد خالد، أستاذ الجامعة، ثم خاطبها.

- مـاذا أقـول لـك يا آنسـة مـحـبـوبـة المـوضـوع طـويل. ويحتاج لمحاضرة.

وردت عليه:

- اعمل معروف أعد المحاضرة بسرعة.

واشترك على :

- المسألة ليست مسألة أكاديمية. يجب أن يكون مفهوما أنها قضية أساسية هل نسهم مع الشعب فى هباته، أو نتقاعس؟ دعنى أسـأل سـؤالا صـريحا هـل كـان لى أنـا وابـو زيـد وفـوزى والزملاء الاخـرين . أن نشـترك مع الشـعب فى انتـفاضـتـه ، أو ننـتظر قرار الجماعة.

مـجـاهد: نحن لا نحـاسب أحدا. أننا ندرس فـحـسب. ، ونتـفق على العمل السليم.

أبو زيد: السؤال هو : هل يمكن أن ينعزل الثورى عن الجماهير. ويقف للتفرج عليهم، وهم ينافحون عن رغيفهم؟

فارس: سوف تفقد الجماهير ثقتها فى أى ثورى أو قائد، لايسهم معها فى نضالها. ولن تستمع لحديثه ولمبادئه. الاقناع عن طريق السلوك هو الحاسم فى هذا المجال.

سكت فارس لحظة. ثم بدا، وكانه يلقى أمام الجماعة باعتراف:

- أنا آسف. لم أسهم مع القوى الشعبية فى غضبتها. ولما كانت الجماعة لم تصدر قرارا بالاشتراك، اعتقدت أنها تفضل عدم الاشتراك. على اننى لدى اعتراف مخجل: لم يكن ذلك هو السبب فى عدم اشتراكى. قد يكون. السبب هو أننا فى الجيش عندنا «الجراية»، أو الخبز، وفيرة. كذلك خفت على الجماعة، لو قبضوا على بالملابس العسكرية. وقبل أن يهاجمنى الزملاء، هانذا أعترف:

ورد مجاهد:

- لا بأس عليك.

كانت أغلبية المجموعة مع الاشتراك فى يومى الخبز، باستثناء خالد، الذى كان له رأى مخالف ومجاهد، الذى اتخذ موقفا حياديا. ومضى خالد يصر على وجهة نظرة.

- انتم ترون كيف انتهت الحركة: قتل عدد كبير من الشباب. جرح كثير من الناس. خربت دور ومحلات عدة. وأسوأ من ذلك، سيطرت قوى البطش على البلد. واعتقلت مئات من الشباب. واطفأت بصيص الحرية الذى كانت قد منحته للشعب.

صرخ أبو زيد فى وجه خالد- على غير عادته- صرخة من صرخاته القديمة، احمرت عيناه واهتز شاربه. لو كان« الصقر واقف عليه» فى تلك اللحظة لطار وقال :

- لماذا هذه الخشية من أن يموت الشباب ويجرح؟ الثورات والحركات الشعبية ضد الظالمين، كان وقودها الشباب فى كل مكان. قال لنا الدكتور خالد ذلك فى محاضراته .

واعترض خالد:

- أرجو ألا نتنابذ بالالقاب!

- حاضر ، يارفيقنا.

وضحك الجميع. واسهمت الضحكة فى أن يهدأ أبو زيد- ويتوقف اهتزاز شاربه ويقول:

- الدور والمحلات التى هوجمت، لا تقارن بهدم آلاف الدور وقذف الناس فى القبور...

وهنا فطن المجتمعون إلى غياب صوفى. وقال لهم خالد، أنه سيحدثهم عنه فيما بعد . وتحدث فورزى:

- قوى البطش والطغيان، يا أستاذنا خالد..

ضحكة جماعية مرة أخرى.. علق عليها فوزى.

- لا تضحكوا. فهو استاذى. ولا أستطيع مخاطبته الا هكذا . حتى ولو لم يكن ذلك ثوريا!.

ورد خالد:

- أمرى لله ياسى فوزى..

وواصل فوزى:

- قوى البطش والطغيان. موجودة فى مصر، من قديم الزمان .. فهى ليست أمرا جديدا. والحريات. هل تصدق أن هناك بصيصا من الحريات كما تقول؟

لم يمنع ذلك كله خالد من أن يواصل:

- وماذا تقولون فى المحافظة على الجماعة، الى أن تقوى، ثم تقود الحركة الديمقراطية.

رد راشد على هذه الملاحظة.

ـ لا يمكن أن تعزل حركة ثورية نفسها عن الجماهير. ان العمل العلنى مع الجماهير موضوع أساسى في العمل الثورى.

وعقب خالد:

ـ أخشى ما أخشاه، أن تطغى الحماسة على سلوكنا، فنقوم بعمل أهوج. ويغتال شبابنا برصاص القهر. وتبتذل انسانيتهم فى مهانة السجن والاعتقال.

وطمأنه على

ـ لا تخشى الاعتقال ، فنحن رجال، أما أن يسقط شبابنا فداء للوطن، وبناء نظام اجتماعى، لا يستغل فيه الانسان، ولا يقهر. فهذا جزاء جميل، لابد للمناضل أن يسعد به. ومعركة الشعب فى الذود عن رغيفة، ليست عملا أهوج.

حينما بلغ الحوار أجله في هذه النقطة، غيرت محبوبة من مجراه، وسألت خالد:

ـ ماذا حدث لصوفى؟

وأجاب خالد:

ـ اعتقل.

ـ لكنك ، وزملاءك المحامين الاحرار، دافعتم عن المقبوض

عليهم في انتفاضة الخبز، وحكمت الحكمة ببراءتهم.

ـ صوفى معتقل من نوع خاص.

ـ لا أفهم.

ـ اعتقلته مملكة «المقاولون». جمع صوفي عددا كبيرا من العاملين فى «المقاولين» وأهاب بهم أن يسهموا فى هبة الخبز. قال لهم: كيف تتركون زملاءكم من أبناء الشعب. يناضلون وحدهم ضد المتجرين فى أرزاقهم، والسالبين لرغيف الخبز من أفواههم. كيف تبنون العمارات الباسقات، الناطحات للسماء، وأهلوكم، وبنو وطنكم، يقذف بهم فى الجحور والقبور؟

هاج العمال. كانت كلمات صوفى شهبا فجرت مافيهم من طاقة. نزلوا الى الشارع. كانوا على وعى كبير. كان يعلمون أن «المقاولون» شركة بين الدولة وبين الاباطرة. تركوا الشركة الأم. اما شركات الباطن. فهى خاصة، دمر جانب كبير منها. اختفى بعد اليوم الاول من انتفاضة الرغيف. وجاءنى واحد من مجموعته الى منزلى، يخبرنى بما حدث....

ركبت أبوزيد عنجهية أبطال الفولكلور، وقال:

ـ لابد أن نبحث عنه، وننقذه. فاذا لم نستطع، علينا أن

نختطف واحدا من كبار «المقاولون» ونحتفظ به كرهينة ، الى أن يطلقوا سراح صوفى.

انزعج خالد من هذه النعرة «الهلالية»، التى مازالت تراود أبوزيد، وقال:

ـ أرجو أن نحكم العقل، ياعم أبوزيد . فنحن مثلا، لم نهجم على قسم البوليس لنطلق سراحك أنت وعلى، حينما قبض عليكما.

وتساءل مجاهد:

ـ أين اختفى؟ هل قبض عليه البوليس؟

ورد خالد:

ـ الحقيقة، أنا لا أعلم..

واقترح راشد:

ـ علينا أن نبحث عنه فى «المقاولون»

ـ دنيا «المقاولون» شاسعة.. ١٢٠ شركة يرأسها كبير المقاولون وأفراد أسرته وانصاره.

راشد: مهما كان الامر، لابد من البحث عن صوفى.

محمبوبة : هل يمكن أن تعتقله «المقاولون» ؟ أهى دولة داخل الدولة؟

خالد: دولة المقاولون لها مؤسساتها الاقتصادية والسياسية. وهى تستخدم الوزراء السابقين والحاليين، واللاحقين! وتضرب بجذورها فى أرجاء النظام وتسهم فى رسم مساره. لها أجهزتها الخاصة بالاعلام والمباحث والمخابرات. والاخيره متصله بمخابرات الدولة والدول الصديقة والشقيقة. ألا تذكرون موضوع التجسس لحساب اسرائيل . الذى اتهم فيه قريب أحد المقاولين الكبار؟

أبوزيد : هذا يجعل مهمة انقاذه صعبة وعاجلة.

خالد: هذا ما يجب عمله. ولكن بخطى متعقلة. هل تكلفنى المجموعة بهذه المهمة؟ سوف استعين بزميل صوفى، الذى اتفق معى على أن يزورنى غدا.

وافقت الجماعة.

- - - -

كانت هبة الخبز، وملحمة الفساد، قد جعلتا أصدقاء الاكمة يهجرونها لفترة طويله. لم تعد المجموعة تجتمع فيها بانتظام. وبدا أنها لم تحفل كثيرا بغيبة تلك المجموعة. ان أشواقها، ولواعجها لعروسيها الشابين. اللذين طالما تهاديا على غدرانها. وطالما خصفت الاشجار عليهما أوراقها.

ظهر العروسان للروضة من بعيد. تهامس سعف النخيل. توشوشت وريقات الكافور. صدحت موسيقى الطير. لكن ما أن دخل العروسان الدوحة، حتى توقفت الحياة فيها! استقامت أعطاف الاشجار. لم تعد تتثنى. تلاشى الهمس والوشوشة. وسكن الطير.

تساءلت محبوبة:

- ماذا حدث لفردوسنا؟

أجاب على:

- أخاله غاضبا منا.

- كيف، وهو مرتع هوانا، ومأوى ثورتنا؟

ـ هـجـرنـاه، فلـم يعـد يرحب بنا. الاشـجـار «تـتـقل» علينا، عتابا لنا.

ـ هل سيطول العتاب؟

ـ لا أعتقد.

هب النسـيم. تمايلت الاشـجار. دبت الحركة فى الطير، فـرفـرف وغنى. تهلل العروسـان. تقدما الى الشـجرة، التى شهدت لقاءهما الاول، الذى كان عنيفا عفيفا.

صمت العاشقان الثائران. ماذا يدور فى أعـماقهمـا؟ فى القلب لوعة الحب، ووقدة الثورة. معان ثقيلة تضطرب فيه.

بماذا يبدآن اللقاء؟ فى العيـون تختلط لغة الغرام، بعزم شديد على تحرير الوطن من حكم الظالمين. هذه محبوبة. صدرها السخى ينتفض. تعصف به رغبة جارفه في عناق الانسـان، الذي شبت منذ صغرها علي حبه. انها تتمنى لو تستنيم فى أحضانه. فتنفض عن نفسها متاعب وأدرانا، علقت بجسدها وروحها فى الحقبة الماضية. الحرارة المتوقدة فى شفتيها تهيب بها أن تقبله، وتتوه عن الوجود. وتهدهد مشاعر شحذتها الاحداث.

لكن كـيف أحـضنه وأقـبله، وأنعم بالغـرام، وأهلى جـوعى؟ الفسـاد يستشرى. والغيلان تنهب قوت الناس.عرق الناس وعملهم يتحولان الي ثروات حرام. تستمتع بها طبقة لا تعمل. طبقة تفرض البؤس على بنى وطنى. لا . لا. لا. لن أقبل عليا ولن أعانقه!.

دارت فى أعماق على رحى معركة قاسية كذلك. لكنها كانت أقل قـوة. هل احسـاس الرجل بالجنس أقـوى من المرأة؟ أم أن عليـا قد نضج رجوليا، بدرجة أكبر من نضوج الانوثة فى مكاسب. فـهو فى الثامنة والعشرين، وهى فى الثامنة عشرة. الانوثة والرجولة، ليست فورانا فى الانثى . وعضلات فـى الرجل. ليست سنا كبيرة فى فـرد، وصـغيـرة فى آخر. لكنـها احسـاس بالرجـولة، أو الانوثة، يتدفق في العروق. هل يعطى العقل لهذا الاحـسـاس لمسة واعـيـة، تضطرم بها العلاقة الجنسيه بين الرجل والمرأة؟

ربما تكون هموم على الاجتماعـيـة أقل من هموم محبوبة. هذه فتاة فلاحة عاملة. تشويها نار الاستغلال والبؤس. وعلى مهما كان ثوريا، فـهو «مهندس زراعى» ينعم بشئ من الراحة الاجتماعيـة. هل اثر ذلك على شعوره، فاشتط الجنس فى دمه أكثر مما فعل بها

طال السكوت بين الحبيبين. تاهت الغادة الريفيـة فى شقاءاتها .

تململ علي. مد ذراعه ليحيط بها . سكتت. لكن النار المتقدة في كيانه ، لا تلطف منها هذه الحركة . حاول تقبيلها. تمنعت، وهي الراغبة فيه. ترفض قبلته، وشفاهها عطشى. شققها الحرمان، والمعيشة الجافة. ما كان أحب الى قلبها أن تروى شفتيها من نبع الحب العذب. ومن مذاقه السكر. لكن كيف تنعم وأهلها يشقون؟ كيف تلهو، والحكومة والفقر يفعلان أفاعيلهما في قومها؟

أسقط في يد علي أو قل اسقط في ذراعه الملفوفه حولها. دب في جسده نوع من النمل. أخذ يأكل عاطفته المشبوبه شيئا فشيئا. قلبه منكمش . يغوص في داخله يحس بضرباته الموجعة.. ماذا دها المحبوبة؟؟ ألم تعد تهتم بي؟ هذه أول مرة ترفض شفتي.. ويخبو وهج العاطفة في عينيها. أين ذهبت نظرات الحب، والوجد والثورة؟ وساءل نفسه سؤالا غريبا:

هل العلاقة بينك وبين محبوبة علاقة رجل بانثى، ام علاقة ثوري بثورية العلاقاتان معا. بل انها علاقة واحدة مندمجه. أنا انسان حرم علي المجتمع أن أفرغ غريزتي حلالا، أوحراما. على الرغم من جموح الغريزة، فطن علي الى معنى جعله يخجل من نفسه.. كيف يكون أول لقاء معها، بعد الاحداث الجسام، التي

اجتاحت البلد، لقاء غرام وغريزة؟ البنت الفلاحة تلقنك درسا، لابد أن تعيه. قال لها:

ـ ماذا جرى؟ انت لست معى.

ـ ها أنا بجوارك. وذراعك ملفوفة حولى.

ـ انما قلبك ليس معى.

ـ ياه . هل هذا هو التعليم الذى حصلت عليه؟

ـ أنت اليوم شديدة على.

ـ أبدا.

فطن للهموم، التى جعلتها تتمنع، لما أراد تقبيلها. قال لها:

ـ أنـا آسـف يا مـحـبـوبـة . أرجـو أن تعـذرينى . فـراقنا طال. وبرح بى الشـوق.وأنا انسـان.الجسـد والروح،لابد لهـمـا من غـذاء يقتاتان به.

ـ أنا لا ألومك. الحق أننى «عطشـانه» الى قبلتك كم وددت لو تـروى شفتـاك الريانتـان شفتـاى المشققتـين . ولكنـهـا الاحداث يا على.

ـ اننى أشعر بخجل مصدره أننى أتلقى درسا من بنت وأنا رجل . ومن تلميذه وأنا الاستاذ.

ـ هذا كلام «برجوازى» ياباشمهندس!

ولما وجد علي أن محبوبة فى سبيل أعطائه درسا آخر، أراد أن يحول الحديث:

ـ الله الله. هل عرفت معنى البرجوازية؟

ـ امتحان هذا؟ البرجوازى ـ ببساطة أهل الريف ـ هو كل انسان لا ينتمى لطبقة العمال والفلاحين.

ـ يابنت ؟ طيب، والعمال ، والفلاحين، لو كنت شاطرة؟

ـ العمال، هم الذين يعملون بأيديهم. ويأخذون عن عملهم أجرا. يدفعه لهم رأسمالى ، نظير عملهم عنده.

وخشى على أن تسترسل محبوبة، لتعرض لما يسمى بالعمل العقلى ـ وتتناول المهندسين والمحامين، والكتاب، وغيرهم. فتخرجه من دائرة العمل الكادح. وهو لا يقبل ذلك. انه أفنى عمره لكى ينتسب الى المناضلين الكادحين. انها فى أحسن حالاتها

العقلية. يبدو أن الاحداث قد شحذت عقلها، وستكسب أى نقاش معه. أسرع بالقول:

- والفلاحون؟

- الفلاحون موضوع طويل. لكن باختصار، هناك فريق يعمل في الارض بأجر. وهؤلاء هم العمال الزراعيون + وفريق يملك قطعا صغيرة من الأرش او يستأجرها. ويفلحها بيديه. وهؤلاء لا يفترقون كثيرا عن العمال. ثم هناك الملاك المتوسطون، والكبار وهؤلاء هم البرجوازية الزراعية.

لم يخف على اعجابه بتلميذته، فصاح جذلا:

- «ايه الحاجات الحلوه دى» ..

- تعليمك يا استاذ.

- يظهر أن التلميذة ستغلب الاستاذ.

كان علي قد تعهد محبوبة، تعهدا ثوريا. فقدم لها نشرات وكتيبات ثورية. ثم بسط لها مصطلحاتها. وقد تقدم وعيها كثيرا. وساعد المامها الجيد بالقراءة والكتابة على هذا التقدم.

كان يعلم، أن الحديث الثورى يرفع من معنوياتها. ويزيد

الاشراق فى عـينيهـا. تندمج فـيـه بكيـانهـا كله. انه اخطأ اذ بدأ اللقاء بدءا غراميا. يستطيع أن يفتح قلبها بالحديث عن المظالم، وعن التخلص من مجتمع الاستغلال.

اقبلت عليه. وأقبل عليها. ومض بريق العاطفة المزدوجة، الحب والثورة، فى مقلتيها مرة أخرى.

الشـمس تتـهـادى الى الأفق. تنذثر بحلة من الشـفق الوردى، والغمام البرتقالى. تنعكس تلك الالوان فى عينى محبوبه، وتلهب خـدودهـا: آن الآوان لاكـافىء حـبـيـبـى واكـافىء نفس. وتاها فى قبله طويلة.

- - - -

-١٦-

لك الله ياصوفى.. أين ذهبـوا بك. بذل خـالد والشـاب زمـيل صـوفى جـهـدا كـبـيـرا للعـثـور عليـه. ذهب الجـهـد هبـاء. مملكة «المقـاولون» شـاسـعـة. تمتـد من أسـوان الى الاسكندرية. فى كل محـافظة ومركز وقـرية، لها أراضـيـهـا وعـمـائرها ومـسـتـعـمـراتـهـا. امتدت مظلتها لتغطى الاراضى الزراعية. الموجهون للمملكة على

وعى اجتماعى كبير يعلمون أن شعب مصر كله فى حاجة الى أمرين أساسين : الاسكان والغذاء.

الاسكان، ضرب المقاولون فى أساساته، وارتفعوا الى سماواته. عمائرهم وفيلاتهم «اللوكس» تطل على النيل، والمتنزهات الفواحه فى المعادى والزمالك وجاردن سيتى ومصر الجديدة. أدوا الواجب عليهم. يعرضون شققها الفاخرة على ساكنى القبور والاكواخ. يحددون ثمنها بعشرات أو مئات الالاف من الجنيهات!

أما الغذاء فضربة معلم «ذكية. الشعب كله يأكل، أو يتطلع للاكل! احتكار هذا المجال يدر ملايين وملايين. الناس لابد أن يأكلوا خبزا وجبنا. أو دجاجا ولحما وسمكا. يبدو أن الزميلين كانا يفكران فى نفس الاتجاه. قال الثورى الشاب:

ـ كيف نبحث عن صوفى فى مملكة مترامية الاطراف؟ ففى كل ركن من دولة مصر توجد «يفطة» لهم.

ورد عليه خالد:

ـ انهم ينشطون كذلك فى الدول العربية. بهذا تتسع الدائرة التى سوف نبحث فيها . من المحيط الى الخليج!.

ـ لعلك تعلم أنهم قفزوا على «الامن الغذائى» وعلي الشويبس وعلى البنوك

ـ اذن ، المهمة صعبة، ماذا نصنع؟

فجأ الثورى الشاب، خالد، باقتراح لحل مشكلة صوفى:

ـ لن نجد صوفى، ولن يفرج عنه، الا بعمل جماعى

ـ كيف؟

ـ نقوم باضراب بين عمال المقاولون ومهندسيهم ونضطر الادارة الى الكشف عن مكانه، واطلاق سراحه.

ـ هذه مخاطرة أخرى. قد تؤدى الى مزيد من القبض على الشباب الثائر.

ـ هذا هو الحل الوحيد. واذا ما اعتبرنا أن العمل النقابى أو العمالى مخاطرة، فمتى سنشعل وعى العمال؟ هذه مشكلة خاصة بزميل لهم. وصوفى محبوب من كثير من عمال الشركة. اعتقل وهو يدعو الى الثورة على الخاطفين للرغيف من أفواه الناس. أنا واثق من استجابة العمال لهذا النداء لن تستطيع الدولة ولا دولة «المقاولون» أن تفعلا شيئا. هذه الانتفاضة مازالت تعصف بالمصابهم.

فى اليـوم التـالى قـرأ خـالد فى الجـرائد نبـا اضـراب عـمـال «المقاولون» عن العمل. تعطلت الرافعات والخافضات، والحافرات والطاحنات. ثم جاءه الثورى الشاب ينبئه بالخبر:

ـ لقد أعلنوا عن وجود صوفى بمستشفى «المقاولون»!.

ذهبـا لزيارته. وجـداه في غـرفـة خـاصـة فى «بدروم» . ارتاعـا لرؤيته. مـاذا صنعوا بك ياصوفى؟ لم يكن بقادر على الرد. فتكت به الذئاب البـشـرية. أعلنوا للعـمـال أنه أصيب فى يوم مظاهرات الخبز. وان «المقاولون» تعنى بأبنائها فوضعته فى رعاية خاصة!

كان خالد ينظر الى صوفى بعينين غائمتين، وعقل ممزق:

فى معتقل القلعة، اعتقلوه مع شباب منظمة الشباب فى عـهد عـبـد الناصـر، الذى أنشـأها. مـزقـوا وجـوه الشـبـاب. وسلخـوا ظهورهم. استمع الى أناتهم وعوائهم. ناقش الوحشية التى يمارسها الضبـاط على المعـتـقلين، مع واحد منهم، كـان تلمـيـذا له بكليـة الشـرطة. قـال لـه: انتم تمارسـون التـعـذيب، وكـأنه هواية رياضـيـة ممتـعـة. رد عليـه الضـابط بـأن هـذه حـرفـتنا. نلتـمـس منهـا مركزنا الاجتماعى!

معتقل البدروم فى مبنى محافظة الاسكندرية. اعتقلوه مع بعض زملائه حينما هبوا مع الطلبة، ضد الانجليز، فى النصف الثانى من الاربعينيات. عفن المكان وبوله، وبرازه، رائحة الحرية المسفوكة، والانسانية الممتهنة. ملأت انفه كان ذلك فى عهد الملك عام ١٩٤٨.

هذا زميله، وصديقه، ساكن المقبره الكوخ. المهندس المعمارى الممتاز صاحب الابتكار الشهير: «البيت الابدى» . الشاب الوسيم الذى خرب الحاكم عقله عندما رماه وأهله بين القبور. والذى ساوى بين الحياة والموت وهو فى عمر الورد. اغتالته الذئاب البشرية.

هل جنيت عليك ياصوفى؟ أنا لا أدرى ماذا فعلوا بك . لكنى أراك مشوه الوجه والاطراف تنظر الى، وكأنك لا ترانى. اتحدث اليك ولا تسمعنى. هل المقاولون هم الذين تعاملوا معك، بهراساتهم، وطاحناتهم؟ أم أنهم سلموك للقوى السفلية وأعاروهم هذه «الهراسات والطاحنات»؟

عندما تأكد الثائران أن زميلهما حى، اطمأنا بعض الشئ. لاحظ خالد أن الشورى الشاب لم يظهر على وجهه حزن لمرأى

صوفى، كما حزن هو. كان راضيا أن يلتقى بزميله حيا. وعندما ودعاه، شد على يديهما، أحس خالد بقوة الشباب ينبض فى يده، رغم أن ضمادا ثقيلا كان يحوط بمعصمه. شعر خالد بتصميم صوفى، الذى لا يتسرب اليه ضعف، على مواصلة النضال، ضد الطغمة التى تستغل الانسان، وتقذف به في القبور. وتمتهن آدميته فى السجون. ودعاه. قبلا وجهه فوق الشاش والضمادات.

- - - -

-١٧-

استرخى الوالى فى مقصورته البلورية، التى تلامسها مياه القناة وبحيرة التمساح . المقصورة امتداد لاستراحة اسطورية. اختار موقعها، وبناها له، كبير «المقاولون» . قطعة رائعة من الفن والبذخ والابهة. تنطلق فى حدائقها الغزلان الشاردة. التى تعاون الراعى على الشرود. حيث يكون مهموما بشئون الرعية! .. كان المقاول الكبير صفيا له وخليلا. لم يكن فحسب من ملوك الاثراء الذين تجمعوا حول سيدة السلطنة . ولم يكن كبيرا للمجموعة التى تبنى الامبراطورية الاقتصادية له وللحاكم وزوجه. ولكن صفيا وخليلا من نوع آخر.

الحاكم يصطفيه، ويتخذ منه جليسا. انه مشغوف بالثراء والعظمة. لاعظمة الزعامة فحسب ، ولكن العظمة التى تقوم على الدولار والذهب الرنان. كان يرى فى المقاول الاكبر صورته الاقتصادية. كان هذا يشبع ما فيه من توق للمجد والثروة. الثروة فى متناول يده طالما كان على مقربة من المقاول. فالعظمة التى يتلبسها ، عظمة شمولية .. المال أحد جوانبها الاساسية.

موقع الاستراحة بمقصورتها البلورية، لايقتصر على المنظر الطبيعى الخلاب بل ينبثق منه مجدان من أمجاده: هذه هى القناة التى عبرها جنود مصر لتحريرسيناء من البغاة وهى كذلك القناة التى افتتحها، قبل أن تتحرر الارض. كان حفل افتتاحها أكثر فخامة وابهة من حفل افتتاحها التاريخى الذى أقامه الخديو اسماعيل، تحف به امبراطورة فرنسا وملوك اوروبا. الوضع الدولى تغير: الان يحف بالحاكم الامريكيون.

ابتكر المقاول فكرة المقصورة البلورية. الموج الحانى «يوشوش» جدرانها. وحينما يتمطى الحاكم، منصتا لوشوشة الموج، يمكن للصفى أن ينفذ سياسته في جمع الثروة. القلم الذهبى الذى يوقع به الوالى قراراته لادارة الولاية، أصبح فى جيبه.

رسم المقاول المقصورة، وشيدها، وزخرفها. اختار لها ديكورا بلون السماء والماء. الطنافس والسجاجيد الفاخرة. الاضواء والثريات، زرقاء، باهته تنسجم مع لون الدخان «المحشى»، يصاعد من الجوزة عند العصارى، وفى ساعات الغسق. الجلسة تحبك عند الاصيل. منظر قرص الشمس يتلألأ فوق الماء. تكمله جمرات النار، تضوى فوق حجر الجوزة. اللوحة تقلب الحاكم الى سلطان!

- ما هو الصنف، الذي أعددته لنا الليلة، يابوعفن؟

يبتلع البانى للامبراطورية الاقتصادية الاهانه، ويتجاهلها ولكن المقاول العتويل يرد:

- الصنف الجديد، الذى سنستمتع به اليوم اسمه «اسرائيل» ياريس!

- جميل جدا، جميل .. لكن دعنا من اسرائيل الان. فهناك موضوع آخر يشغلنى . هؤلاء الافنديات، الذين حرضوا الناس يومى ١٨ و ١٩ يناير. وأطلقوا عليها «الانتفاضة الشعبية». وهى فى الواقع «انتفاضة الحرامية».

ورد الصفى:

ـ هذا موضوع أهوج. انتهى أمره. وها أنت ترى أن القضاء برأ المقبوض عليهم جميعا. وأطلق سراحهم.

ـ فكرتنى. اطلب لى وزير الداخلية.

ومن التليفون المباشر مع الوزير فى منزله قال السلطان:

ـ كيف تفرج عن المقبوض عليهم فى انتفاضة الحرامية؟

ـ القضاء برأهم يافندم

ـ قضاء ايه .. أنا مصدر القانون فانا فوقه. اقبض عليهم جميعا مرة أخرى. أودعهم مكانا «أمينا» فى السجون والمعتقلات!

وضع السلطان سماعة التليفون. وعاد الى دنيا الجوزة ليقول لجليسه:

ـ لا اكتمك ياعف... أن كلمة «اشتراكية» ، تحدث لى «عكننة» بالغة. وأود أن أضع شعار «الرخاء» بدلا منها. كان عبد الناصر يتخذ لنفسه شعارات ثلاثة: الاشتراكية والحرية،

والوحـدة . وطالما بقـيت هذه الشـعـارات، سـأبقى ظلاله. سـوف أمـحـوها جـمـيـعـا. «الاشـتـراكـيـة» الآن، فى خـبـر كـان .الغـيـت مؤسساتها السياسية: الاتحاد الاشتراكى، منظمة الشباب، معهد الدراسات الاشتراكية، والتنظيم الطليعى.

وهنا أراد الصـفى أن يسـهم برأيه فى الغـاء المؤسسات الاقتصادية، لولا أن السلطان أومأ اليه، بأنه لم يكمل حديثه بعد:

ـ وهذه هى فلسفتى الاقتصادية، لكشط الاشتراكية «وعليك أن تترجمها الى برنامج اقتصادى:

يقولون ان القطاع العام رمز «للاشتراكية»، التى طالما تفاخر بها سلفى. والحق أن قومى لايفقهون. فهذا التأميم للمصانع والمتاجر، لايعنى الاشتراكية من قريب أو بعيد. الصحيح أن الملكية انتقلت من أصحابها القدامى الى سلطة الدولة. أى الى الذين يسيرون تلك المشروعات. وهم رجال الحاكم القديم. وكلهم برجوازيون مثلى ومثله. وتذهب حصيلتها الى خزانه الدولة، التى يرأسها وزير برجوازى. وتنفق اموالها بأوامر تصدر من عبد الناصر فيما مضى. وتصدر منى الآن. فالحديث عن الاشتراكية هو نوع من « الضحك على الدقون ». الحقيقة أننى فى حيره. هل

كان سلفى جاداً فى اقامة اشتراكية حقيقة. أم كان بارعاً، اخفى أهدافه؟ ان كان المعنى الاخير هو قصده ، فقد كان عبقرياً . يملك بعض الخصائص التى أملكها .

سكت السلطان هنيهة، مكنت الصفى ان يسهم فى الحديث:

ـ دع القطاع العام لى.«اتذكر فخامتك قصة قطاع المقاولات، مع عبد الناصر ؟اراد تأميمه . فعقدت له المشكلات. حذرته من خطورة تأميمه . أصبح شركة بيننا ، كممثلين للرأسمالية، أو القطاع الخاص، وبين الحكومة. ثم ركبت شركاته فوق بعضها بعض، من الباطن «والظاهر». اصبحت الحكومة لاتفهم من أمر هذا القطاع شيئا. ولا تدرى مكاسبه من خسائره.

كان لابد للصفى أن يكافئ نفسه «بنفس»، بعد هذه اللمحة، التى ختمها بقوله:

ـ اطمئن، ياريس، سأطبق لك هذا «التكنيك» في القطاع العام. «سيب الحكاية دى على ».

ورد السلطان، وقد بدأت «الطاسة تسخن:

ـ لا ، أسيبها ازاى؟ لابد من اعطائك الاطارالنظرى والفكرى الذى يقودك

ـ تفضل ...

ـ .. وضع هذه الاموال تحت تصرفي، أمر طبيعي، لا نفق منها على متطلبات الحكم. كما أن هذه المشروعات تكفل الاغذية والملابس الرخيصة للشعب.

توقف السلطان هنا، لينصح الخليل:

ـ اقترح عليك ياعف، ان تتولى موضوع الامن الغذائي.

ابتسم الصفي ابتسامة عريضة، اخفت ما في وجهه من تجاعيد، وقال:

ـ يبدو أن هناك تواردا حميما في الخواطر، بين فخامتك وبيني. لقد ألفت لجنة، في «المقاولون»، لتدرس هذا الموضوع. وسأقدم تقريرها لسيادتك.

ـ برافو...

التفت السلطان الى صفيه متسائلا:

ـ أنا كنت «بقول ايه»؟

ـ كنت تتحدث عن تقديم المشروعات العامة الغذاء والملابس للناس.

ـ آه .. وتكون الفلسفة الرشيدة فى الحكم، ان تتحكم فى طعام الناس ولباسهم. ضيق عليهم، فيصبح حديث الشعب كله عن الغذاء والكساء. ولكن يجب أن تكون حصيفا. لاتدع التضييق يصل الى حد التذمر والتجمهر. بل قبل ذلك بخطوة. ثم أصدر اوامرك لمحلاتك التجارية والصناعية، لتزيد مبيعاتها. هنا يشعر الشعب بالراحة فى طعامه وكسائه . ويتحدث فى ذلك فترة من الزمن. وبهذا تكون الازمة والرخاء اسلحة طيعة فى حكم الجماهير.

وتدخل الصفى:

ـ الصفقات مع تلك المشروعات تكون من نصيب رجالنا..

ـ سأترك لك هذه التطبيقات.

سكت السلطان لحظة ثم واصل:

ـ لعلك رأيت معى أن هذه المشروعات لاتعنى الاشتراكية. وانها فى العلاقات الانتاجية القائمة، منظمات رأسمالية تماما. ومع ذلك فالاولاد الفلافيس، اللى عاملين تقدميين» يصفون هذه المشروعات بانها ملكيه عامة للشعب . وانها خطوة نحو الاشتراكية. والفضل

فى انشائها يرجع الى عبد الناصر. اذن هى عملية تنغيص لى. لهذا لابد من تشويه هذا القطاع ، واضعاف بالقوانين، والاغداق على القطاع الخاص.

وعقب الصديق:

ـ دع التشويه الاكبر لى سأجعل القطاع الخاص يزحف عليه، ويشترى شركاته ، ويجعله قميئا .

أراد الصفى ان يثبت للسلطان ان موهبته ليست اقتصادية فحسب . ولكنه على ادراك بالنفحات السياسية ، التى تصدر عنه . واراد بها اجتأث مالاشتراكية فقال :

من خبطاتك العبقرية، زرعك لبذور الجماعات الدينية فى الجامعات . لضرب الطلبة اليساريين . وقد قاموا بذلك ، لا باستخدام صحيح لكتاب الله ، ولكن بالمطاوى والجنازير واللحى . كذلك المشايخ الذين يشيعون افكارك فى التليفزيون بين الناس . ويعظونهم بالدين . افلحوا ان يلبسوا نساءنا الطرح ، انها تحجب عقولهم عن التقدم ، وعن الاهتمام بالقضايا الاجتماعية والسياسية وتجعل ميدانهن الوحيد ، المطبخ والسرير !

استلقى السلطان على قفاه . فى قهقهة عالية . وقال بصوت سلطانى:

ـ الله ... آنا لبست الرجالة الطرح كمان !

اشتركا فى ضحكة ثنائية . خشخشها « الحشيش» الضحكة «صحصحت» السلطان . قال كلاما ، يحتار المرء فى تفسيره: أهو أصيل ، أم طوباوى ، أم حشاشى؟ ولكنه لاينفى عن الرجل ، انه فى لحظات صفائة . تصفو نفسه . ليقول قولا محمودا . ساعد على هذا الصفاء ، أن العبء الذى كانت الاشتراكية تبهط به صدره، قد انزاح ... قال لصفيه :

أنا ، ياعف ، أود لبلدى ان تعيش فى بحبوحة. وأن يسكنوا فللا . وأن تطل الفلل على المنتزهات والحقول . وسوف أبدأ ببلدتى ميت أبو الكوم . ثم اعمم الرخاء على شعبى كله .

فوجئ الصفى بهذه الصحوه من جانب السلطان . كان يتوقع ان يتثاقل رأسه . ويغمض جفنيه ويستغرق في الغفوة التى تعقب جلسات الجوزة . النغمة الرقيقة التى تحدث بها السلطات . جعلته يستمع اليه مليا :

ـ واريدك . ياعف . وانت العقل الاقتصادى لبلدنا ، ان تشاركنى لتحقيق هذا الهدف .

ـ انا فى خدمة عظمتك ، انما هذا يتطلب اموالا طائلة ، لاتستطيع الدولة توفيرها .

ـ لاتخف من موضوع التمويل . انت تعرف ان الامريكيين اصدقائى . وهم أعنى دولة فى العالم . وسوف اعرض عليهم مشروعا لتنمية مصر ، وتحقيق رخائها ، يماثل مشروع مارشال الذى عمرت به امريكا اوربا ، بعد ان دمرتها الحرب العالمية الثانية .

الصفى متعاون تمامامع السلطان ، لكن بعض التساؤلات ظهرت فى عينيه ، اجابه السلطان عليها :

ـ لاتندهش ، فالامريكيون فى جيبى :رؤساؤهم ، ووزراء خارجيتهم اصدقائى ، صداقة شخصية ، وقد بدأت المحادثات معهم فى هذا الموضوع . أحيانا يتخذ الصفى موقف الناصح من سلطانه :

ـ لكن هل سيعطى الامريكيون دون ثمن ؟

ـ سأدفع لهم الثمن مهما بلغ ، فى سبيل رخاء شعبى. قواعد

عسكرية، تسهيلات، استثمارات، تحالف معهم ضد الاتحاد السوفيتى ،أى شئ .

الصفى واعر .قفزت الى ذهنه خواطر كثيرة. لكنه كبتها، ترك السلطان يسترسل .

ـ مورد آخر ، ياعفان، هو اننى قررت أن تكون حرب اكتوبر آخر الحروب.وهذا يعنى أن هذا الانفاق الكبير المسرف على القوات المسلحة ، والذى يلتهم ما يقرب من نصف الميزانية العامة للدولة ، يجب ان يخفض تخفيضا كبيرا . سوف نكون أصدقاء لاسرائيل وأمريكا، لسنا فى حاجة لهذا الانفاق الضخم على الاغراض العسكرية ، ونحول هذه الموارد للانفاق على التعمير بدلا من التدمير.

لم يتوقع الصفى ، أن يفجأه سلطانه بهذه المفاجأة ، لم يستطع ان يخفى الشكوك التى روادته :

ـ هذه فكرة طيبة ، جديرة ببطل السلام ، وهي نظرة وطنية مستنيرة ، لكن هل يقبل قادة الجيش ذلك ؟

انتفض السلطان ، وكانه يستنكر هذا السؤال :

ـ مـاذا جـرى لك ؟ أنا القـائد الاعلى للقـوات المسلحـة . هل يستطيع احد الاعتراض .

ثم فطن الى أن الصـفى علي مـعـرفـة بالقـوى المسـيطرة في الجيش. فخفض نوعا من صوته :

ـ « دول أولادى » ياعفان . ينفذون ما أقوله تماما .

قـضت هذه الصـحـوة على تأثيـر الدخـان المحشـو . اخذ الجليس يعد الجوزة مرة أخرى القاعدة ان تحمى الجلسة ، حتى تحـمر عينا السلطان ، ويتكور جفناه . ثم يستسلم لغغـوته، التى تفصل بين جلسة الأصيل ، وبين السهرة . لم نكن ندري ما الذي دفع الخليل الي استئناف كركرة الجوزة مرة أخرى ، اهو واجبه المعتاد ؟ أم أنه خـشى أن يمضـى السلطان فى برنامـجة لرخا ء شعبـه . فـيضـيف بنودا أخـرى ، تتـمـاثـل ومـشـروع مـارشـال لمصـر ، وتخـفـيض الجـيش وميزانيته.

وعندمـا تأكـد أن الجـوزة احـدثت اثرها اراد ان ينسـحب على اطراف اصـابعـه ، حـتى ينعم السلطان« بالتـعـسـيلة » التى تعـود عليها. لكن السلطان فتح عينيه فجأة ، وقال لصفيه:

انتظر ، لم يختتم الحديث بعد : ... بهذا يكون مجد من أمجاد عبد الناصر وهو الاشتراكية قد خبا ، تركه الصفى ، ليستأنف غفوته . عاد بعد نصف ساعة ليجده يقظان، وذكره بصلاة العشاء.. فرد عليه :

ـ والمغرب راح ؟ أنا أزعل جدا لو فاتنى المغرب .

ـ امتدت بنا جلسة العصارى وغطت المغربية .

ـ لا . لا . ياعفان . لاتنسى صلاة المغرب .

ـ هل أقطع جلسة « العصارى » والسلطنة ؟ـ

ـ لا. لا. تقطعها . ولكن تصرف ! .

ـ ألا نبرم فى مصالح العباد ، وشئون السلطنة فى هذه الجلسة؟ هذا نوع من العبادة .

ـ اذا كان الأمر كذلك أوافقك .

سكت السلطان هنيهة ، ثم قال ، وكأنه تذكر شيئا :

هل التليفزيون موجود؟

ـ موجود يافخامتك فى غرفة الاستقبال.

ـ دعهم يحضرون إلى هنا.

ـ من هم ؟

ـ مصورو التليفزيون ، ليصوروا صلاة العشاء .

فطن الصفى ، بأن مدة النصف ساعة لم تنه الشعور بالسلطنة .فقال مبتسما: التليفزيون ، لايحضر الى مقصورة الالهام !

ـ ولم ؟

ـ لأن ادوات الالهام مقدسة .يجب ألا يراها أحد .

ـ معك حق ، ياعف ... طيب نصلى اليوم دون تليفزيون ...

فى النصف ساعة الفائته ، كانت المقصورة أخذت زخرفها.وبدت فى مسوح جديدة .أبعدت الجوزة وأدواتها. وفرشت مصلة مخملية ، طرزت عليها بخيوط حريرية سميكة صورة الكعبة المشرفة. السلطان يتوضأ. خادم يتشح بقفطان مزخرف ، بآيات من كتاب الله ، يصب عليه الماء من ابريق من فضة وزبرجد ، فى طشط فضى ، موشى برسوم ذهبية . صلى السلطان العشاء. كان هو الامام، وكان سميره هو المأموم ! .

بعد الصلاة ، حمل الخادم المصلى بعيدا ، بدأت الترتيبات تعد للسهرة ، مناضد وقوارير ، واكواب من بلور ، واستبرق ، اوانى بها ثلج مجروش ، وفى شكل قوالب. «مزات» مختلفة الوانها " الكافيار ، والسالمون، والمعاجين المختلفه .. من روسيا وفرنسا وانجلترا . والطورشى من الحسين والمش من ميت أبو الكوم .!

عندما انتهى السلطان من استغفاراته وتسبيحاته، التى تلى الصلاة، نظر الى المنضدة،فلم ير الصهباء،وسأل الصفى:

- أين القارورة الذهبية؟

- لقد جئت بالقارورة الفضية: «الفودكا».

- ما الذى جرى لك؟انت نسيت أن «الفودكا» مشروب النهار. فليس له رائحة ولونه كالماء المصفى. لاتظهر كخمر. هذا البلد الذى ينتجها ،وهو الاتحاد السوفيتى بلد عظيم..ياخسارة: اتعس ماأنتجه هذا الشعب هو الشيوعية!

- لاتؤاخذنى. اختلط الامر علىّ.

- انت معذور. طول اليوم غرقان فى خلط الزلط رالاسمنت والرمل. فصعدت المونة الى رأسك!

- لاتنس أن هذه المونة هى التى تشيد الامبراطورية!

- طبعا. كيف أنسى،وجوزتنا دائما «مونة»!

أسرع صديق السلطان باصدار تعليماته الى الخدم ليحضروا زجاجات الويسكى. وهو المشروب الذى يفضله السلطان،حينما يجن الليل.خارج المقصورة تبرق قطرات اللجين التى يسكبها القمر الساجى على صفحة البحيرة. وداخلها تتقطر الصهباء فى الكؤوس ذهبا مصفىء.

- - - -

- ١٨ -

كان القبض مرة ثانية على أبوزيد وعلى،وبقية الثائرين فى يومى الخبز، لطمة أصابت المجموعة المناضلة كلها.فى أى من المعتقلات الرهيبة،وضعوا معتقل القلعة؟ المعتقل المرعب الذى نزل به خالد.فى زنزانة انفرادية.سمع فيها عواء تلامذته فى منظمة الشباب.المعتقل الذى شوه فيه الانسان المصرى، منذ عهد محمد على. بناه يوم بنى مسجد القلعة الشهير بقبابة التركية الضخمة. بيت الله،الذى يكرم الانسان، يشهد هو ان الانسان بجواره

مباشرة. قام الى جوارهما قصر الجوهرة الفاخر،الدليل الحى على ابتزاز الحكام للانسان.انتصبت الرموز الثلاثة، التى يستخدمها الطغاه لاستغلال الشعوب،واستعبادها ،جنبا لجنب: الدين والثراء والقهر. هل يوجد زملاوءه هنا ،أم ذهبوا بهم الى طرة،وأبو زعبل،والواحات...

كيف يمكن الوصول اليهم؟ منظر القلعة من بعيد يثير الرعشة فى أوصاله. كيف يلقى صحبه شائهين؟ مازال منظر صوفى يقرح وجدانه .عنت له خاطرة: هل أستطيع أن استعين بضباط الشرطة من تلامذتى؟ فكرة فيها مخاطرة. ولكن صديقا له استاذا بالجامعة، شهما صعيديا ،كان ضابطا بالشرطة. اتصالاته بقيادتها جيدة. لماذا لايلجأ اليه. ويقول له ان له قريبين فى المعتقل يريد أن يعرف أخبارهما.

وبمعاونته علم أن أبوزيد فى معتقل القلعة. وهو بخير،وسيفرجون عنه قريبا .أما على فقصته معقدة. فقد قسم السلطان المعتقلين الى مثقفين،وغير مثقفين. واطلق على الفريق الأول «الافنديات».وترك الفريق الثانى فى المعتقلات القديمة.أما الفريق الأول،فقد وضعوا فى معتقلات أعدها

الامريكيون.المخابرات الامريكية المركزية،تقدم معونات فنية ومالية لاقامتها. فيها خبراء أجانب فى التعذيب،وتشويه عقول المعتقلين بالتكنولوجيا الحديثة.واكبر الظن أن عليا هناك.

- هل تعاوننى فى الوصول اليه؟

ذعر الصديق،وقال على الفور:

- هذا مستحيل. هذا مكان خطير. يديره الخواجات!

- أليست هناك وسيلة ولو لمعرفة أخباره. أحى هو أم ميت

فكر الرجل الشهم. يبدو انه كان حريصا على مساعدة صديقه.قال:

- فى هذا المعتقل ضابط قريبى. تذهب اليه فى منزله ،ولاتذهب الى المعتقل.والا أصبحت أنت والضابط فى خطر. أعطه هذا الخطاب.أعتقد أنه سيعاونك..

لم يشأ خالد أن يذهب بنفسه.أرسل اليه رسولا.تأمل الضابط وجه الزائر بانت فى عينيه خطورة المهمة.قال الرسول له:

- أود لو عاونتنى على رؤيته.

وأسرع الضابط بالقول:

- هذا مستحيل كل ما أستطيع أن أقدمه لك هو أن أحمل اليه رسالة منك شفوية، وآتى لك بالرد عليها.

- متى أحضر اليك؟

- غدا مساء.

- هل آتى الى المنزل؟

عاجله الضابط بالاجابة:

- لا.أسف. أنت تشرف. ولكننا قد نكون مراقبين.

- يراقبون الضباط أيضا؟

- يراقبون الضباط أولا.

تقابلا فى مكان آخر بالمدينة.وقال له الضابط:

- هذه هى رسالة قريبك على: أنا بخير. أطمئن.

سأل الرسول الضابط:

- هل هو بصحة جيدة

- نعم...

- هل عذبوه.

- لم يكن هذا السؤال ضمن الرسالة.

- أرجوك. أمه تريد الاطمئنان عليه..

تردد الضابط وقال:

- ماذا أقول لك؟.. المعتقلون جميعا يعذبون...

- حتى فى المعتقلات«التكنولوجية»،المستوردة من الولايات المتحدة الديمقراطية»؟

- انت ستغرقنا فى لجج،يجدر بنا أن نفلت منها.

- كما تحب. لاأريد أن تقول شيئا، لاترغب فى قوله.

- هناك فرق بين «الرغبة فى القول» والقهر فى الامتناع عنه.

- وانتم كذلك تقهرون؟

-أجل.

تحرك الرسول ليودعه.. عز على الضابط، ألايشريه بمعلوماته، قال له:

- التعذيب فى المعتقلات «التكنولوجية» ابشع

خالد يمشى الهوينى فى شارع من شوارع المدينة.يتجه الى مكان اختير لاجتماع المجموعة الثورية. الاحداث التى خاضها . المعتقلات التقليدية والتكنولوجية احدثت شرخا غائرا فى صدره،وطنينا متواصلا فى أذنيه. القصة الكاملة لاعتقاله فى القلعة .تعود اليه. معتقل القلعة يضم البطل أبوزيد،ابن محمد محمود الفلاح الذى كان يعيش فى المعتقل الاقطاعى،وسية الخواجه اليونانى. كل اولئك انحط بمعنوياته. التى كانت عالية دائما. تسلل الى نفسه لون من الاكتئاب،لم يذقه من قبل. عانى اكتئابا قديما ،وهو صبى وشاب كان يناضل ضد تجهيل الدولة له.علم نفسه الى أن تخرج فى الجامعة. تعرض لمهانة الاقطاع هو وزارعو الأرض،والجنود فى الجيش. لكن هذا الاكتئاب لم يتحول الى احباط.كان اكتئابا فرديا . ومن الحق،أنه حين اعتقل مع شباب منظمة الشباب عام ١٩٦٦ ، أصابه اكتئاب من نوع مختلف. كان اكتئابا عاما. وخيبة أمل فى عهد بأسره . ومع ذلك، فهذه الالوان من الاكتئاب لم تكن تعرقل قوى الثورة فيه.

الاكتئاب الذى يعانيه الان نقله نوعية جديدة، ليس مصدره الاعتقال والهوان الذى يشهده منصبا على زملائه ومواطنيه. فقد تعود على ذلك منذ عام ١٩٤٨.

أتكون السن هى التى جعلت الاكتئاب ينال من جسده وروحه. فلم يعد هذان قادرين على المقاومة ؟ انصرمت سنوات ثمان فحسب،منذ اعتقاله فى الستينات. انه مازال فى الخمسين. هل هو النصرالمبتورفى اكتوبر؟ وامتهان الاسرائيليين لكرامة وطنه فى سيناء،وكرامة قومه فى فلسطين والجولان؟ أيكون السبب اختفاء الاشتراكية والرجعة الى الوراء.والهرم الطفيلى الكبير الذى يرزح تحته الاقتصاد المصرى؟ أهو بذخ القلة وترفها،واستخفاف السلطان بالخمسين مليونا ؟أم هو الموات الذى يغشى الناس كأنهم لايحسون القهر والفقر؟

كان أخشى مايخشاه فى الماضى كلمة «اليأس» قاومها مرات كثيرة. انتصر عليها.لكن المعارك مع اليأس كانت فردية. كانت السن صغيرة،والانتصار على اليأس حلوا. أما الغمامة الكئيبة التى تغشاه الان فهى عامة.تسهم فى سمكها وقتامها قوى عارمة.

الشـــبـــاب المناضل من أجل الملايين يعـــتـــقل. الناس في غـيبوبة،كأنهم لايعيشون ولايدركون.لا.لا.كيف تقول ذلك؟ ألم يهب الناس هبة رجل واحد فى يومى الرغيف؟ إليس فى المعتقلات ابطال يتحملون أبشع ما يمكن أن يتحمله بشر، على يد القوى البربرية. الم يقل الرسول أن معنوياتهم مرتفعة، وتصميمهم على النضال قوى ماذا حدث لك أيها المناضل؟...استيقظت فيه قوى الثورة من جديد.

حينما استيقظ من الغفوة الكئيبة أنطلقت ساقاه فى خطوات ثابتة. عادت اليه الحياة مرة آخرى.ليتها ما عادت!.. ما أن شمخ برأسه،وتسامق قوامه- بعد انتصاره على قوى الاحباط- حتى صفعته «اللافتات» الموضوعة على المحلات التجارية «اللافتات» فى الستينات كانت قليلة. تقتصر على وكلاء الشركات الكبرى: مجبور شفرولية،ظاظا بيجو، مقارى كاديلات. العتريس فورد. لكنها تكاثرت، فأصبحت تغطى جميع المحلات التجارية: هذه محلات كهربيكو،واليكترونيكو،ومنى فاتوريتكو وأحواض غسيلكو . وانتقلت نقلة خطيرة،فغطت قطاعات اصيلة. نجد

لافتات شوهتها هجمة الانفتاح «السلطانية» فأصبحت الأسماء الاجنبية، تطلق على محلات : طعميتكو،وكوارعكو،وكشريكو!

كان يمكنه أن يتخفف، وينظر إلى الظاهرة، على أنها نوع من التقدم. لكنها اخترقت صدره، كبير الانفتاح لم يرد فحسب ان يثرى، وعشيرته، وتابعوه، وتابع التابعين الى يوم الدين. ولكنه آراد أن يشوه وجه مصر. ويطعن شعبها فى أعز ما يملك. لغته وتراثه وشخصيته. آراد الرجل أن يهيىء لعمليات الاستغلال الكبرى التى يضطلع بها انصاره المحليون وحلفاؤه الاجانب، خلفية ثقافية ونفسية مواتية.

كان خالد فخورا ببلاده فى الستينيات. اللافتات الوطنية تعلن عن البضائع المصرية . فى الوقت التى كانت افريقيا ، تغطى محلاتها وسماواتها الاعلانات من البضائع الاجنبية. مخالب الانفتاح تمتد لتمزق ثقافة مجتمع بأسره. وتخرب شخصيته وتاريخه.

تثاقلت خطاه الى أن وصل الى مكان الاجتماع. استقبله زملاؤه بحماس لم يتوقعه. كأن اعتقال على وأبو زيد لم سبب قلقا. حينما رأى هذه الوجوه الشابه، يشع منها بريق النضال ، هدأت

نفسه. بدت تنبلج من وجدانه نبضات من الامل. اشتد وجيب قلبه. حينما رأى صوفى بينهم. مازالت الكرابيج، التى جلده القهر بها، تحفر أخاديد فى وجهه وعنقه. أرادوا تشويه وجهه، فاذا بها تطرز وجها شابا . وتزيد ملامحه جلالا، وجمالا، وبطولة. اندفع خالد نحو صوفى يعانقه:

- أهلا بك يابطل.

- أهلا بك يا أستاذنا.

الجماعة تكسب رفيقا، وتخسر رفيقين. كان مجاهد وخالد، قد أخذا على عاتقهما أن يبذل كل منهما جهدا للبحث عن على وأبو زيد . قال مجاهد.

- يؤسفنى أننى لم أوفق . أرجو أن يكون خالد قد أصاب توفيقا أكبر.

قص لهم خالد الجهود التى بذلها وأن ابو زيد فى معتقل القلعه وعلى فى المعتقل التكنولوجى وأنهما بخير.

وهنا انتفضت محبوبة وافقة ، لتسأل:

- كيف حال على؟

أجابها خالد بنبرات تبعث على الاطمئنان:

- على بخير.

مكاسب يتخاذل جسدها ، وتجلس:

- هل رأيته؟

- لا.

- هل عذبوه؟

محبوبة زهرة ريف مصر الحلوة. تذبل وريقاتها اليانعة. يتيبس عودها المتأود.

تجف مقلتاها. يبهت الكحل فيهما.

أمضت وقتا عصيبا حينما اعتقلوا عليا للمرة الثانية. هى تعلم ، كيف تنهش الكلاب البشرية فى المعتقلات لحوم المعتقلين. ولا يدركون انهم ينهشون لحوم أبائهم واخوتهم وأهليهم. لا يعون أن هؤلاء الابطال يناضلون من أجل مجتمع عادل يعيشون هم فيه وابناؤهم كراما. هزل جسدها. ضمر صدرها. انطفأت عيناها اختفى منهما سحر الانوثة تخافت شعاع الثورة فيهما. لا.. شعاع الثورة مازال وامضا. أصبح يطلق شررا.

لم يستطع خالد أن يجيب علي سؤالها. عندما التقى بها أول مرة، تعانقت عيناهما. غاص العناق الى أعماقهما. ثم طاف بجسديهما . الغريزة الجمالية فى الانسان التى لا تقهر. لا تسطيع « القيم » أن تمنعها من الانطلاق والغوص ، والطواف بطبوغرافيا الجسد الانسانى. ارتد بصره حسيرا، عندما علم علاقتها بعلى. أعجب بنضال البنت الفلاحة، التى تسهم فى الثورة لاول مرة. لم يدر كيف يجيبها؟

وكان هناك صوفى لمعاونته:

- كيف تسألين هذا السؤال يا أختى. ألا ترين وجهى؟ أن الاخاديد التى ترينها فيه، هى عملية تجميل ثورية. زادت وجهى بهاء.

ردت عليه محبوبة وهى تحملق فى وجهه:

- عملية تجميل قام بها المتوحشون.

- أريد أن أتخفف معك. هل تسمحين لى؟

- تفضل.

- أنت لا تمثلين بالنسبة لهذه المجموعة زميلة مناضلة. نعرف

كفاحها ونعجب به. بل أنت كذلك نور يضيء لنا مكان الاجتماع. وينفذ اشراقه الى وجداننا. ويدفعنا للعمل.

وقاطعته:

- لو كان على هنا لضربك.

ضحكت الجماعة، وضحكت محبوبة معهم. اندفع الدم الى وجهها والورد الى خديها والكحل الى عينيها. انتهز صوفى عودتها للحياة، وقال:

- ما ترينه فى وجهى من فعل المتوحشين، جزء من فلسفتنا الجدليه .

ونظر الى خالد وقال له:

- مكش كده يادكتور خالد؟

- قلنا خالد بس..

- مش كدة يا خالد بس!

- كده يا « أبدى».

قهقهة أخرى ، كان لها فضل التخفيف من غيبة الغائبين.

واصل صوفى:

- هذه هى الجدلية: وجه وسيم .. تمزقة كرابيج القهر الاسود . تجمل الوجه وسامة الثورة.

صفق له الاعضاء . محبوبة أكثرهم تصفيقا . تحدث راشد.

- نحن نشكر خالد أن ضم الينا الاخ صوفى. هذه الهدية الابدية.

هذه المحادثة المتخففه أعدت أذهان المجموعة لحوار جاد. بدأه مجاهد.

- نرجو ألا تكون الوسائل البربرية التى تستخدم لتعذيب المعتقلين، أدت الى انتزاع اعترافات منهم.

وعلق خالد:

- ابو زيد قال لى: بعد اعتقاله فى المرة الثانية: لو جاءوا بكلاب القهر كلها، سنظل أسودا. وسيبقون كلابا.

وتساءل مجاهد:

- وعلى؟

انتفضت محبوبة واقفة لتقول:

- على سيد الرجال . أنا واثقة أنه كصوفى. ينظر الى الكرابيج، كقلادات ونياشين معلقة على جسده.

وقفز صوفى مضفقا:

- برافو . برافو.

وتساءل فارس :

- هل يمكن أنت تفعل الجماعة شيئا لانقادهما ؟

ورد فوزى:

أنا فى الحقيقة اسهمت فى غضبة الخبز. لكنى استطعت أن أهرب من السلطات. لم أشارك الابطال الأوسمة التى التفت على أجسادهم. دعونى اقترح أن نعد خطة لاختطاف هؤلاء الابطال .

واعترض راشد:

- كم كنت أود أن أشاركك حماسك. لولا أننا لا نريد مزيدا من المخاطرة ومزيدا من فقد أعضاء الجماعة.

وتدخل خالد:

- حتى لو افترضنا جدلا اننا نستطيع أن ننقذ مسجونا فى معتقل وطنى فمن المستحيل أن ننقذ أحدا من معتقل أجنبى. الكلاب الاجنبية ، أكثر شراسة وانحطاطا. أنا اتفق مع راشد. دعنا نخطو خطوات رشيدة.

وقال فارس:

- أنا لا ألوم فوزى على حماسه . ما العمل ؟ ليس هناك طريق للقانون ، فما هو البديل؟

واشترك مجاهد:

- البديل ، هو ما نعمل جميعا من آجله.انتقاضة الشعب لاسترداد سلطته وثروته. دعنا نفكر بعقل وروية فى المشكلة التى تبحثونها. وأود أن آخبركم بأننى اتصلت بمجموعتى أبو زيد وعلى. انهما تقادان قيادة لا تقل عن قيادة البطلين لهما.

-١٩-

مجلس السلطنه هذه المرة ، يعقد فى بيئة مختلفة تماما: على مشهد من النيل الخالد. جمع السلطان صفيه الاول. وصفيه

الثانى ، فى استراحة القناطر. هذه الاستراحة ميراث من الملك فاروق . استخدمها السلف والخلف. الفارق أن السلطان مسها بلمساته. فانقلبت من استراحة ملكية الى استراحة امبراطورية . لمساته نوعان: لمسات الترف والابهة. ثم اضافاته للمقصورات البلورية، التى تحبك فيها الانفاس المقصورة هنا يغلب عليها لون الغرين . هبة النيل العظيم التى اخصبت مصر. الغرين دراته من ذهب، تتوهج فى مخيلته ثراء وجمالا . وهو قريب من المادة الاولية. التى توضع بين جمرات الجوزة « . انما السد العالى وعبد الناصر الله يجر .. لا . بلاش ، الله يرحمه) منعاه عنا ».

تمدد السلطان فوق الأريكة« الغرينية » يرى النيل الخالد ، يتهادى من آسوان نهرا واحدا ، ثم ينشطر الى نهرين . تزخرفهما القناطر الخيرية التى بناها محمد على . المجد هنا له نكهة خاصة. يجمع بين الجغرافيا والتاريخ. «النيل» الخالق لمصر. جرى فى عهد الممالك جميعا ، منذ الفراعنة الى أن سلمت التركة لى- بعد أن اغتصبها عبد الناصر- مع أنى كنت رئيس الضباط الاحرار.. أحمد الله على نعمائه هذا هو النيل المقدس، يجرى من تحتى».. فى غير أوقات العصارى. يلجأ الى « البيب» المعمر .

ويتسلطن سلطة خفيفة ، حين يريد أن يبرم فى اعمال جسام.

الصفى الاول هو المقاول الاكبر، أما الصفى الثانى ، فهو يمثل الارستقراطية الزراعية. نظر السلطان الى صاحبيه. أصبحا عضوين فى الاسرة السلطانية تربطهما بها رابطة الدم الدم الذى نجم عن المصاهرة . هذه الرابطة من صنع سيدة السلطنه. ضربة« معلمة» جمعت بين مليارات المقاولات، وخبرات الوسية الزراعية . التى تمتد من أسوان الى الاسكندرية.

السلطان يتمدد على أريكته فى حضرة الصفيين. لا تكليف بينهم . دخان «البيب» يرسم سحابات دائريه ، تنفثها خياشيمه. قال لهما:

- جمعتكما لامر جلل . انا مقدم عليه . وددت أن أعرضه عليكما.

استمر يتمتم من خلال حلقات الدخان المطعم، الصاعد إلى نافوخه:

- لقد أرسل الله لى فى المنام هاتفا يقول: اذهب الى اسرائيل، وانقذ مصر، وفلسطين والعرب!.

نظر الرفيقان اليه مشدوهين: كلاهما واعر فى مجاله. المقاول عتويل: الخليفة ماض فى الخطه التى وضعاها سويا: التحالف مع امريكا واسرائيل. بذلك تصبح «الوسية» ذلولا. محروسة بأكبر قوة رأسمالية وعسكرية فى التاريخ لهذا صاح:

- بارك الله خطواتك يا ريس، والهمك فى اليقظة والمنام بهذه الافكار العبقرية. ظل الصفى الثانى صامتا. ولما لم يتهلل، كما تهلل زميله، سأله السلطان:

- ماذا تقول يا أبا السيد؟

- المفاجآة مذهله. ولابد لى من وقت ولو قصير لافكر فى هذا الامر الخطير.

- الحق أقول لكم، أن هذا الخاطر شغلنى لمدة طويلة، الى أن أوحى الله لى، ليلة الامس بأن أمضى فى سبيلى!

كان الصفى الثانى من كبار ملاك الاراضى. انحدر من أسرة اقطاعية. ومن الغريب أنه كان وزير الاصلاح الزراعى فى عهد السلف. ومازال يمثل الاقطاع المعدل الذى بقى بعد ١٩٥٢. الا أنه يحترم نفسه وعقله احتراما شديدا. ويحمل درجة علمية رفيعة. عاد للكلام:

- هذا الموضوع خطير. يجب دراسته دراسة متأنية. ولابد من خطة ذكية لتنفيذه . فالخصوم أقوياء ، اذكياء ما كرون تسندهم القوه الكبرى الأولى فى العالم.

رد عليه السلطان بثقة:

- لقد درست، واقتنعت ، وقررت. القوة الكبرى صديقتى. فلا تنظر الى الموضوع بهذه النظرة المتوجسه.

- القوى الكبرى حينما تتحالف مع الصغار تقتضيهم ثمنا فاحشا.

انتصب السلطان قاعدا. ضم ساقية . وقال:

- من قال لك اننا صغار؟ الامريكان فى جيبى! أرأيت الى كيسنجر يجرى ورائى فى رحلاته المكوكية، بين تل أبيب والقاهرة. فاذا لم يجدنى بالقاهرة يتابعنى الى أسوان والاسماعيلية وميت أبو الكوم!

- كيسنجر أمريكى « يهودى » يخدم مصالح بلاده وقومه.

- وأنا كذلك أخدم مصالح بلدى وأهلى.

- هذا أمر لاريب فيه. قصدت فقط أن تدخل سيادتك كل الاعتبارات فى حسابك.

تمــدد السلطـان مـرة أخـــرى ، وأخـذ يداعب« البــيب » من جديد وقال:

- يا أبا السـيد. أنت لم تدرس استـراتيـجيـة . كمـا درست أنا فى الكليـة الحربيـة. هناك قـوتان كبـريان فى العـالم.. الولايات المتـحـدة. وأنا أحبـهـا . وسأحـالفـهـا لا لانهـا أقـوى من الاتحـاد السوفيتى ، وهو القوة الثانية، فحسب فقد كنت سأتحالف معها ، حتى لو كـانت أضعف منه. اننى أتصـادق مع قـائدة الرأسـمـاليـة والاثراء فى العالم. وهذا هو حلمى ، وحلمك ، وحلم «عف» ! فى فلسفة هذا الحليف الغنى، الأرض ورأس المال ، ملك خاص للقلة. هذه القلة هى الصفـوة، التى تقـودها سيـدة السلطنة بمعاونتكمـا. مالى والاتحاد السوفيتى وشيوعيته. هناك يملكون الارض والمصانع والمتاجر للشعب كله.

ماذا يتبقى لنا ، لو وزعت الثرورة هذا التوزيع؟ لاشىء.

اسرع الصفى الثانى بالتأييد:

- لقـد رأيت سيـادتـك الغـوغـاء الذين قـادهم الشـيـوعيـون فى ١٨ و١٩ يناير.

وكيف أوشكوا أن يخربوا بيوتنا . كان اعتقالهم بعد أن برآهم

القضاء ، من أعظم قراراتك يا سيادة الرئيس.

- أهم من ذلك أننا لن نبقى قادة فى ظل هذا الحكم الشعبى. ستنبثق القيادة من صفوف الجماهير.

- ولكن الامريكيين ، وقد أعلنتم سيادتكم أن بيدهم ٩٩٪ من حل مشكلة الشرق الاوسط، أخشى أن يكون الثمن الذى يطلبونه قواعد عسكرية فى مصر.

ثنى السلطان ساقة مرة اخرى. ركن البيب على منضدة مطعمة بالعاج والفضة. ورد فى صوت حشرجته الجوزة:

- وما المانع من ذلك؟ ألم يعط عبد الناصر الروس قواعد فى بورسعيد ومرسى مطروح؟

تدخل الصفى الاول فى الحديث:

- هذا صحيح أنا نفسى كلفت لبدء اعمال المقاولات فى هذه القواعد.

تلمظ السلطان راضيا:

- قل لـ (سى السيد).

ووجد (سى السيد) لديه شجاعة كافية للقول:

- الاسطول الروسى ، حينما سمح له بالرسو فى بورسعيد ، كان ذلك جزءا من المعركة مع اسرائيل . كانت سماواتنا مفتوحة ، بعد هزيمة ١٩٦٧ ، فكان لابد من هذا العون الروسى. كنا بمساعدتهم ، نبنى القواعد اللازمة لصوايخ سام ، التى تحمى الدلتا من الطيران الاسرائيلى.

ورد السلطان عليه:

- يظهر أنك وقعت فريسة للدعاية الناصرية . آلم تكن وزيرا فى عهد عبد الناصر؟

بلع الجليس الثانى ريقه بصعوبة وقال:

- أنا أحاور فحسب. حتى تكون خطتنا للتحالف مع الامريكيين قوية- تخدم مصالحنا .

- القواعد العسكرية الامريكية ستحمينى وتحميك، وتحمى الامبراطورية، التى ينشنها« العف »! أنا أثق بأنك تؤمن بهذه الصداقة، بدرجة لا تقل عن ايماى بها. أمريكا تبارك الخطوات ، التى اتخذناها لكشط الاشتراكية، وتسعد كما تسعد أنت، بالتحول للرأسمالية الطليقة مرة آخرى. وبغير هذا التحالف هناك

خطر علينا. وقد كان من الممكن أن تنقلب« انتفاضة الحرامية» فى يناير، إلى ثورة تطيح بالحكم.

حين وصل الخليفة الى هذه النقطة، أريد وجه الصفى الثانى، وقال على الفور.

- اتفق مع فخامتك تماما. امض فى طريقك يباركك الله.

- هذا هو الكلام. دعنا الان ننظم فكرة اللقاء باليهود فى تل أبيب.

وجاء دور الصفى الاول للكلام:

- ثقتنا فى بعد نظرك لاحدود لها. أنا أثق أن لدى عظمتك خطة..

- لا تثريب عليك يا عفعف! أنا دبرت كل شىء.

وضغط السلطان على زر جرس فى متناول يده. جاء خادم مزركش الثياب، لدن الجسد، رائق الوجه. قال له السلطان مبتسما:

- ناد على أبو الحسن.

لم يفهم الخليلان من هو « أبو الحسن » الى أن دخل عليهما وعرفاه . حياه السلطان وهو مضطجع . والتفت اليهما ، وقال:

- أبو الحسن سيكون رسولنا . و الذى يمهد للمهمة وينظمها . سيطير الى الرباط فى المغرب، ليقابل الملك الحسن. لديه فكرة مسبقة . وعن طريق الملك الحسن ، ستتم كل الاتصالات مع اسرائيل.

دهش الصفى الثانى، بينما بقى« عفعف » راسخا كالعمود المسلح. لاحظ ذلك السلطان اللماح:

- يبدو يا أبا السيد ، أنك متخصص فى الاقطاع الزراعى فحسب.. الملك الحسن أهم مستشاريه من اليهود . ولديه جالية يهودية ، لها مراكز اقتصادية قوية بالمغرب. واتصالاته باسرائيل لا تنقطع.

- كنت أود أن أسأل فخامتك عن موقف العرب من هذده الخطوة الشجاعة- التى يباركها الله. فقد تحدث صدعا بين مصر وشقيقاتها . أما بعد سماعى عن وساطه الملك الحسن، فانى أسحب سؤالى.

- لا . لا تسحب سؤالك. سأجيبك عليه. أى عرب تقصد؟ الحكام أم الشعوب؟ أنا ليس لى شأن بالشعوب العربية. سلفى خلق لى وجع الدماغ» بحكاية القومية العربية. اعترف بأننى لا أستطيع أن انافس عبد الناصر فى تعلق الجماهير العربية به.

لكننى أزعم أننى أفهم تلك الجماهير، أكثر مما فهمها عبد الناصر. جماهير متخلفة يسوقها الكرباج . ويخدرها المشايخ والقسس ، انظر الى الخريطة العربية لتتبين كيف تحكم تلك الشعوب.

أما حكام العرب ، فان معظمهم أحبائى. يحكمون بلادهم بالقهر والتخلف ، وأنا أحكم بلادى بالديمقراطية وبالرخاء ، هما قريب! على كل حال الصلة بيننا حميمة ، تجمع بيننا الفلسفة الرأسمالية. وتظللنا المظلة الامريكية. من هو الحليف الاكبر لدول الخليج وغيرها من الدول العربية؟ انظمة رأسمالية متخلفة، تحتاج لحاميها الاكبر، الولايات المتحدة. مهما جعجعوا فى اذاعاتهم وصحفهم، أنا أعرف بحقيقة علاقاتهم بآمريكا.

ورد الخليل الارستقراطى العالم:

- طمأنك الله يا فخامتك. نحن لا ندين لك بحمايتنا فحسب، بل بتنويرنا كذلك!

رضى السلطان ، باجابة صفيه ، ثم قال بلهجة فيها معلمة:

اذا كان الامر« تنويرا »، فاعلم أن هذه الانظمة كلها متصلة باسرا ءيل الملك حسين ملك الاردن، يلتقى بالاسرائيليين سرا على الحدود. ملوك الخليج وأمراؤه شركاء لليهود فى مشروعاتهم فى كل كان يستثمرون أموالهم معا يضعون ثروة الشعب العربى، التى ابتزوها من البترول فى بنوك يهودية . ثم يصرخون بالقومية العربية وفلسطين . نفاق وكذب. لا يقدم مثلى عليه!

نظر السلطان الى صفيه نظرة الاستاذ وقال:

- أنا انفقت وقتا فى شرح الموضوع لك، لانى أريدك أن تخطط للعملية وتطلعنى أولا بأول على مقترحاتك .

كذلك ، عليك أن تذهب إلى شاوشيكو، رئيس رومانيا ، لتناقشه فى الخطوات العملية ، فله صلة بالموضوع.

- هذا شرف.

انتقل السلطان ليكمل تعليماته الى أبو الحسن.

- ستجد الملك الحسن فى انتظارك. لا تفض بشىء من الامر لاى انسان . احترس حتى لا تتشمم المخابرات الدولية شيئا عن خططى. وانت ملاتك بالمخابرات المركزية الامريكية قوية! «خلى بالك».

هبط السلطان فى اسرائيل . قامت الدنيا . ظهرت صوره والعناوين الضخمة التى تحمل اسمه فى كل مجلة وجريدة فى العالم. انشغلت الاذاعات والتليفزيون فى عرض الدنيا وطولها بالزيارة . لم تعد سعادته وحيا تنزل عليه فحسب . لكن مجدا طاغيا اكتسح الدنيا.

مزقت اتفاقية «كامب ديفيد» العرب. كما لم يتمزقوا من قبل. أطلق عليها القذافى«اصطبل داود» السلطان يقول: موضوع سينا مفروغ منه. الفلسطينيون، لهم الحق فى اقامة دولتهم . بيجين يرد عليه ، وهو واقف الى جواره ، بعد كل اجتماع:

سينا ليست آمرا مفروغا منه. أمن اسرائيل لا يمكن أن نفرط فيه قيد شعره، لا دولة فلسطينية . فقط مجلس محلى يديرون به شئونهم الادارية!

الزفة تنصب للاتفاقية ، ولبطل السلام فى التليفزيون والاداعه والجرائد. الجزء الاكبر من سينا ممنوع على الجنود المصريين . الجزء الاصغر ، عليه نفر من الجند هزيل اين السيادة المصرية على سيناء؟لا أحد يجيب. أجهزة السلطان مندمجة مع« شادية » وتردد معها« سينا رجعت تانى لينا » البهجة تغشى وجه «الزعيم » وبطانته. لا أحد يدرى أن كانت فرحته بكامب ديفيد، التى ستعيد سيناء أم لأنه قضى على الشعار الثانى من شعارات عبد الناصر: الوحدة العربية. بهذا يكون قد انهار شعاران: الاشتراكية والوحدة. وأما الحرية فلا أحد يصدق عبد الناصر وهو ينادى بها!

- - - -

-٢٠-

دقات متخافته على بابه. ذهب ليرى من الطارق. فوجىء : محبوبة. لاول مرة تزوره فى منزله . انتابه شعور بالاسى . الوجه الاسمر المطعم بالورد ، شحبت وجنتاه. الشعاعات فى العيون النجل تكسرت . لم تعد تضوى بالحياة والثورة . النبضات الضاربة فى صدرها ، غدت متهافته. دخلت الى الصالة، يتثاقل

خطوها. لم يعد خطو الغزال . القت بنفسها على أحد الكراسى فى الصالة . تنفست بصعوبة. ثم قالت:

- لم أستطع أن أقول لك صباح الخير.

- صباح النور!

- أرجو أن تغفر لى اقتحامى بيتك، دون موعد.

- نحن اخوة . ليس بيننا مواعيد.

- أشكرك . لم أجد ملاذا غيرك.

- يسعدنى أن تختارينى . وددت لو أكون عند حسن ظنك.

قدم لها شاى الصباح . شربا معا. عرض عليها افطارا ، فأبت. بعد أن استراحت بعض الشىء قالت:

- لم تسألنى عن سبب الزيارة.

- هل يسأل المرء، اذا ما جاء الى بيته، عن سبب مجيئه؟ نحن نتزامل فى أقدس مهمة: تحرير الانسان والوطن من الاستغلال والقهر. بيوتنا ومتاعنا مملوكة لنا ملكية جماعية. تماما كما نسعى لان يمتلك الشعب وسائل انتاجه ، ملكية عامة.

ـ لقد قلت لى أنت وعلى أن البيوت والمتاع ، أموال استهلاك لا تملك ملكية جماعية. بل يملكها الناس فرادى.

- لكننا نواة هذه الثورة ، وطليعتها . فلا باس ان نمتلك أدوات الاستهلاك جماعيا ونأخذ منها بقدر حاجتنا!

- أشكر لك هذا البدء المنعش . ولو أن المصيبة التى تلم بى ثقيله الوطء.

- لنبدآ بها على الفور.

صمتت الفتاة بان فى عينيها حزن دفين. وبعد فترة من الصمت اخذت تعرض عليه حالها:

- لقد طال اعتقال على يا خالد، أنت تعرف كم أحبه. غزا قلبى وهو مازال غضا، لا يقوى على الغزو. وعندما نضجت، استمسك به القلب والعقل. حبى له يختلف عن حب بنات جنسى. انهن يحببن قواما، وجمالا . وأنا أحب الى جانب ذلك فيه وجدانا ثوريا.

استراحت برهة. فقد كانت تلهث مع الكلمات.. ثم واصلت

- لا أخفى عليك ، يا خالد ، اننى لا آرى ثورة بغير على. قل

: هذا موقف غير ثورى. سمه ما تشاء. لكننى صحوت من طفولتى وصباى، على كلمات الثورة تتفجرمن فمه. فعشقت الثورة، وعشقت مصدرها فى الوقت نفسه. ويخيل الى أننى لن أستطيع التفرقة بينهما . لهفى عليك يا على.

استمع خالد الى الفتاة الثورية العاشقة بقلب مقسم. يرى فيها مصر كلها:

البنت الفلاحة ، ذات السمرة الخمرية ، والقوام المختال ، والروح الوثاب . يتمنى أن يرى صدور بنات الريف كلهن ، تمور بالثورة. وجد فيها النموذج ، الذى يتخيله لنساء مصر. كانت الفتاة بائسة حقا. ماذا يمكن أن يقدم لهذه الصبية الولهى؟ آساه على علىّ ، كان آسى على مناضل، طاقته الثورية لا تنضب. لكن الفتاة تعتبره قطعة من قلبها وثورتها معا.

وهبت نفسها للثورة. ولكنها بنت تحب، كبنات جنسها. هذا وضع طبيعى. الخطورة أنها تمزج بين حبها لعلى، وثورتها على الظلم. وجد خالد نفسه يهتم بها اهتماما خاصا: الفرحة بها مثالا للمناضلات فى ريف مصر. الاعجاب بتدخلاتها فى الحوار فى

لقاءات المجموعة . المجهود الذى قامت به لبناء مدينة الاحياء. الثقة التى وضعتها فيه دون بقية الرفاق. حضورها الى بيته. أغلى فتاة فى بلده جمالا وثورة.

تركته لحظات . ثم واصلت مكنونها:

- قلبى عليه، وهم يجلدونه ليعترف على التنظيم. أنا أثق أنه بطل. لكن خوفى هو أن يحقر من الناهشين للحمه فيزداد تعذيبهم له استعارا. اننى انتفض من نومى ليلا، يا خالد ، وأنا أصرخ. كأن الكرابيج تلهب جسدى.

ورد عليها خالد:

- لا تخافى. اصدقائى سيوصون بمعاملته معاملة حسنة.

لم تكن محبوبة من السذاجة، لتصدق هذا الكلام.

ومع ذلك تعلقت بهذه« القشة» وهدأت نفسها قليلا.

انتهز خالد فرصة هدوئها، ليدلى بدلوه. بدأ بالمسائل الخفيفة. اذا ظفر باستماعها اليه ، يمكن أن يتسلل الى المسائل المعقدة.

- دعينى أشكرك أولا على أنك أوليتنى هذه الثقة.

واسعدتنى بهذا اللقاء وأسمحى لى أن أقول لك، بانك درة بين بنات مصر. اقول ذلك، لا لأمدحك ، ولكن لاقرر حقيقة اسعدتنى. فأنت نموذج لم أكن أتوقعه فى بلادنا.

كان خالد يتفرس وجهها. ليقف على وقع كلماته عليها. لمح خيوطا من الورد تشق وجهها الى خديها. اطمأن الى أن مقدمته مقبولة لديها. يمكنه أن يمضى قدما:

- وفتاة حباها المجتمع بهذا الوجدان الثورى . يتوقع الناس منها صلابة فى نضالها ضد الفواجع. كانت الفواجع عاطفية أم ثورية.

اشرقت فى عينيها شعاعات، بدأت تمسح الذبول الذى اعتراهما. وقالت له:

- اشكرك على شعورك الرقيق. أنت انسان عطوف. على اننى ارجو الا تكون حلولك كلها مجاملات . قلت لك: أن فاجعتى عاطفية ثورية معا. الجانبان مندمجان تماما.

- حينما يخاطب الانسان زميلة ثورية تختفى المجاملات. ولما كانت مشكلتك مزدوجة أرجو أن تعاونينى على حلها.

سكت لحظة ثم واصل:

- ما قصدت اليه أنك، وأنت ثورية، تتميزين بصلابة أكبر من البنات غير الثوريات.

- فى دنيــا الحب والقلوب الجــريحــة ، ليس هناك فــارق بين الثوريات وغير الثوريات.

كــانت هناك فــوارق بين خــالد ومــحــبــوبة : فى التــعليم والسن والخبرة الا أنها حادة الذكاء. لهذا تيقن خالد أن اية حلول سطحية، لن تفلح مــعــهــا كــان هو الاخر لماحــا. وجد ثغــرة فى العــبــارة التى نطقت بها ، فعاجلها:

- اتفق معك تماما. وأشكرك على أنك بدأت تسهمين معى فى حل المشكلة.

- كيف ؟

- أنت الآن عــزلت الحب عن الثــورة. أرجــوك رجــا ء حــارا أن نتمسك بهذا العزل.

- بلعت الفتــاة ريقــهــا. بانت عليــهــا حيرة كــبــيرة . لم تدر بما تجيب. على أنها حاولت:

- لا تتوقع أن تحل مشكلة عويصة بهذه السرعة ، وبضربة خاطفة.

- اعترف بأنك ساعدتنى فى محاولة الوصول الى حل. وإذا مضى التعاون بيننا بهذه الطريقة، سنصل .

- صدقنى ، عاطفتا الثورة والحب فى وجدانى مختلطتان.

- لم نمض طويلا فى العلاج لتتعجلى النكسة. دعينى أصارحك كزميلة أنه يجب علينا أن نفصل الحب لشخص معين عن حبنا للثورة، وتحرير شعبنا. هذان أمران منفصلان تماما.

سكتت. لمس خالد قضية أساسية تؤمن بها تماما. ما الذى دهاها؟ حبها لعلى هو العاطفة التى تربط المحبين فى سائر الدنيا. زادته ثوريته مكانة فى قلبها . انها لا تستطيع أن تمارى فيما يقول خالد. ولا لتخريت ثورات كثيرة، لان الثوريات تحطمت قلوبهن لاعتقال عشاقهن من الثوار! نظرت الى خالد نظرة استعطاف وتسليم. وقالت:

- أتفق معك.

- جميل جدا.

- وصلنا لنصف الحل. وعلينا أن نحاول حل النعف الاخر.

- الحق أنك حللت ربع المشكلة فحسب. فعزل قضية الحب الشخصية عن الثورة مفيد. لكن كيف يقوم الانسان بدوره النضالى فى الثورة، وقلبه مشروخ . وسيقوم بنصف دوره فقط، لأن نصفه الثانى غائب.

- يكفينا منك هذا النصف. فانت طاقة كبيرة، ونصفك يرضينا.

ضحكت. كانت الضحكة مفتاحا طيعا للتخفيف من مشكلتها . عند هذه النقطة ، كانت الفتاة جاهزة لقبول نصائح خالد:

- على بطل من أبطال حركتنا ، لا تقلقى عليه من التعذيب..

- هذا ليس همى. إنه« وحشنى»!

- هذه مسألة مقدور عليها.

- كيف؟

- سيفرج عنه قريبا.

- رجعت الى التطمين السطحى .

- وما الطمآنينة غير السطحية؟

تأملت محبوبة وجهه . وبدت لها فكرة . حاولت أن تطلقها لكنها ترددت، ثم قالت:

- طافت بذهنى فكرة، أعلم مقدما أنك سترميها بالرومانسية. فكرت فى أن استخدم مجموعتى فى استنقاذ على من المعتقل!

شهق خالد ذعرا من الفكرة . ثم تمالك أعصابه:

- انت تهزلين لاشك. بعد هذه السنين من التدريب على العمل الثورى، تقدمين على هذا العمل الطائش»؟

- ماذا أصنع؟ الدولة لا تسلب الناس أرزاقهم وحرياتهم فحسب، ولكنها تسلب أيضا عواطفهم، وتحرمهم من احبابهم.

- على فى المعتقل التكنولوجى، الذى لا يعرفه انس ولا جان.

- هذه هى طريقتى فى الوصول اليه: آخذ منك اسم ضابط المعتقل . اتعرف على عنوانه من دفتر التليفون. آنت تعلم ما تسميه الطبقة البرجوازية بآزمة الخدم. ابعث بفتاة ، عضو فى مجموعتى ، الى زوجته. تعرض عليها خدماتها. تكون الفتاة عينا لنا هناك. تحصل على مكان المعتقل. اما من حديث الضابط مع زوجته أو آولاده. أو تتبعه فى تاكسى . أو تصادق السائق الذى يصحبه!

كـان خـالد ينصـت اليـهـا مـشدوهـا. حينما اتمت كلامـها قـال على الفور:

- يا خـبـر! لو كـانت خططنا بهـذه الدقـة والذكـاء، لتـحـررت الجماهير فى طرفة عين.

- حيحصل.

- لاشك أنك غـيـر جـادة. فـهـذه مـغـامـرة. والعـمل السـيـاسى المعقول لاينهج هذا النهج. ليست مهمتنا خطف المعتقلين. ولكن اقامة حكم ينتفى فيه الاستغلال.

خصوم الشعب آقوياء. لن ينتصر عليهم الا بحركة منظمة تضم الجماهير الكادحة.

- هذا مـا جعلنى لا أغـامر الى الان. فـقط، تطلبت الامـانة أن أصارحك بهواجس. ولتعلم ، كم بلغ بى اليأس.

- لا عليك، يا عـزيزتى« المحـبـوبة» أنت سـتـضطرينى الى أن اتخذ اجراء ترين به عليا ، أو على الاقل تتلقينْ رسالة منه.

- ماذا ستفعل؟

- سآخذك الى الضابط الوسيط مرة آخرى.

وابتسم خالد مردفا:

- على أن تعدينى ، ألاتنفذى خطتك.

ضحكت مرة أخرى ، فانارت ضحكتها وجهها. استثمر خالد الضحكة ليدلى بدلوه .

- ثقتنا فيك كبيرة . واعجابنا بك لا حد له. انى مقتنع بأنك ستصمدين.

ولن يؤثر فيك هذا اللون من القهر: قهر القلوب العذارى. لقد تحملت، وأهلك، ومواطنوك صفوفا عديدة من القهر. وقد وهبت نفسك، كما وهبنا أنفسنا للقضاء على القاهرين.

زمت محبوبة شفتيها وهى تودعه. وكأنها تعاهده على المضى فى معركة التحرير الى نهايتها . خطت نحو الباب. لاحط أن نطواتها عادت اليها رشاقة الغزال. قالت له:

- أشكرك، فقد رددت على وجدانى.

أطلق سراح « أبو زيد » ووقعت الواقعة .. ذهب عقب الافراج عنه مباشرة الى منزل محبوبة . ود أن يطمئن أن كان على قد استرد حريته. عندما رأته قفزت فرحة انطلق لساناهما معا بعد فرحة اللقاء.

- هل أفرج عن على؟

لو أفرج عنه لاسرع الى بيتها ولذاع الخبر فى القرية التى يسكناها معا. تلاشت فرحة أبو زيد . شحب وجه الفتاه. تساقطت على الارض مغشيا عليها ارتطمت رأسها بعتبه الباب. انبثقت منها دماء .

أسرعت والدتها اليها تناديها ، لامجيب ذعر أبو زيد . لم يدر ماذا يفعل.

اقترحت عليه الام، أن « يتلفن» الدكتور خالد . فهو انسان شسفوق. يعطف على محبوبه. وهذا هو رقم تليفونه.

انطلق أبو زيد . اتصل تليفونيا بخالد، الذى صرخ فرحا لسماع صوته. ثم فطن الى أن الناس فى هذا البلد يجب ألا يطلقوا

لعواطفهم العنان فى التليفونات انها مراقبة من القوى السفلية . كبت فرحته. استخدم أبو زيد الاسم «الكودى» للفتاة . أخبره بانها مريضة جدا.

طار من القاهرة الى قريتها. وصل بعد ساعة ، وجد الفتاة قد عادت الى وعيها ، لكنها تتحدث حديثا متقطعا خشى أن يكون حدث لها ارتجاج فى المخ. حملها فى سيارة اشتراها لاستخدامها اثناء اقامته فى مصر: فلوس الامم المتحدة ذهب الى أطباء كفر صقر، عاصمة المركز. لاجدوى منهم . ووجد أطباء الزقازيق ، عاصمة المحافظة، نائمين نوم القيلولة. لايستيقظون قبل السابعة . اسرع بها الى القاهرة عرضها على قريب له. استاذ فى كلية الطب بجامعة القاهرة. وفى القصر العينى وضعت تحت عنايته ، وعناية فريق من الاطباء . احتلت غرفة خاصة . اثبتت الفحوص أن مخها سليم. كان الاطباء قد اعطوها جرعة مسكنه لتنام. عندما أفاقت ، كانت عيناها تتفتحان على خالد. يجلس بجوار سريرها. أمها تحتل سريرا آخر.

قال لها:

- حمد الله على سلامتك.

- اين أنا ؟ وماذا حدث.

- انت بخير . وهذه أمك بجانبك.

رويدا رويدا . بدأت عيناها تستعيدان شكلهما الطبيعي. وأخذت ذاكرتها تصحو. وتستوعب قصة الاغماء الذى أصابها.

- لماذا لم يفرجوا عن على؟

خشى أن توغل- كعادتها- فى الحديث عن على، وعن جراحها. وهى مازالت فى دور النقاهة. رجاها:

- هل نؤجل الحديث الى أن تستودى صحتك.

- اشعر بأننى قوية، لاتحدث . قد يسرى الحديث عنى.

- بشرط ألا نتحدث عن على!

ـ وهل يحلو الحديث الا عنه!

- وبعدين؟

وهنا دخل الطبيب قريبه.

- هيه.. كيف حالك؟

- احسن..

- انت عذبتينا« ياشيخة». وأبو الخلد، لم يتركك لحظة واحدة.

- شكرا لك يا دكتور ، وشكرا لـ ...

- قاطعها الطبيب على الفور

- ممنوع الكلام ، أو بذل أى مجهود لمدة يومين.

أصر خالد على أن يواصل الجلوس معها ليعنى بها. رجته بعينين ضارعتين أن يذهب ليستريح. استجاب لرجائها. على أنه بقى معها طوال الاسبوع . الذى أمضته فى فراش المرض . كان يشترى لها الادوية. فالمستشفى عام . تابع لكلية الطب، التى تعلم أجيال الاطباء. أقدم وأكبر مستشفى فى مصر. ومع ذلك ليس لديه دواء...

وكان يشترى لها الطعام والفاكهة. طعام المستشفى لا يقيم للمرض أودا. ولا يجرى الدماء فى شرايينهم . النفس تعافه. حتى النفس، التى آخذت على طعام الكادحين.

بدأت محبوبة تحس بحنان خاص نحو هذا الرجل. الانسان العطوف الطيب القلب، النابض بحب الثورة، حب الملايين، العاطفة المتدفقة التى تنسال على جميع من حوله. وبدأ هو يستعذب الاويقات التى يقضيها معها. يشهد نومها ويقظتها . كان اليومان الاولان صامتين: لكنه صمت أحلى من الكلام،. قالت له عيناها كثيرا ود لو كان الطبيب قد مد فترة منعها عن الكلام!

دارت بينهما حوارات ممتعه. قلما تدور بين حملة المؤهلات العلمية الرفيعة. حوارات تتخذ من الانسان موضوعا وحيدا: الملايين الكادحة التى تستنزفها قوى التخلف فى بلدها، وفى غيرها من البلاد كانت الفتاة شغوفة بالانسان. الحديث عنه يهز اعطافها . والنضال من آجله، يبعث النشوة فى آوصالها. الانسان قرب بين عقليهما . لم يعد هناك فارق بين الدكتوراه، وشهادة التعليم الاولى، وجدان الفتاة الثرى، عوضها عن المؤهلاتا التعليمية. كم حامل لمؤهلات عالية ، حامل كذلك لوعى ضرير. حامل لاسفار. قالت له:

- لماذا لم يفرجوا عن على؟!

جفل خالد من السؤال. تمنى أن تتقبل وضع على . وأن تصبر،

وتصابر، حتى يفرج عنه. وأن تظل مستمسكة بحبه، وفيه له. هذا يرفعها منزله عاليه فى عينيه. أمل أيضا ، لو تحقق الصورة التى رسمها خياله: الثورة هى الأولى فى وجدانها.

على أنه كان مخطئا فى تفسيره لسؤالها . فما لبثت الفتاة أن استطردت .

- ... يبدو أنهم يستبقون المعتقلين من المثقفين فى السجون مدة اطول من الفلاحين والعمال.

- هذا ما يحدث غالبا. المثقفون الثوريون تتعمق الثورة فى وجدانهم.. ويتطلب ذلك من السلطات جهودا أكبر لانتزاع اعتراف منهم. ثم تآخذ عملية غسيل المخ» وقتا طويلا ليتمكنوا من تخريب عقولهم ، وتحييدها.

انتفضت الثورية الريفية من مضجعها لترد عليه:

- أنهم مخطئون . فالثورة محفورة فى صدور الفلاحين والعمال، بقدرها حفر فيها من الجوع والقهر والاستغلال.. هم كذلك أعوادهم صلبة تتحدى التعذيب.

سكتت محبوبه لحظة ، لتواصل:

- سـيكتـشـفـون هـذه المـره خطـأهم، اذ يهـونـون من شـأن العمال والفلاحين.

ها هى تعود الى طبيعتها الثورية. لم يكن على هو المقصود اذن. أحيت هذه الاجابة خالد وأسهم:

- أنت على حق. التنظيم الثورى، هذه المرة، الاغلبية الكبرى فيه من الفئات الكادحة. والمثقفون فيه، دورهم يتركز فى نشر الوعى بالثورة.

- اعـتـقـد أن المثـقـفين الثـوريين لهم دور أسـاسى فى عـملية التحضير للثورة.

فلا اكتمك أننى استفدت من على كثيرا. اسهم فى تكوين وعيى الثورى. أغلبية العمال والفلاحين، كما تعلم ، لايعون انهم الكثرة. وبهذا فالحكم هو حقهم الديمقراطى وأنهم المنتجون للخير، الصانعون للحياة. فيجب أن يكون الخير والحياة لهم. لا يعقل أن يملك الخير قلة لا تعمل. يحرمون المنتجين الحقيقيين منه .

ذكرها لعلى هذه المرة، لم يقلق خالد. فهو يذكر، كمثقف ثورى، يتساوى، مع الاخرين. والحق أن خالد لم يكن يعترض على

ذكره لاسباب شخصية . . ولكنه كان يخشى أن يحرمهم من جهود محبوبة الكبيرة . قال خالد:

- هذه شهادة قوية لدور المثقفين فى العمل الثورى. على أننى سعيد بأن الكثرة الكثيرة من قيادات المجموعات فى أيدى العمال والفلاحين.

- لكن هناك سؤالا يحيرنى: ما الذى يدفع المثقف الى الثورة؟

بماذا يجيب أستاذ الجامعة؟ رأت الفتاة حيرته ، فحاولت توضيح مقصدها:

- سؤالى ليس شخصيا . أنا مثلا أعرف تاريخ على . نبتت بذور الثورة فى وجدانه. وهو يشهد سياط الاقطاع تمزق ظهر والده، واخوته. بل شهدها على ظهرى كذلك.

خشى خالد أن تصيبها نكسة، عندما ذكرت اسم على . ولكنه هدأ حينما أكملت:

- ... وأعرف كذلك، قصتك، مع الجوع، والجهل ، والقهر. فى هاتين الحالتين، ومثيلاتهما ، زرعت بذور الثورة، ونمت، وأينعت، وسط المعاناة. وجاء الوعى، لينقلها من احساس فردى بالقهر، الى

ادراك جماعى بالقوى القاهرة المستغلة للانسان. ما أقصده: المثقفون الثوريون من غير هذا النموذج.

صعبت الفتاة موقفه.

قال لها:

ـ أولا، تعريف المثقف موضوع صعب. لكن الثوريين تواضعوا على استبعاد المتعلمين، الذين لايؤمنون بقضية الانسان، من دائرة المثقفين. التعليم لايعنى الثقافةالبكالوريوسات والليسانسات والدكتوراهات، هى شهادات بأن حامليها اجتازوا امتحانا.

سأضرب لك مثلا قد يكون طبيب ما، عبقريا وعالما ـ ولكنه ليس بالضرورة انسانا مثقفا. فهو خارج اطاره المهنى، ربما لا يعرف كثيرا. لم يقرأ تاريخ الانسان، ونظمة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. ولم يدرك ألوان القهر، وصنوف الاستغلال، التى تعرض لها. ولايحس بعذاباته. ولا يهفو الى تحريره، والى مجتمع أفضل. بل قد يكون هذا الطبيب العبقرى، أداة لاستغلال مجتمعه. معظم الاطباء العباقرة، لا يعالجون الفقراء. يقتضون أجورا عاليه، ثم يندمجون فى الطبقة، التى تستعبد البشر.

التفت خالد الى محبوبة. وجدها تستمع اليه. لا بأذنيها، ولكن بعينيها وحواسها جميعا. فتاة غريبة جائعة الى المعرفة، كجوعها الى الغذاء.

قال لها :

ـ لا أريد أن أطيل عليك.

قاطعته راجية:

ـ أطل، بربك!

ـ وعلى هذا، فالمثقف ليس الحامل لدرجات علمية رفيعة. ولا الذى جمع قدرا كبيرا من المعرفة. لكن المثقف هو الذى يستخدم المعرفة فى تحرير الانسان. أما أولئك الذين يجمعون المعرفة، للتعالى، أو لتحقيق مصلحة فردية، أو لمصلحة الطبقة التى تبتز الانسان، وتمتهنه، فهذه معرفة لاخير فيها. هؤلاء ليسوا «مثقفين» ولكن «مخزنجية معارف»!

ـ قولك هذا يعنى أنه قد يكون هناك حامل للابتدائية ويعتبر مثقفا، وحامل للدكتوراه، ولايعتبر كذلك.

ـ تماما.

ـ أنت «دكتور» وتقول هذا الكلام؟!

ـ نعم

ابتسمت الفتاة ظهر طابع الحسن فى خدها. طفرت فوق السرير قائلة:

ـ اذن أنا أكثر ثقافة من الدكاترة!

ـ طبعا..

قالها بابتسامة فرحه. لم تعد فرحته مقصورة على الفتاة، التى يتجسد فيها جمال الريف. ولا على الثائرة، التى تقود مجموعات شابه من الفلاحات الثائرات. ولكن زاد اعجابه بها للحوارات التى تخوضها معه. ثم استدرك على الفور:

ـ أنت أكثر ثقافة من بعض الدكاترة فحسب!

ضحكت ضحكة عالية. دوى صليلها فى داخله. حملت اليه جزالة الريف، وهزيج السواقى، وخرير العيون. وردت عليه:

ـ انت خايف على نفسك ياحلو.

ضحك، وقهقه قهقهته السعيدة .. هل هو حلو؟ رضى بالوصف كثيرا ! قد لا تقصد محبوبه معناه. لكنه انساب من شفتين سكر. اعتقد خالد، أنه أنهى الحديث الصعب نهاية حلوة. غير أن الفتاة النابهة حولته الى تساؤل جديد:

ـ لماذا يتعالى المثقفون؟

ـ هل أنا متعال؟

ـ أنت دائما تحشر نفسك فى كل شئ!

ـ هل يغضبك ذلك؟

ـ لا . انه يسعدنى. أرجو أن «تحشر» نفسك دائما!

ـ الله . هل هذا ترخيص منك بذلك؟

ـ طبعا. انت لاتحتاج الى ترخيص. حديثك يفتت بأساء معمرة حاقت بى وبأهلى. سكتت لحظة، ثم أردفت:

ـ اطمئن. أنت لست متعال. وجودك معى يؤيد قولى. ويمحو الفوارق فى التعليم. فتصبح الدكتوراه. وشهادة التعليم الاولى، مؤهلين متساويين ! سؤالى عام. اذا رغبت .. أجبنى عليه.

ـ المثقفون «البرجوازيون» أو بتعبير أدق ، «مخزنجية المعرفة»، هم الذين يتعالون على الجماهير، بل يتعالون على بعضهم بعضا ، حسب حجم المخزن، الذى يمتلكونه. التعالى «الثقافى» يزيد من فرديتهم. ويثير فيهم غريزة الشعور بالتفوق. وهذا يجعل منهم صفوة .. ولابد للصفوة من امتيازات. المكانة الادبية وحدها ، لا تصلح فى مجتمع يقتتل على التملك. والتميز العلمى، يطوع للاثراء، واستغلال الناس. وبهذا يصبح «المثقف» أو «مخزنجى المعرفة «مخزنجيا لرأس المال والارض. ومن ثم مالكا لوسائل الانتاج. وينضم الى قوى القهر والاستغلال.

قاطعته الفتاة، قافزة فوق السرير:

ـ الله! كلام جميل لكن لابد أن اخالفك الرأى! يجب أن يكون للمثقفين مكانة خاصة.

ـ للمثقفين البرجوازيين؟

ـ لا. للمثقفين الثوريين.

ـ قد تكون تلك المكانة سلما للارتقاء الطبقى.

ـ وهل فى الاشتراكية طبقات؟

ـ لا . لكن قد تحدث فيها انحرافات . وشعور المرء بتميزه، يبدأ معه تبرير الامتيازات. ونمو للفردية على حساب الجماعية.

ـ لكنك امتعتنى بتحليلك المبسط. واسعدتنى سعادة حقيقية. ماكان لانسان أقل ثقافة منك أن يقوم بها.

ـ وهل يكون ثمن ذلك، أن احتل وضعا طبقيا متميزا. يكفى المثقف الثورى أن يرى افكاره، عزما فى وجوه الشباب. ومعرفة فى ذهن الثوار. وسلاحا فعالا يتسلح به المناضلون. لاقامة مجتمع أفضل. أى ثمن أروع من هذا؟

هبت محبوبه من سريرها مرة أخرى، لتقول له فى تخفف برئ قاتل:

ـ لولا المرض، لقفزت أقبلك.

ورد عليها على الفور:

ـ أعتقد أنك شفيت!

ـ حقا؟

وابعدت الملاية التى كانت تغطيها بيديها. وهمت بالنهوض. رجاها بكلمات متقطعة:

ـ لا .. ابق فى السرير.. أرجوك. كنت أهزل معك.

جاء الممرض، الذى يقوم بالخدمة الليلية. أخذ يطفئ الانوار لينام المرضى. كانت الساعة قد بلغت منتصف الليل. وقف للانصراف. أمسكت بذراعيه:

ـ مازال الوقت مبكرا.

ـ لقد انتصف الليل.

ـ دعه ينتصف. ويبشر بالفجر!

ـ كم أود أن أبقى. أنما بقائى بعد منتصف الليل غير مقبول.

تراخت قبضتها عن ذراعه. ودعها راغما. وودعته بنظرة امتنان وحنان.

- - - -

ـ٢٢ـ

الاستراحات الفاخرة ليست مفتوحة كلها للاصفياء. بعض الاستراحات يفضل السلطان فيها الخلو مع ذاته. ومن بين هذه الاستراحات «استراحة الهرم» أقيمت فى بقعة جمعت بين المجد،

والعلم، والايمان، والتاريخ.

اختار هذه البقعة القدسية لاستراحته. تجاور الاهرامات العظيمة، وأبا الهول الشامخ بأنفه وذقنه. تلك الذقن التى استلبها الانجليز. ووضعوها فى المتحف البريطانى بلندن . هذه البقعة تطل كذلك على الشاليهات الفاخرة، والملاهى الليلية، ومواخير الجنس، ونوادى القمار والازلام.

لم تكن خلوة السلطان خالية تماما من عبق «الانفاس». وصليل الكئوس. كان يكتفى عندما يناجى ذاته، وأجداده العظماء. «بالبيب» المعمر المعطر.

راجع خطواته، واستراتيجيته لتدعيم السلطنة : الغاء «الاشتراكية». تخريب الوحدة العربية. التحالف مع أمريكا واسرائيل. لكن الولاء الكامل يتطلب خطوات أكثر قربى. وعلى ضوء الوحى الذى استمده من أجداده العظام. فتح أبواب مصر. ونوافذها للأجانب. القوى المستغلة الأجنبية والمحلية تمسك بخناق مصر.. تستنزف مواردها المحدودة. وتنقل ناتجها القومى، وجهد بنيها ارباحا وثروات الى الخارج.

وارث الفراعنة والمماليك والعسكر، كان عاشقا للخواجات

مازال فى « جراب الحاوى » الكثير . افرزت خلوته سلوكيات وقرارات» سلطانيه:

تفاخر في التليفزيون والاذاعة بأنه عرض على الامريكيين، أن يعطيهم على أرض الوطن قواعد عسكرية لجنودهم واساطيلهم، وطيرانهم. الغريب أنهم أبوا ! لم يدرك بأن ذلك كان عرضا ساذجا. القوى الكبيرة. اذا ما أرادت استخدام تابع لها، تفضل أن يكون مستترا ذكيا. التابع الظاهر لا يخدمها. ويؤلب شعبه عليها. ولما نصحوه بأن يكون لبقا ، عرض عليهم نفس العروض فقبلوها. سموها اسماء أخرى: الاستغلال ، اسموه استثمار. التحالف والقواعد العسكرية، اسموها تسهيلات. الاستعمار اطلقوا عليه المناورات المشتركة!

على أن ذلك لم يشبع نهمه الى مزيد من القربى. مصر تملك اثارا وتحفا فريدة. ابتدعها الاقدمون. أولئك الذين بنوا حضارة زاهرة فى فجر التاريخ. هذا التاريخ أثمن ما يعتز به شعب مصر. فهو ينم عن آصالة ومجد. يتميز بهما عن سائر الشعوب. ما كان ليبخل على اصدقائه بتلك التماثيل، والتحف الخالدة. حتى ولو كانت تمثل أعز ما لدى مصر من تاريخ. وأغلى مالديها من تراث.

وما التاريخ وما التراث وما المجد؟ هؤلاء هم اجدادى العظام. وهذه هى آثارهم الخالدة. تركوها لى. حينما أمنح هذه الكنوز الي احبائى الخواجات، تغمرنى سعادة بالغة، ولاجدال أن أجدادى يسعدون لسعادتى..

وأخذ الرجل يبعثر كنوز الاقدمين: هذا التمثال الذهبى لهنرى. وهذه العصا المرصعة بالاحجار الكريمة، التى لم يعد لها وجود فى زماننا، تهدى لجيمى وهذا العجل الذهبى المنمق بالهيروغليفية، لغة أجدادى. يعطى لريتشارد. ونفرتيتى الحلوة تقدم للساحرة جاكلين! وهكذا اضاع الرجل فى سفه غريب كنوز بلده، وتراثه الفريد. كيف يمكن لهذا البلد أن يقول ان له تاريخا؟

لم يكتف بهذا القدر من امتهان تاريخ بلده، والعبث بمقدساتها بل أدى به ولهه بسادته الجدد الى نوع من الخبل. لايكفى أن يبعثر تاريخ البلد قطعا قطعا. يوزعها على الخواجات. ولكن المناطق التى تضم الكنوز، مازالت بها آثار شامخة، تطاول الزمن. لم يستطع أن يهشمها، ويبيعها قطعا. هذه المناطق تبدو له كئيبة بدائية. وهو رجل يعجب بتقدم الخواجات، وبالتكنولوجيا الحديثة. ساعد أصدقاؤه الاجانب على التفكير فى تطوير هذه المناطق. هذه

الربى التى ترنو لها قلوب الشعب وكل الشعوب . فهى مربع أول حضارة فى التاريخ.

عرضوا عليه شراء هضبة الاهرام، لقاء مبلغ متواضع من المال. سال لعابه للاقتراح. وأعطيت المنطقة التاريخية للاجانب. وهؤلاء باعوا الارض الخالدة بالمتر! المترفون يبنون عليها «شاليهات» وملتقيات للغرام. وينشط عليها تجار اللهو والخمر والقمار.

لم يقتصر دوره ، على تخريب حاضر مصر، ومستقبلها، امتد ذلك الدور الى مسخ الماضى الذى كان تليدا.

- - - -

ـ ٢٣ ـ

الاغصان تتعانق فوق الطريق الزراعى . مظلة يانعة تسكب على الطريق ظلالا خضراء. نظرات محبوبة تعانقه، وتقبله، وتحنو عليه. كان خالد يرافقها من المستشفى الى قريتها. أصبحْ مشغوفا بها. ابان مرضها، كان يبقى الى جوارها الى ما بعد منتصف الليل، ليهرع اليها عند البكور. ما الذى يربطه بتلك الفتاة؟ أهى عيون البقر، والجسد الخصيب، والصدر الثرى؟ أيتمثل فيها المرأة

المصرية التى طالما حلم بتحررها وبدورها فى بناء مجتمعها. أهى امتداد لخضرة ولنبيهة وأم الخير، العاملات فى وسية الخواجة اليونانى، حينما كان صبيا عاملا فيها. جمعت بين الصبا والجمال، والريف، ومصر، والثورة. الاسبوع الاخير قربها الى قلبه. هل يعتبر التعاطف حبا، والعناية بشئ عزيز غراما به وحدبا؟ ايا كانت العاطفة التى تربطه بها، فقد أحس بها قطعة من هذا النهر المتدفق فى القرى، وحوارى المدن، حيث الجماهير الكادحة الطامحة الى التحرر.

كانت تجلس الى جواره. ترمقه بنظرات عذاب. بينما كان يقود السيارة، هونا. تشجيه زقزقة العصافير، وتغريد البلابل وحفيف الغصون. اقتربت منه رويدا رويدا. حتى لا مست جسده. اصابته رعشه. استنام الى خدر لذيذ، وهو يسوق. الفتاه، تخلى له مكانا فى وجدانها: اعجاب بمناضل من أبناء الشعب. قهر الجهل والجوع. انضم الى الكادحين فى ثورتهم. لم يتعال عليهم. ترك الطائفة البرجوازية التى يعتبر منها. يسكب عقله وروحه في سبيل الثورة. حنا عليها. نقلها الى المستشفى. عني بها فى مرضها. غذى الثورة والانوثة فيها: انا أعلم تماما بأننى لن أتزوجه، فهو

متزوج. ويكبرنى بثلاثين عاما. هل أقول، هو استاذ فى الجامعة، وأنا فلاحة أجيد القراءة؟ لا. انه ليس طبقيا.. انا لايهمنى السن. هذا الوجدان الشاب، والعقل الفتى، والقوام الشامخ، والثورة العارمة تكفينى. هل لابد للحب أن يكون مقصورا على الزواج؟ ان للحب أسبابا كثيرة، وصورا رائعة.زحفت نحوه. وضعت ذراعها على أعلى مقعده. مس نهداها ساعده. أحس على الفور وجيب قلبها قويا شجيا. الفتاة تريد أن تشكره. وتعبر عن شعورها نحوه بوسيلة طبيعية فاعله.

الرسالة تصل الى خالد. سعد بها انه يحب الفتاة. لكنه يحبها ثورية. ولا يهواها أنثى .تقف بينه وبين هواها عقاب كئود : زوجه، اولاده، رفيقته فى الثورة، صديقة على، وزوجه المنتظرة.

مضت السيارة بهما فى الطريق الظليل. الشمس تتلصص عليهما من بين أوراق الشجر. انطلقا، وفى قلبيهما رفيف جديد: علاقة بين انسان وانسانه، وثورى وثورية، ورجل وامرأة. معانى تتراشق وتتسق فى كل جميل.

- - - -

استقبلتهما القرية استقبالا حافلا. رحبت به أسرتها. لكن كان هناك استقبال آخر، هز خالد هزة قوية: استقبال الفلاحات الشابات لزميلتهن محبوبة. قمر القرية، الذى ينير لها طريقها. بنات فارعات القد. حوراوات العيون. يومض فى مآقيهن بريق يمزج بين الصبا والثورة. الوميض الذى رآه فى عيون الفتيات، ابان صباه فى ايام الوسية ، كان انثويا مستخذيا. يعكس الفقر، والانوثة على استحياء شديد. مايشهده الان بريقا، يتدفق انوثة وحياة.

قدمت له محبوبة الفتيات:

ـ البنات صحابى.

ـ صحابك بس؟

ـ الحق هم أكثر من صديقات.

شاءت الفتاة أن تروى ظمأ خالد للثورة. وأن ترسخ مكانتها عنده. قررت أن تقدم له أحلى حفاوة فى حياته. همست لزميله لها بكلمات. انطلقت الزميلة عادت بعد ساعة لتقول لها:

ـ كل شئ تمام.

ـ التفتت محبوبه الى خالد، لتقول له:

ـ تفضل.

ـ الى أين؟

ـ تفضل، وخلاص.

تبعها في شوارع القرية. اجتازا أزقة كثيرة. ثم دخلت به منزلا ريفيا، أقرب الى الكوخ. رأى منظرا من أحب المناظر الى قلبه. مجموعة يانعة من زهرات القرية. فاجأته محبوبة:

ـ هذه مجموعتي الثورية!

لكنها استدركت:

ـ هذه مجموعة واحدة فقط.

ضحكت الفتيات بصوت ذكره «بصوصوة الكتاكيت» اشترك معهن بصوته الجهوري وكأنه ديك يختال بين الفراخ!

كان الاجتماع مثيرا، مثيرا. موضوع المناقشة فيها دار حول «الحجاب»!

بدأت محبوبة الاجتماع بقولها:

ـ سنناقش اليوم موضوعا من أخطر الموضوعات التى تحيق بالمرأة المصرية هذه الايام : موضوع الحجاب.. القوى الرجعية تحاول أن تضع نصف الشعب المصرى فى معتقل واسع. هدمته الجماهير منذ اكثر من ستين عاما. بقيادة هدى شعراوى ، وقاسم امين. يريدون وضع المراه فى معتقل «الحريم». بنات القرية الفلاحات، طرحهن طليقة. بينما نساء المدينة، طرحهن تطبق على رقابهن . كأنها مشانق تجرهن الى الموت!

- - - -

ـ٢٤ـ

أعضاء الحركة الديمقراطية ينطلقون الى الحقول، والمصانع، والمدارس، والجامعات ودور الحكومة .. يلتقون بالجماعات الفرعية، وبالجماهير. يبثون الوعى. ويبشرون بالفجر الجديد. السلطان وفر عليهم جهدا كبيرا. لم يجدوا أنفسهم فى حاجة الى تذكير الناس بالبأساء تنصب على رؤوسهم. ولا بالاستغلال ينضب مافى شرايينهم من حياة. كأن الطبقة الحاكمة اعتبرت افرادها أعضاء فى المجموعات المناضله. فنشرت الجوع، والجهل، والتخلف بين الناس. اصبح فساد السلطة، وسلوك السلطان وقراراته جزءا

من الوعى الثورى. النظام نفسه يثير تذمرا شعبيا واسعا.

لذلك ركز المناضلون على نقطة حيوية : رفع الروح المعنوية للجماهير: ان تعى الجماهير أنها الاكثرية، صاحبة الحق في الحكم. وانها القوى العاملة المنتجة، من حقها السيطرة الجماعية على المزارع والمصانع ورأس المال. وانها القوة الحقيقية. اذا مانظمت واتحدت وتحركت، فستنهار القلة المستغلة الهزيلة.

استخدمت الجماعات الديمقراطية طرقا غير تقليدية للاتصال بالكوادر، وبالجماهير. كانت وسيلتها، هى الاتصال المباشر. وليس استخدام المنشورات. فطنت الى أن الأمية تطيح فى الاغلبية الكبرى للسكان، خاصة، تلك الفئات، التى يخاطبونها فى حوارى المدن، وازقة القرى، وفى الاكواخ والقبور. فالمنشور غير مفيد، وهو خطير، اكتشف عن طريقه، كثير من التجمعات السابقة.

طورت المجموعة كذلك، تقليدا جديدا: بث الوعى من خلال مشكلات الجماهير. الجماعة تتصدى لحلها، بالمشاركة مع الناس.

فى أحد اللقاءات، جاء ابوزيد للمجموعة بمغامرة ثورية. : قريتة شديدة التخلف. لاتوجد فيها مرافق أو خدمات للجماهير.

يمر بها «مصرف» كبير. على حافته قطعة أرض فضاء واسعة. كانت الأرض «حفية» تتبع «المصرف» المملوك للدولة. فكر فى استخدامها لمنفعة أهل القرية. لكن عمدة القرية كان مغتصبا للأرض. يتخد منها جرنا لمحصولاته، واصطبلا لمواشيه.

كان العمدة صورة لسلطان مصغر. ينفذ تماما، بإيمان شديد، الفلسفة السائدة: الفساد والرشوة، والاثراء الحرام، تستشرى فى القرية. الاتاوات تفرض على الفلاحين علنا. فالعمدة «كبير» القرية وينفق على ادارتها، والاحتفال بضيوفها الكبار كالمأمور، والمحافظ. وهو يسخر العمال، ليفلحوا حقله دون أجر. ويتقبل الرشاوى لفض المنازعات بين الناس. الغرامات التى يحكم بها علي المتخاصمين، تدخل جيبه. يوقع بين الناس لتزداد الخصومات، ويزداد ايراده.

وللعمدة مجلس للحشيش، يتشابه ومجلس الجوزه الأعلى.. والفارق أن الأول «غرزة» ريفية، بينما الثانى يعقد فى المقصورات البلورية. يمسك بالجوزة فى هذه المليونيرات والوزراء. ويمسك بها في تلك، الخفراء وشيوخ البلد.

كـذلك اطلق العـمـدة أبنا ءه واخـوته، ينهـشـون لحـوم الناس. يسـرقـون كـدحهم . ويتـجرون فى ارزاقـهم. وبذلك انصب على أهل القـرية نوعـان من القـهـر والاسـتـغـلال: على المسـتـوى الوطنى، مارسته السلطنة على القرية، وكل القرى. وعلى المستوى المحلى، حيث القهـر والاستغلال أشد وطئا. انهما يخنقان الانفاس مباشرة ويأكلان الصدور.

نشـأ ابوزيد فى هذه القـريـة، بعـد أن هجـر أبوه وسـيـة الخـواجة اليونانى. وكان فى باكورة شبابه يتيه بجسده الفارع، وعـضلاته القوية، وشاربه المبروم لأعلا. فلعبت البطولة الفردية بخياله. قاوم الظلم الذى يبـاشـره العـمـدة ورجـاله على الناس. مـقـاومـة فـردية. أهاب بهم الايدفـعـوا الاتاوات، والرشـاوى والغـرامـات. لكن بطش العمدة شديد، فلم يستجيبوا.

ولما وجد أن الخوف يسيطر على الناس. وان العـمـدة سـادر فى طغـيـانـه، لجأ الى الجريمة. أراد أن يهز صـورة العـمدة فى نـاظريهم، ويحد من ظلمه. الف عـصبـة من شبـان القريـة . اغرقـوا زراعـات العـمـدة. «وقـرطوا» النبـاتات في حقله. وحرقـوا المحـصـولات فى اجرانه. كـانت هذه الجرائم يستخدمها العمدة، ضد الذين يرفضون

دفع الاتاوات. اراد ابوزيد أن «يسقيه من نفس الكأس» . انتجت الحوادث آثارا. اخذ خوف الناس من العمدة يتضاءل . انتهكت حرمات حقله وبيته.

كان العمدة يمقت ابوزيد مقتا شديدا، لاستعلائه عليه واعتزازه بكرامته. ولانه لا يحج الى بيته كما يحج الناس. على أن حقده عليه استعر، حينما نمى الى علمه أنه المحرض للناس ضده. وتجلى ذلك الحقد فى ابلاغه السلطات بأنه اشترك فى هبة الخبز. وكان ذلك انتقاما شخصيا، اذ لاعلم للعمدة بالمجموعة الثورية.

خرج أبوزيد من المعتقل، مصقول الوجدان . اقلع عن الاعمال الفردية. ازدادت قناعته بأن الشعب الراعى المنظم هو القوة الوحيدة التى تستطيع أن تقهر القهر.

وما أن رأى هذه القطعة الفضاء الواقعة على حافة القرية، حتى قفزت الى ذهنه، فكرة: هذه الأرض تصلح لاقامة وحدة صحية عليها. كانت له شعبية كبيرة فى القرية. ما أن اعلن اقتراحه حتى توافد عليه المتطوعون، للاسهام فى هذا العمل. انتهز فرصة خلو قطعة الأرض من محصولات العمدة. وقاد أهل القرية لتمهيدها.

واقامة سور يحيط بها. تم ذلك فى يوم وليلة. العمدة وجد نفسه مشلولا تماما. الأرض «خفية» لايجوز وضع يده عليها. اهل القرية، اسهموا معظمهم فى هذا العمل.

أبو زيد استصدر قرارا من مجلس محلى المركز بتخصيص هذه القطعة لاقامة الوحدة الصحية عليها. قامت الوحدة الصحية، بأسرع من قيام مدينة الحياة بطبيعة الحال. اربعة غرف وصالة. اشتركت فتيات محبوبة وفتيان ابوزيد فى بنائها. لم تكن المشكلة فى البناء. ولكن كانت فى تشغيل المستشفى. تطوع الاطباء من ابناء القرية. تعهدت بعض الفتيات بتنظيف المبنى، ومده بالمياه من «الطلمبه» التى نصبت لهذا الغرض.

فكرة التشغيل جديدة. لم يطلب من الدولة شئ. قام الناس بالعمل. ارتفعت معنوياتهم زالت الهالة التى تحيط بالحكومة. هذا هو الكسب الكبير الذي يهدف اليه الثوار. أصابت الوحدة الصحية العمدة فى مقتل. لم يسهم فيها، وهو عمدة القرية وكبيرها. بل قامت على الأرض التى كان يغتصبها من الدولة. قيادة القرية، والاعمال الهامة فيها، بدأت تتسرب من يديه.

بث جواسيسه، ليأتوا له باخبار غريمه ابوزيد ومن يقترب منه. كانت عيونه من الخفر. وعيون الخفر غالبا مسبلة! وذكاؤهم ساذجا. تصنتوا على أبوزيد. واحد الشباب المقرب منه. وجدوا في دار الأخير لغطا ونقاشا. طرقوا الباب ذهب الشاب ليرى من الطارق. ما أن لمحهم حتى سحبهم الى داخل الدار. انضم اليه رجلان من أعضاء المجموعة من غير أهل القرية. ضرب الخفيران «علقة ساخنة». قال لهما صاحب الدار: هذا انذار فحسب. لا كلمه. لا تصنت مرة أخرى. اذا عدتما، سيصبح أولادكما أيتاما.. وخرس لسانا الخفيرين تماما.

على أن بغى العمدة اشتد. قرر أبوزيد وجماعته طرده من العمدية. لم يكن ذلك امرا عسيرا. الرجل يتقاضى الرشوة والاتاوات جهارا نهارا. ابلغ أبوزيد البوليس بعمليات الرشوة. قدم احد أعضاء مجموعته للعمدة مبلغا من المال. كان البوليس يرقب العملية. ضبط متلبسا. ورفت من العمودية.

- - - -

-٢٤-

وحملت محبوبة للمجموعة قصة طريفة: كانت زوجة العمدة

جميلة «مربربة» لعويا. «تلعب بالبيضة والحجر» ، كما يقولون. شخصيتها قوية. وكانت جزءا من نظام القرية «تتعمد» على النساء، وعلي كثير من الرجال. غضبت تضامنا مع زوجها، لما قامت الوحدة الصحية، دون أن يشارك فيها. اسهمت فى التجسس على خصوم زوجها. وكان من الواضح أن محبوبة أكثر فتيات القرية، جمالا، ونشاطا، وشعبية. قامت بدور مرموق فى بناء الوحدة الصحية. كل هذا أثار عليها حفيظة سيدة القرية.

زوجة العمدة تستخدم خادمات من نساء القرية. اخت محبوبة من بينهن . كانت عينالها في بيت العمدة. ارسلت الزوجة امرأة للتجسس على محبوبة. كان هناك اجتماع في بيتها. محبوبة مطمئنة. اوصت اختها باخبارها بما تقوم به «العمدة المرأة» . لكن هذه فى سرية شديدة، أرسلت بالمرأة الأخرى. فوجئت محبوبة بطرق على الباب. ارتعدت البنات. لكن محبوبة كانت قد اعدت اجراءات أمنية من نوع غريب: كانت قد احضرت طبلة .. واتفقت مع البنات على أنه فى الزيارات الطارئة، ينقلب الاجتماع الى حفل راقص! وزعت ادوار الطبل والغناء والرقص على البنات. ذهبت محبوبة لترى من بالباب. نادت بأعلى صوتها:

ـ تفضلى ياست أم عمر!

دخلت المرأة. انقلب الاجتماع الشورى. تأودت الاغصان الفارعة. تثنت الخصور النحيلة. ارتعشت النهود النافرة، أمضت مندوبة زوجة العمدة وقتا ممتعا! ثم حملت القصة الى مخدومتها.

كان هذا الاسلوب الأمنى، الذى عرضته محبوبة على المجموعة مثيرا. سأل رشاد محبوبة:

ـ اين مكان اجتماعكم القادم وزمانه؟

فطنت محبوبة الى هدفه. قالت له على الفور

ـ لا ياحلو. هذه الطريقة تستخدم للنساء فقط!

- - - -

هذه الجماعة الديمقراطية الشورية وفروعها، لم تتخلص تماما من الامراض التى أصابت التنظيمات السابقة. تسللت اليها الانانية والفردية. ارتاب الاعضاء فى بعضهم بعضا. حب الرياسة، والتجسس لحساب السلطة، الى غير ذلك. بعضهم ابلغ السلطات عن المجموعات التى ينتمون اليها. لكن الجماعة كانت تدرك الوان التخريب والضعف التى عصفت بالتنظيمات السياسية السابقة.

العضو الجديد، يوضع مدة طويلة تحت الاختبار. يحدد له فرد واحد من المجموعة للاتصال به وبعد اختبارات عملية شاقة وطويلة، يرشح للعضوية الدائمة. وهناك لجنة خاصة، تعد أرشيفا، يبحث تاريخه، وتاريخ أسرته. لهذا كانت التبليغات للشرطة، اثارها محدوده ذهب ضحيتها أفراد واحتفظت الجماعة بجسدها سليما.

وعانى الثوار، فى بعض المجموعات ، من أمراض الفردية وحب السلطة. وفى هذا كانت هذه الجماعة اسعد حالا من سابقاتها. لم يكن ذلك صدفة، او حظا حسنا. كان السبب تركيب الجماعة نفسها. عانت الجماعات الماضية من هذه الموبقات، لأن معظم أعضائها جاءوا من الطبقة البرجوازية المتعلمة. ورثوها من بيئتهم العائلية. ومن قيم المجتمع البرجوازى من حولهم. الافراد فيه يقتتلون فى سبيل المجد الشخصى. والصدارة.

استطاع الثوار الحاليون، أن ينجوا من هذا الوباء فمعظمهم من الجماهير الكادحة، همهم التحرر من الاستغلال، أيا كان القائد. طالما كان قدوة صالحة. ومناضلا حقيقيا فى سبيل تحرير الطبقة العاملة والفلاحية. والمثقفون منهم ثوريون حقيقيون. لايدعون

امتيازا ولأنخبوية وقد ضربت الجماعة القيادية مثلا بمجاهد وخالد كلاهما لم يصب بهذا المرض. مجاهد هو الذى دعا خالد للانضمام الى الجماعة . كان يتابع اخباره فى الخارج ويزوره فى منزله. لم يشعر أن خالدا منافسا له. وهذا أيضا لم يخطر بباله انه استاذ في الجامعة . ويجب أن يتصدر. بل كان على عكس ذلك تماما . يرى أن هذه حركة للجماهير. ويجب أن يقودها الكادحون. وهو يعترف بجميلهم ، اذ يدعونه للاسهام فى تنظيمهم. وان مهمته الاسهام فى نشر الوعى بين أعضائها. وذلك الى أن تعد القيادات الثورية الكادحة.

- - - -

ـ ٢٥ ـ

السيدة، «السلطانة» .. هل نسيناها ؟ كيف اختفت من صفحاتنا ؟ لا . وهل يخفى القمر ؟ تزوجها السلطان، عندما كان فقيرا. كانت هى الأخرى كذلك. غير أنها كانت طموحة وثابه. تريد أن تبنى لنفسها امبراطورية خاصة. لا تتنافض مع امبراطورية زوجها. لكنها تكملها وتجملها. كانت تعنى بمظهرها عناية فائقة. لم يعد الجسد الممتلئ والجمال الشرقى، «مودة» العصر. استعانت

بالتكنولوجيا الامريكية، التى جاء بها الانفتاح، في تعديل وجهها المستدير. ليصبح مستطيلا. وخصرها السميك، ليغدو نحيلا. طالبت خبراء التجميل بأن يوسعوا عينيها، وينتهوا بهما، كما تنتهى عيون الغزال. كان فمها صغيرا، نموذجا للجمال الشرقى. طلبت تجميله، ليتسق مع النموذج الغربى. وهو الفم الواسع.

اشتد غرامها بمظهرها : رأسها مرفوعة بزاوية خاصة، حين تمشى، أو تجلس أو تنام! دقنها تشمخ بعدد معين من السنتيمترات. لا تتخفض حينما تتحدث لاحد مهما كان شأنه. اللهم الا اذا تحدثت مع الخواجات! هناك تذوى العظمة. وتنفرج الزوايا، بعد أن كانت حادة.

فيما عدا ذلك، كانت السيدة مرتبه الفكر حقا، علمية المنهج. قامت بدورها فى بناء الامبراطورية، وفى «تشطيبها» فعلت ذلك باقتدار وكفاية، تستعصى على كثير من الرجال.

أصابت تعليما متوسطا فحسب. سألت نفسها: ألسنا نحكم هذا البلد: زوجى وأنا؟ ما هو القطاع العلمى؟ أليس من قطاعات الدولة.التى نسيطر عليها؟ وأغدقت الدرجات العلمية على المرأة الطموحة.

انبهر السلطان بهذا الصعود العلمى الصاروخى ، من الابتدائية الى الدكتوراه. رضى تماما عن قطاعه «العلمى»، الذى حقق تقدما رائدا فأصبح قادرا ، على منح كل هذه الدرجات العلمية الرفيعة فى غمضة عين! حمد الله وأثنى عليه اذ وهبه زوجه ، عقلها راجح وذكاؤها خارق. وولاؤها وجمالها ، لايرقى اليهما ولاء وجمال.

«زوجتى، وحبيبتى، وسيدتى ، يجب أن تكون خليفتى! يجب أن نمهد لذلك تمهيدا ذكيا . وأن نتدرج بالفكرة تدرجا واعيا . فشعب قريتى متدين. صحيح أنني استخدمت الدين لمصلحتى، الا أنه قد يكون عقبة فى خلافة زوجتى لى. القرآن يقول : الرجال قوامون على النساء» . كيف تتولى امرأتى شئون الشعب. بمافيه من رجال ونساء؟»

«هذه مسألة صعبة. تتطلب أن أخلو للتفكير فيها فى احد مقصوراتى البلورية. هناك على ساحل البحر الاحمر ، مقصورة تستشرف الاراضى المقدسة. هل أتوغل فى تفسير القرآن؟ ما المانع؟ ألست ولى الامر؟ الله يقول : «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، وأولى الامر منكم». الله وضعنى فى المرتبة الثانية للنبى. اذن، أنا مقرب ومفضل على بقية الخلق، بما فيهم العلماء.

لكن لابد أن يكون ذهنى صافيا، كى أستطيع أن أفسر كلام الله. الذى لا يقـــربه الا المطهـــرون. وأنا لا يصـــفـــو ذهنى، الا فى مقصوراتى الخلوية نظر السلطان الى السمـاء، من خلال الحائط الشفاف للمقصورة البلورية. أطل على البحر الاحمر، بحيتانه وقروشه. ومرجانه، وياقوته. قال لنفسه: انا قوى الايمان بالله. لا أريد أن استبد برأيى. أنا ديمقراطى مع شعبى. فكيف لا أكون ديمقـراطيـا مع ربى!. لابد لى من دعـوة أحـد المشـايخ اللامـعين، لاساجله فى الفكرة وبهذا يكون معى شاهد من أهلها.

ودعى الشـيخ اللامع الى مـجلس الالهـام. الغـرفـة البلورية، جدرانها مزخرفة باصداف البحر الاحمر الفريدة، وشعبه المرجانية. كـان مع السلطان، وزير العـسس اضطرب الشـيخ اضطرابا جعله يتعثر في جبته. تشابكت أرجله النحيله، وهو يخطو فى المكان الفخيم. ذهبت به الظنون مذاهب شتى. هذه أول مـره يستدعيه السلطان، الى هذه المقصورة الخاصة. رفع الشيخ الوقور حاجبيه الكثين الاشيبين دهشا.

هذا وزير العـسعس بقضه وقضيضه يعد الجوزة، ويطعمها بالمعسل المحشو.

يقدمها للسلطان ، ليسحب منها نفسا عميقا عميقا. هذه غابة الجوزه تدور يوجهها كبير العسسى، الذى تحارب قواته المخدرات، إلى الشيخ الوقور . . تردد الشيخ . غطاه عرق غزير. ظهرت بقعه على عمته وجبته. لاحظ السلطان تردد الشيخ. شجعه قائلا:

- اشرب ياسى الشيخ.

- سيدى، ولى الامر..

- اشرب يارجل . ليس هذا حراما.

احتار الشيخ. هل يلبى طلب الحاكم، فيشترك معه فى الاثم؟ أو يرفض طلبه وهذا اثم لو تعلمون عظيم. الله غفور رحيم. لكن السلطان، وقائد عسسه. لن يغفراً له هذا الرفض. ولن يرحماه. واراد الخليفة أن يتسلى. قال للشيخ:

- اسحب نفس «ياراجل». انت عالم وعارف انه ليس حراما.

تردد الرجل.ازداد ارتباكا. لمح الوزير يمسك بزجاجة. يصب منها فى الجوزة سائلا أصفر. كان الشيخ «مثقفا»،على دراية باللغة الانجليزية. لمح كلمة «وسكى» على الزجاجة: لو اتبعنا القول الضعيف للمشايخ«الحشاشين»،الذين يحللون الحشيش،كيف نحلل

الخمر، تستخدم فى الجوزة بدل الماء؟ دخان الحشيش يختلط بالفقاعات الذهبية للويسكى.يصل الدخان مشبعا برذاذه، الى خياشيم السلطان وصدره .يخدران مخه ، ويسكرانه فى الوقت نفسه .وبذلك يسهم العنصران فى تغييب العقل. أسمى ماخلق الله للانسان.

لو أفلت من ذنب الحشيش،كيف أفلت من وزر الخمر، المخلوطة به. ياالهى:السلطان المؤمن، يدخن الحشيش مقطرا بندى الويسكى! طالما سلطت عليه كاميرات التليفزيون والصحف تلتقط صوره،وهو يسجد ويتعبد. وتبث الصور وتنشر فى كل مكان.أيبلغ نفاق الرجل. وكذبه على الله،والناس،الى هذا الحد!؟

لم يشأ السلطان أن يفلت الشيخ من يديه. اعتبر تردده اهانة لاتغتفر قطع تلك الافكار،التى ومضت فى ذهن الشيخ.كما يومض البرق فى سماء داكنة:

- ناقشنى ياسى الشيخ: اذاكنت تعتبره حراما، لماذا؟

زاد قلب الشيخ وجيبا.جف عرقه.لم تعد مسامه بقادرة على أن يسيل منها عرق جديد. ماذا يقول: أيقول ان الحشيش حرام؟وبذلك

يؤثم ولى الامر. وأى ولى..ان عقابه حال.زنازينه حالكة الظلام. أعوانه غلاظ شداد قطع الرزق.تشريد العيال. الله سيغفر لى فتواى.وأجاب:

- فخامة ولى الامر،أنا لم أقل ان الحشيش حرام.

- لماذا لاتأخذ نفسا؟

- آخذ.

قالها بذلة،وصوت خفيض.لم تفت على الحاكم نغمته. كانت الرغبة فى التسلية مازالت مسيطرة عليه،فقال له:

- حقيقة، أرجو أن تكون فى حرية تامة، عندما تقرر أن تشاركنا الجوزة.انى أعدك أن لاجناح عليك،ان اشتركت أم لم تشترك. هذا وعد يجب أن تثق به. ازداد الرجل ارتباكا. انه لايستطيع أن يسبر أغوار هذا الحاكم الواعر.لعله يدرك أن امتناعه عن تدخين الحشيش، يعنى أنه حرام. وأن ولى الامر مبعوث العنايةالالهية،حشاش آثم. انقلب تردد الشيخ يقينا:

- لا باعظمتك.. الحشيش ليس حراما.

ومع ذلك،سقط الشيخ سقطة قاتلة. كان السلطان يريدها له. واصل الحديث:

- لكن ياجناب السلطان، وقد خيرتنى بين أن أدخن،أو لاأدخن. فأرجو أن أعتذر عن عدم التدخين. كان الشيخ يريد أن يجد حلا وسطا للورطة التى تردى فيها: يرضى السلطان بعدم تحريم الحشيش،ويتجنب تدخينه طلبا للسلامة من الاثم. كان تردده كذلك أدبا. كيف يشارك الحاكم الجوزة. وهذه خصصت للمقربين والندامى.

انقلب الحاكم، على الشيخ كالافعى،وفح فيه:

- أنت تجاملنى، بأن الحشيش غير محرم. ثم تمتنع عن تدخينه. هل تعتقد أننى ساذج،أيها الشيخ؟

- حاشا لله ياسيدى.

- كيف تخادعنى اذن؟أهذا كله عفة؟ أهذا كله خوف من الله؟ أنا ولى هذا البلد.وأنت من رعاياى. وأنا الذي أقرر ماهو الحلال، وماهو الحرام. كان صوت السلطان أجش قبيحا. «خشخشته» الجوزة،والمواد المحروقة عليها. التفت فجأة الى كبير العسس سائلا:

- هذا الرجل يدخن الحشيش أم لا؟

أجاب وزير الامن والمخدرات فى الحال،وكأن الجواب فى حلقومه:

- نعم يا صاحب الفخامة!

احمرت عينا الشيخ.فغر ما بين شفتيه. استمر الوزير:

- أتريد سيادتك،أن نأتى بالجوزة من داره؟

ووجد الشيخ لديه بقايا شجاعة «دينية» ليقول:

- لكن أنا لاأدخن الحشيش ياأفندم.

نطق رجل الدين كفرا. وأسرع الخليفة يقول له:

- الان اعترفت بأن الحشيش حرام..وأننا آثمون.

تدخل الوزير موجها الكلام للسلطان:

- أتريد، ياأفندم ، أن نأتى بالحشيش من محفظة الشيخ فى بيته؟

- لاداعى لذلك- هذا هو الرجل، الذى أتحت له أن يتحدث للملايين من رعاياى فى التليفزيون والاذاعة: ماذا يقول الناس عنا؟ عينا واعظا حشاشا.. ثم وجه كلامه الى الشيخ:

- لما هذا النفاق؟ تعظ الناس بأن الخمر والحشيش حرام... ثم

تدخن الحشيش من ورائهم، بعد أن تؤمهم فى الصلاة!

خرس الشيخ.كانت اللطمة قاسية. شلت لسانه وحواسه جميعا. واصل السلطان هجومه:

- اسمع ياوزير. هذا الرجل لايصلح أن يكون اماما. ليس فى الاسلام نفاق أوكذب،وسلوكين: سلوك فى المسجد ،وتظاهر بالتقوى. وسلوك آثم من وراء الناس. عين داعية غيره .

- - - -

-٢٦ -

خرج الشيخ الكفراوى من عند ولى الأمر،كالخارج من رحمة الله، فاقدا عقله ورزقه. فى شبابه كان أبياً. تخرج فى الازهر أولا لدفعته.الثروة الدينية التى حصلها ،خلعت عليه جلالا ،وأمدته بمعرفة رفيعة،واعتدادا بشخصيته،ومن الحق أن السلطان فى أول عهده بالحكم،كان ينتقى بعض الاخيار للاسهام فى الوزارة.وكان الشيخ الطموح من بين هؤلاء الوزراء.فى الوزارة حافظ الشيخ على كرامته وقف يعارض السلطان فى مجلس الوزراء،الذى كان يرأسه،الى جانب رياسة الدولة. اتخذ موقفا شجاعا. كلفه منصبه

الوزارى.ارتفع الشيخ فى نظر الجمهور. نال شعبية كبيرة.

على ان بعـد الشيـخ عن الاضـواء والوزراة،جـعل الناس ينسونه.موقف واحد يناصر فيه الحق،لايحفر له مكانا فى ذاكرة الناس. لابد من نضال طويل، يترك بصماته فى وجدان الجماهير.

لاندرى كيف استئونفت الصلة مرة أخرى بين الخليفة والشيخ. فوجىء الناس بظهوره فى التليفزيون. يفسر للناس القرآن الكريم. ظهرت كذلك مقالاته الدينية وفتاواه فى الصحف والمجلات. نشرت له كتب عدة تحمل اسمه وصورته. تقارب تلك التى تحدث عنها «داروين» للانسـان الاول. ومع ذلك أقبل الناس عليه. الشعب متدين.والفساد يستشرى. يتنسم كلمة طيبة تقال فى الجو الملوث. الرجل فصيح الكلمة، بليغ العبارة. يلقى كلام الله كالدرر. حظت برامجه التليفزيونية بجمهور غفير لم يكن مستمعوه من الطبقات الفقيرة فحسب بل من الطبقة البرجوازية المتوسطة وكذلك من مليونيرات الانفتاح،الذين يفترسون خلق الله ثم يستمعون الى الشيخ الكفراوى يفسر لهم كلام الله. سعد به الانفتاحيون كثيرا. فهو لايمس السلب والهبر،الذى يمارسونه.أصبح الشيخ ظاهرة.وكان غريبا أن يسمح النظام له بمثل هذا الانتشار.

بعد أن طرد السلطان الشيخ من مجلسه ،قال لوزيره ،وكان بالغ العصبية:

- هذا الشيخ ناكر للجميل. لقد رضيت عنه. بعد أن غضبت عليه.وأنا نادرا ماأرضى عن انسان تنكر لجميلى عليه.

رد الوزير، الذى كان يخاطب رئيسه بشىء من الدلال. كان له دين فى عنق الخليفة. ابلغه عن مؤامرة قيل ان خصومه يدبرونها ضده. قال الوزير:

- لكن فخامتك قسوت على الرجل كثيرا .وهو محبوب شعبيا .وجعلتنى كذلك أكذب وأتهمه بأن فى بيته جوزة،وفى محفظته حشيشا .

- موضوع الكذب،ليس جديدا عليكم.كنت أكلمك وأعلم مقدما ما سوف تقول وتفعل!

ثم رفع الخليفة صوته محتدا :

- أما أنه محبوب شعبيا ،فهذا خطئى.

- الخطورة هنا أن تأثيره امتد الى الجماعات المتطرفة. احاديثه قوت دعوتها ،وأحدثت شرخا فى الوحدة الوطنية. الاقباط يكرهونه

ويعتبرونه داعيةطائفيا،يزرع الفتنه الطائفية.

نظر السلطان للوزير باهتمام قلق:

- هل لديك أدله،أم أن هذه استنتاجات؟

- مجرد استنتاجات.

- لاتنقل الى استنتاجاتك. احتفظ لنفسك بها.وعندما ترقى الى أدله أبلغنى عنها.

- سأنفذماتقول عظمتك. ولانى هو الذى حدا بى الى هذه الافكار.

- يبدو أن افكارك محلية. انت لاتدخل فى حسابك الجانب الدولى. نظرتى أنا شمولية.

- ......

- الشيخ الكفراوى كان دعامة لابد منها للنظام.

استأنف كبير العسكر تجديد ماء الجوزة.غداها بالمعسل المحشو. عمر السلطان «الطاسة». عاد لاصطجاعه على الاريكة الحريرية. اخذ يثرى الوزير بمعلومات عن الجانب الدولى فى ظاهرة الكفراوى:

- طردت الكفـراوى من الوزارة عـقـابا على تطاوله. أصـبح منعـزلا ذليـلا. لكن مـسـتـشـارى الاجـانب اقـتـرحـوا على استـخدامـه. طريقتـه فى شـرح القرآن فـريده. الى جانب بلاغـتـه، وبراعـة القائه. يدعم حديثـه بامثله من الحيـاة. لهـذا فـهـو مـقنع للناس. لفتـوا نظرى الى ظاهرة عـجـيبـة. انهم يتـخذون من رجـال الدين ودعـاتـه حلفـاء. هكذا عـلاقـتـهم بالبـابا فى رومـا، وبـاحبـار اليـهـود، وبمشـايخ المسلمين. والشـيخ خلف. مـفـتى الديار المصرية الأسبق، مثل شهير فى هذا المجال.

حاول الوزير أن يسهم فى الحديث:

- الشيخ خلف، الذى افتى بأن «الكوكاكولا» حلال. كان احمد حسين رئيس مصر الفتاة، قد هاجمها، دفاعا عن الصناعات الغازية المصرية. قـال انهـا تصنع من كـبـد الخنزير. اشرفت الشـركـة على الافـلاس. انقـذها المفـتى بفـتـواه . كـان ابنه رئيس مـجلس ادارة الشركة!

- الله، ما انت كويس أهه". أمال بيقولوا عليك ......!

- نحن تلامذتك ياسلطان.

هز السلطان "دماغـه". هزات رأسـية. وقـال لوزير عـسـه: انت

تذكرنى بأيام العز أيام الشباب. انا كنت فى مصر الفتاة فى ذلك الوقت،وأنا الذى أوحيت الى احمد حسين بهذه الفكرة!

أوشك الوزير أن يقول له:" اذن لماذا تفتح مصر لشركة الكوكاكولا،وزميلاتها لتخريب الصناعة الوطنية،وتشويه الاقتصاد المصرى". ولكنه كان خبيرا بالجام الألسنة وبانطاقها. فالجم لسانه.

واستطرد السلطان:

- قال لى الخبراء الاجانب،ان الدين اقوى الاسلحة لخدمة نظامك،وحماية الرأسمالية. فرجال الدين يعظون الناس بالقناعة، والرضا بالفقر. نصحونى باستخدام الشيخ الكفراوى. ارسلت فى طلبه. فرح الرجل الطموح كثيرا.اعتذر عن خطئه. غفرت له ماتقدم من ذنبه. قلت له: دولتى هى دولة العلم والايمان. سأتيح لك أن تخاطب الناس بالتليفزيون،ومن كل المنابر،لتشيع الايمان بين رعيتى.وتساءل الوزير:

- هل اتفقت فخامتك معه على الموضوعات التى سيتحدث فيها.

- اما انت وزير ذكى "صحيح". الشيخ كان معنا فى الوزارة. ويفهم فلسفتنا تماما،انه شيخ أريب

- الحقيقة أنه "أروبة "!

قهقه السلطان،واستلقى على قفاه قائلا:

- هذا هو الكلام. تدخلك فى الحوار يكون هكذا!

أخذ الوالى نفسا معطرا، ثم استرسل:

- التـزم الرجل تماما بالموضوعات الخادمة للنظام. انه يدرى،وغيره يدرى وانت تدرى،أن هناك أجهزة مبثوثة، فى كل مكان،تراقب الاقوال والافعال،والانفاس! وأحب الرجل أن يقدم للحاكم معلومات عن الشيخ. ،فقال:

- ان الرجل أصبح مليونيرا. ثروته تبلغ الملايين.

- أعلم ذلك.

- ولكنه يتبرع ببعض المال للفقراء،ويبنى مسجداً !

- هذا هو "التكنيك" يكسب الملايين،ويتبرع بالمئات،ويضحك على ذقون المسلمين. مثله مثل رجل آخر. كان ملحدا.وفجأة أصبح داعيه اسلاميا.قدم للمخابرات الامريكية عرضا جهنميا. هناك برنامج علمى عندهم للاطفال. اقترح عليهم أن يطلق عليه " العلم

والايمان" ويذاع على شعبنا المصرى المتدين،وعلى الشعوب المتخلفة فى العالم الثالث.ويكون وسيلة،لالها ء الشعوب عن الاستغلال والظلم. فلهم الاخره.وعرضوا على البرنامج،فقبلته على الفور.

صمت السلطان برهة ثم واصل:

- كتب الشيخ الكفراوى وشرائطه،تعبر الحدود الى أقطار الاسلام كلها.

ويبدو أن الحاكم كان قد "تسلطن" فواصل:

- أصبح يطبع شرائط كشرائط ورده وشكوكو وعدوية! يتجر فى كلام الله. كما يتجر هؤلاء فى أغانيهم.

- كان العلماء فى الزمن الماضى،يتبرعون بالعلم،لكافة المسلمين،دون مقابل.كانوا يتلمسون العزة من دينهم.

كان الوزير يريد أن يسترسل ليقول "أن العلماء الاسلاميين القدامى،كان الخلفاء والولاة يسعون اليهم،ويحترمونهم. لان المال لم يستعبدهم. فكانوا أعزة يبجلهم الحاكم قبل المحكوم،ولكنه كبت لسانه. فالسلطان لن يغفر له هذا التطاول. استعاد الحاكم كلمة " الاتجار فى كلام الله " التى خرجت من فمه وهو متسلطن. رنت

الكلمة فى داخله رنينا جعله يبوح لوزيره:

- حينما ابتكرت فلسفة الانفتاح قلت لنفسى دع الناس يثرون ماشاء لهم الثراء.لكننى أصارحك القول ،بأننى لم أقصد، أن ينقلب الانفتاح الى تهليب. لم يكن يخطر ببالى أن المشايخ الكبار،سيسهمون فى عملية الهبر وأن الاسلام والقرآن سيستخدمان فى التجارة وسوف يكون هبرا مقدسا يستغل اسم الله،وكتابه وسنة رسوله.

- ٢٧ -

دخل الشيخ مع نفسه فى حوار وجدانى مثير: الدراسة الدينية. الايمان بجوهر الرسالة السماوية،وتكريمها للانسان. النهى عن استعباد الانسان واستغلاله.الكنوز الثرية التى أتى بها القرآن الكريم لتحرير الانسان. هذه الصور المشرفة كانت تراوده شابا.ما الذى جعلها تبهت وتشيخ وتذوى؟

ماذا اقترفت يداى؟ يأخذونى الى الغرفة البلورية،دون أن أعلم السبب يشرفونى بلقاء ولى النعمة. يكرمونى بتقديم الجوزة لى.

علم الله كم كنت أرغب فى مشاركة الزعيم مجلسه،وجوزته. لكن لا أدرى ماذا دهانى ترددت،وما كان لى أن أتردد.رغبت عن منحة أتيحت لى. هيأ الشيطان الى،أن أعتذر عن قبولها.لم يكن الدين،أوالحلال أوالحرام،هو الذى منعنى عن الاستمتاع بجوزة عقيق.ينساب الماء فيها كما ينساب فى الكوثر !

لكنى حقا،لا أدخن الحشيش. وليس ذلك عن عفة أو تدين ،ولكنها عادة استمرت معى منذ أن كانت الحياة ضنكا. اعتذرت عن مشاركته أنفاس الالهام،استحياء واحتراما لكبيرنا. ألم يكن هو الذى ترك لى الخيار؟

ما أغبانى. قائد البلد - بجلالة قدره- يستضيفنى فى ماخورته " الكريستال ". ويقدم لى وزير العسس - وما ادراك ماهو - الجوزةبيدهويقفامامى،ماداالغابةالابنوسية.ثم أرفض،واتردد،ويركبنى الخبل. ويحى. اننى لضائع!

لماذا استدعيت لهذا المكان؟ ألمجرد شرب الحشيش ؟ أنا لست مشهورا فى هذا المجال.هل يريد الخليفة سمارا فى مجلسه؟ أنا لا أجيد السمر. وليس فى قاموسى غير قال الله،وقال الرسول..

وليست هذه الغرفة مما يصلح لذكر الله وسنة رسوله هل كان يختبرنى ? انا من اشد المخلصين له استخدمت كتاب الله وسنه رسوله لاشيد بحكمه وعدله. وبالرخاء والحريات التى يرفل الناس فيها... أيكون جزائى أن أطرد من المنبر، الذى استمد منه المجد والشهرة .. و.. لماذا أتردد وأنا أتحدث مع نفسى ..والثراء..

ماذا؟ العياذ بالله. ماهذا الهاجس ، الذى يدور فى رأسى: الله ينتقم منك. هل كذبت على الناس. واذعت فيهم هذا الكلام،وأنا أعلم أن الرجل من أسوأ الحكام فى تاريخ هذا البلد ، اشاع فيها القسر والفساد والهوان ، أى إثم أكبر من آن أقول للناس: انه ولى الأمر. ظل الله فى الارض،الذى يستظلون بعدله وآلائه. ما أكفرنى. كان طردى جزاء عادلا. لعل الله يكتفى بهذا العقاب فى الدنيا. ويقينا عذاب الاخره.

لكن الله يقبل التوبة عن ذنوب تتعلق به هو. أما الذنوب التى تسبب أضرارا بالناس ، فهم أجدر بالصفح عنها.كيف أسكت عن استغلال الناس، وابتزاز أرزاقهم؟ ألم يكن لى لسان وشفتان؟ ألا توجد فى القرآن كلمة تقال فى الحاكم الفاسد؟ يشرى هو وآهله وطغمته اثراء حراما، يسفك عرق الشعب. ورزقة. كيف اشرح

آيات الله الطاهرة، من تليفزيون يمسك به هذا الحاكم؟ أن الساكت عن الاثم آثم. اننى مشارك فى الفساد والنهب. اشهد عمل الكافة يتحول الى ثروات فى جيوب القلة، وأسكت. هل غشيت عيناى، وأظلمت بصيرتى؟ والله اننى لمن الخاسرين.

أيمكن أن تقتصر دروسى وعظاتى، على الصلاة والصوم وحج البيت؟ واهمل ما فى القرآن من عدل ومساواة واعزاز للانسان. الشعب يطحن بواسطة قلة باغية واحاديثى تغرق فى الوضوء والاستنجاء والحيض. بعت شعب الله بيعا رخيصا. لم أشهر كتاب الله فى وجه طغمة مفترسة. منعنى عرض الدنيا. واإسلاماه! الملايين التى جمعتها سوف تشوى جسدى فى نار جهنم.

أنت تشارك الشركات الاجنبية، والخواجات فى بيع الشرائط التى تشرح كلام الله الى عامة المسلمين تجنى منه انت والشركات أرباحا ، تستنزف من كدح المسلمين ، أكثر شعوب الارض تخلفا.

الى جانب هذه المراجعة الدينية ، كانت هناك مراجعة اجتماعية . وخزات تنفذ فى ضميره. الحاكم كريه الى أهل البلد. محنوق عليه منهم. والشيخ واحد منهم.

ان من يستغلون ويطعمون بالاغذية الفاسدة ، وتقهر حرياتهم، هم قومه وإخوته: انني أعرف الحل لا وزارى التى اسهمت فى الاضرار بالناس. الله لن يغفرها الا بغفران الناس لها سأكفر عن ذنبى بالانضمام لهم. والاسهام معهم فى ازالة الرجس.

لكن كيف؟ الثوار لم يعودوا يعملون فى الخفاء- اننى أعرف بعضهم . أبو زيد ثائر لا يخفى ثورته. أعرفه رجلا شهما من قريتى. وهو من عشاق حديثى. لماذا لا أذهب اليه. فهو رجل وطنى. ولاشك أنه سوف يقبلنى ، ويقدمنى الى زملائه.

ذهب الشيخ الكفراوى الى أبو زيد فى منزله. رحب به أبو زيد . وقاده الى «المنضرة» وطلب له الشاى. وعلى رشفات الشاى المرتفعة بدء الشيخ الحديث:

- جئت لك لتغفر لى ، أنت وزملاؤك خطيئتى. والله سبحانه وتعالى يغفر الخطايا.

- اية مغفرة يا فضيلة الشيخ الكفراوى . استغفر الله.

- لقد آذنبت فى حق الجماعة. وجئتك لتعاوننى على التكفير عن ذنبى.

- كيف ؟ أى ذنب؟

- أود أن أعترف بأننى ارتكبت جرائم جماعية كثيرة. وآود أن أكفر عنها أمضيت سنوات عده. . ادعو للسلطان. ادعم حكمه الفاسد، بأيات وآحاديث من القرآن والسنة. وسكت عن الظلم الذى حاق بجماهير شعبنا. لم أستخدم القرآن والحديث للثورة عليها . والساكت عن قول الحق، شيطان آخرس.

كان أو زيد يستمع الى الشيخ. والابتسامة تضىء من خلال شاربه الكث. لكنه لم يتمالك نفسه من الدهشة. ماذا جرى لفقيه الفساد؟ سأل الشيخ وهو يتفحصه فحصا دقيقا:

- لكن ما شأنى أنا وجرائمك الجماعية؟ هذه تحلها مع جماهير الشعب. ولست الا واحدا منهم.

- لكنك واحد مهم.

- ليس فينا من هو مهم، ومن هو غير مهم.

بلغ الشيخ ريقه. تردد بعض الوقت. لم تسعفه الكلمات. ثم بدا انه وجد مخرجا:

- الاستاذ على يعظ الناس ليل نهار، بأن يقاوموا الطغيان والاستغلال وأنا أريد أن أنضم اليه ، والى جماعته. أن كان له جماعة. أود أن أتوب الى الله والى الشعب ، توبه نصوحا.

جزع أبو زيد، حينما ذكر الرجل اسم على. هذا الرجل أمضى بضع سنين فى منافقة السلطان. كيف ينقلب بين عشية وضحايا ثوريا ؟ يريد أن يشارك الجماهير ثورتها. هل لا يعرف الرجل أن عليا معتقل؟... هذه زيارة غريبة، ومن رجل ماضية لا يطمئن. وزاد من شكوك أبو زيد أن عليا من قرية مجاورة. كيف يعرف الصلة التى تربطه به وقال له:

- من على هذا ؟

- الاستاذ على، يا أخى ، من الرباعى .

- اسمع ، ياعم الشيخ، أنا لا أعرفة.

- على الذى كان معتقلا معك!.

اذن الرجل يتابع الاعتقال والمعتقلين، فى القرية والقرى المجاورة. ازدادت ريبة أبو زيد فى هذا الشيخ. الذى يعجب يا حاديثه الدينية. ويستنكر اغفاله الايات التى تحارب الرجعية

والرأسمالية والفساد. وقال له:

- يا سيدنا الشيخ دعنا من على ومن غيره . تفضل اشرب الشاى.

لاحظ الرجل الفطن. أن أبو زيد يتهرب منه. اخبره بقصة الحاكم معه. وأنه مصمم على الانضمام للثوار الديمقراطيين أراد أبو زيد أن يبحث أمر هذا الرجل مع نفر من رفاقه وقال له:

- أنا لا علم لى بالجماعة التى تتحدث عنها. أنما أنا شخصيا مستعد لمعونتك.

عندما انصرف الشيخ، اسرع ابو زيد الى مجاهد، الذى نظم اجتماعا جزئيا للجماعة.

وكان القرار أن يظل أبو زيد على اتصال به. فالرجل قوى الحجة، فصيح العبارة. لديه حصيلة وافره من فقه الشريعة. وأستخدام هذه الحصيلة فى توعية الجماهير مسألة حيوية للثورة. فى مجتمع يقدس الدين.

حاول الفقيه أن يثبت لا بوزيد أنه تغير. حنقه على السلطان كان طاغيا فى عظاته للناس. انقلبت الايات التى تؤيد الحاكم

المستغل، الى آيات تبرز مساوئه، وتظهر عوراته. الاحاديث التى طالما دعمت القهر والطغيان، استخدمت للثورة على القهر والطغيان. نبش الشيخ فى اعماق الفقه لينتقى من الشريعة الغراء، آيات تجرم الظلم والقهر وتنادى بالمساواة. وتكفر استغلال الانسان للانسان ! لم يشفع ذلك كله فى أن تضمه المجموعة لصفوفها.

فالرجل امضى ردحا من الزمن ينافق السلطان، ويساند الرجعية. ويشارك المستغلين للشعب . على أن أبو زيد ظل متعاطفا معه طالما اتجهت عظاته هذه الوجهة.

لكن حدس المجموعة كان صادقا. فطن الرجل الى أن الثوار لايثقون به. شعر بلون من المهانة. عاد سيوته الأولى. عندما غضب السلطان عليه فى المرة الأولى، شفعت له القوى الرأسماليه العالمية.

هذه المرة، توسطت له الدوائر الرجعية العربية. أصبح ممثلها فى « البنوك الاسلامية » وشركات توطيف الأموال « الاسلامية » ظهرت صورة رجل الدين «الامام» فى اعلاناتها التجارية . أسفر

الرجل عن هويته الحقيقية. اشترك علنا فى استغلال الشعب، وسرقة آمواله باسم الاسلام.

- - - -

- ٢٨ -

استقبل الشيخ الجديد فى الغرفة البلورية استقبالا خاصا. تهادى اليها من الحديقة السندسية، يرافقة وزير العسس. امتع ناظريه بغدرانها الرقراقه وغزالها الرشيق.

كان الشيخ الجديد قطعة فنية تختال على الارض. الجبة الجوخ والقفطان الشاهى ، والحزام الحريرى. عمة بيضاء تفنن فى تفتيل« شراريبها » فبدت كتاج ملكى. أسهمت هذه الصورة الفنية، مع الوقار الذى تسبغه الوظيفة الدينية عليه، فى أن يتقدم الى المقصورة المتلالئه فى خيلاء!

جاء السلطان .هب الوزير والشيخ لاستقباله. انحنى الشيخ انحناءه حادة. لايماثلها الا انحناء المسلمين،حينما يركعون لله فى الصلاة. لم يفت ذلك على ولى الامر، ووزير عسكره. ظهر الرضاء على وجهه:

- تفضل يا فضيلة الشيخ.

جلس الشيخ. حمد لولى النعم مخاطبته بلفظ« الفضيلة». دارت الجوزة . اختلط لون الغرفة بلون الدخان المعمر. انسجمت الالوان، قبل أن تنسجم الرءوس« شد » السلطان النفس الاول، الذى يسمونه «الكريمة». الدخان عالق بخياشيمه، كان يحلو له الكلام، وهو يزفر الدخان. بعد أن يلبث فى صدره لحظات . يسرى فيها المخدر الى عروقه. التفت الى وزيره . وقال له:

- هيه ، ياشيخ العسس؟

وعنت له ملاحظة فكهة. أدار وجهه الى الداعية الجديد قائلا ، وقد بانت اسنانه المغبرة.

- هذا شيخ العسس. انما أنت سى الشيخ!

ضحك الشيخ وحده، بصوت عال. لم يضحك الوزير. لم يطلق الخليفة العنان لحنجرته كما يفعل أحيانا.«الطاسه» لم تسخن بعد. فهو فى أول الجولة.

قطع الوزير هذه الضحكة البلهاء بسرعة.. خشى أن «تعكنن» مزاج السلطان .

- لا يـاعـظمـتـك جنـابكم لم تكلفونى بشئ ، لابحثه مع سى الشيخ.

تذكر السلطان، انه احتـفظ لنفسه بالفكره. التى استدعى الشيخ من آجلها خاطب جليسيه:

- ان زوجتى الحبيبة ذات افضال سابغة على. هيآت لى جوا سعيدا فى البيت.

حملت ، وأنجبت لى ولمصر، أجمل الابناء والبنات. ولولا هذا المناخ الاسرى السعيد ماوليت أمر هذا البلد الطيب. بل ان جهودها« لاتولى » كانت السبب فى أن من الله على مصر برئيس مثلى.

حماسة السلطان انسته الجوزة. قدمها له شيخ العسس ، رفضها مرة وثانية.

قال له:

- كيف سيدنا الشيخ.

والحق أن السلطان كان صادقا فى ابراز جهد زوجته فى ولايته.

- هذه الجهود التى بذلتها فى سبيلى، وسبيل أولادى، ومن

أجل مصر، جديرة بأن تكافأ مكافأة تليق بقدراتها على خدمة الوطن.. أليس كذلك ياسى الشيخ؟

- بلى يا مولانا.

- لا، يا حلو، أنت اللى مولانا!.

كان السلطان حاضر النكته. لم يستطع أن يكبحها، حتى فى هذا الحديث الجاد.

ضحك الشيخ، وابتسم الوزير. لكن ضحكة الشيخ هذه المرة، كانت بصوت خفيض . استفاد الشيخ اللماح من الدرس ، بعد أن رأى صدى ضحكته العالية . استأنف السلطان الكلام بطريقة أكثر جدية:

- لهذا سأفضى اليكما بفكرة ، احتفظا بها ، ولا تذيعاها، الى أن نخطط لها وننفذها: أن زوجتى يجب أن تخلفنى فى الحكم! ما رأيك يا سى الشيخ فى هذه الفكرة؟

- عظيمة جدا! أن من آلاء الله على هذا البلد ، أن اختار سبحانه وتعالى لك زوجة صالحة. تسهم فى قيادة الرخاء وتتزعم حركة تحرير المرأة.

- وحكاية « الرجال قوامون على النساء »؟

- هذه فيها قولان!

-وما القولان؟

أخذ الشيخ يردد كلاما طويلا. وحاول الاستشهاد بتفسير للامام محمد عبده . بدا من التعرض له، أنه لم يدرسه، ولم يتعمقه. لذلك جاء حديثه مشوشا. فهم الخليفة اللماح الشيخ وسطحيته على الفور. ولكنه التفت الى الوزير قائلا:

- أظن الكلام مفهوم؟

بماذا يجب الوزير؟ اذا صادق على هذا الكلام المشوش، سيعلم ولى الأمر مدى تفاهته ونفاقه. وهو حريص على أن يوصف بالاصالة والولاء. واذا قال أنه غير مقتنع فمعنى هذا أن « الرجال قوامون على النساء». وأن سيدة السلطنة، لا يمكن أن تقوم على الناس. أو تتولى العرش خلفا له. بدت حيرته. انقذه ولى الأمر:

- والله هذا الكلام جميل ياسى الشيخ.

رضى السلطان عن رأى الشيخ الذى يتفق وهدفه . ولو أنه لم

يقـتنع بالحـجج التى اسـتـخـدمـهـا. انما هذا هو الرجل الفنى فى المسـائل الدينيـة. وهو سـيلقى ربه بهذا الرأى: فى مـبدأ« الرجـال قوامون على النساء» قولان.

ورد على الشيخ:

- أرجو أن تتعمق الموضوع. ياس الشيخ. لكى نصل الى رأى مدعم بأصول الدين وفقه الشريعة.

- - - -

ارتقت زوجـه السلطان مـدارج السلم الاجتـمـاعى والسـيـاسى ارتقـاء سريعا. تم ذلك بخطوات واثقة واعـيـة. لم ينتظر الخليـفة، الدراسة التى يعدها الداعيـة الدينى الجديد: اننى أعرف نتيجتها مـقـدمـا. لـن تخـرج عن رأى من رأيين: «النسـاء قـوامـون على الرجـال» أو عـلى الاقـل، النسـاء والرجـال قـوامـون عـلى بعضهم بعضا!

أنا أعرف سلفا، أنه سيستعين بالسيدة خديجة زوج الرسول. وكيف كانت ساعد الرسول الايمن فى صدر الاسلام. وسيضرب لنا مـثل السـيـدة عـائشـة. التى كـانت تقـود المسلمين، وتدرس لهم. وتجلس منهم فى مكان الصدارة. هذه الامثلة، ليست بحاجة الى

عبقرية دينية أنا استعنت بأسم السيدة خديجة سألنى أصدقائى الصحفيين الأجانب عما اذا كانت زوجتى تتجر، وتكون ثروات كبيرة . اجبت ببساطة شديدة: نعم! أن لنا فى آل رسول الله قدوة حسنة. كانت السيدة خديجة، زوج النبى تاجرة وثرية . لماذا لا تتجر زوجتى وتثرى؟

ألا يعلم الرجل أن التشبيه بين زوجته وزوجة الرسول لا يليق. كما أن فيه مغالطة واضحة. كانت زوج النبى غنية من أغنياء قريش، قبل أن تتزوج محمدا، صلى الله عليه وسلم. ثم هى انفقت أموالها فى سبيل الله وفى سبيل دينه، ونصرة نبيه. وكان لها دور كبير فى المرحلة الاولى الحرجة من الدعوة. أما زوجة حاكمنا، فكانت فقيرة قبل أن يلى زوجها الحكم. ثم تاجرت وزمرتها فى آقوات الناس، وحاجاتهم المعيشية. وكونت هذه الثروة الطائلة من استغلال حرام لعمل الجماهير. واستعانت بسلطة زوجها فى جمعها.

لم يكن التخطيط لتولى السيدة الطموحة الحكم بعده، مقصورا عليه. بل تولت هى رسم الخطة بنفسها: خلافتى له موضوع دقيق. دوره فيها ، تبريك وتقنين فحسب. سأباشر أنا خطواتها، مع الدائرة الاقتصادية التى كونتها.

بدآت الخطوات الواثقة نحو« العرش» تتخذ مسارها. كانت أول خطوة، هى عضوية« السيدة» للمجلس الشعبى بأحد الاقاليم. لم يجرؤ أحد على ترشيح نفسه فى الانتخابات ضدها.

فازت السيدة بكرسى المجلس المحلى دون منافس. أرأيت؟ البلد تزكى سيدتها للمجلس الشعبى للمحافظة. هذا رضاء للناس عن تمثيلها لهم. أنها تمثل الرجال والنساء معا. أليست هذه خطوة ذكية نحو ولاية السيدة للبلد؟ ما الفرق بين التمثيل والولاية. الشعب راض عنها، والخليفة - بطبيعة الحال - راض كل الرضا. ورضاء الخليفة والشعب من رضاء« الله» الذى يريدها قوامة على الرجال!

الخطوة التالية الاهم: رياسة المجلس. كان وصول الزوجة اليها يسيرا. أصرت على تخطى حاجز الـ ٩٩٫٩٩٪ الذى لم يستطع زوجها أن يتخطاه.

صممت على أن تلى رياسة المجلس بالفوز بـ ١٠٠٪ من أصوات الاعضاء. تحقق لها ما أرادت. زاد هذا الفوز من حدة الزاوية التى ترتفع بها رأسها فوق رقبتها.

ازداد الشعور بالعظمة، واشتط الكبرياء.

ابتهج السلطان بنبأ الـ ١٠٠٪ الذى ساقه له وزير العسس، لم يثر غيرته. زوجته الحبيبة، يحبها الناس أكثر منه بـ ١٠ر٪ هنيئاً لها ثقة الجماهير. وهنيئاً للعائلة السلطانية. العناية الالهية تبارك خطانا. الطريق أصبح ممهدا لزوجى لخلافتى. ما الفرق بين أن ترأس زوجتى مجلس شعب المحافظة، وأن ترأس مجلس الشعب كله؟ الامر واحد وسهل. رئيس مجلس الشعب، سأضعه فى البروتوكول، بعد رئيس الجمهورية مباشرة. أصبحت المسافة بين زوجى وبينى خطوة واحدة. رئيس مجلس الشعب، يتولى الجمهورية فى حالة «خلو» الكرسى. وحين تحتله هيهات أن تتركه.

سارت الخطة قدما: أصبحت بصمات السلطانه فى توجيه شئون الدولة، لا تقل عن بصمات زوجها. كانت قويه. تركت له قطاع السماء، يجوب آرجاءه. وقطاع الجوزة يهوم فى أجوائها. وقطاع العسس، غير الملائم لسيطرة النساء عليه. بنت الامبراطورية الاقتصادية. سيطرت عليها مع أبنائها، وذوى القربى. دان لها العلم: جمعت المجد من أطرافه الاقتصادية والسياسية والعلمية.

الاشجار الباسقة تخر صرعى. الاغصان السمهرية تتقصف. الطير الصادح ينوح. يطير فى جماعات مذعورة. تهجر أعشاشها. ماذا دها الاكمة؟ كانت مرتعا للحب ومربعاً للثورة، ودوحة لمخلوقات حلوة رنامة.

جرارات تهدر . آلات تثير ضجيجا. ماذا يحدث؟ قوات الحاكم الميكانيكية والبشرية تفتك بالاكمة. وتمارس مذبحة بين آشجارها.

كانت المجموعة الثورية قد وصلت فرادى الى حافة الاكمة. فجأهم المشهد. دار مجاهد على مواقعهم فقد كانوا يردون من مسارب مختلفة، وجد لهم مكانا آخر فى قرية مجاوره. وعندما عقد الاجتماع قال لهم:

- الخليفة افترس الدوحه ، ليبنى مكانها قصرا، واستراحة، ومقصورة

وعلق أبو زيد:

- ألم يشبع قصورا واستراحات على شواطىء البحار والخلجان والبحيرات والانهار، فجاء يذبح الاشجار؟

ورد راشد:

- هذه متعه جديدة. اختار وسط الدلتا ، ومروجها الخضراء.

وتدخل خالد:

- ما يشغلنى ليس السفه الذى يبعثر به هذا الرجل آموال الشعب الكادح.

ولكنى أخشى أن يكون قد وصله علم بالجماعه، وباجتماعاتها فى الاكمة.

وقال فوزى: لو كان اكتشف اجتماعاتنا، كان رجاله يتربصون بنا« »ويقفشونا».

وعقب صوفى: أكبر الظن أن الترف هو الهدف.

كان الاجتماع، هذه المرة عاصفا. يبدو أن الاعاصير التى أطاحت بالدوحة، امتدت اليه.

حضر الجلسة، أبو زيد، بعد خروجه من المعتقل. حمل لهم أنباء غير سارة:

- استخدموا معى كل أنواع البطش الوحشى، لاعترف على

الجماعة. صمدت صمودا يفوق طاقة البشر. الا أن بعض شباب الفلاحين اشترك فى هبة الخبز. سلطوا عليهم زبانية جهنم. كلاب السلطة تمزق أجسادهم، بعضهم صمد ببطولة نادرة. وبعضهم كان التعذيب فوق طاقته. إعترفوا على زملائهم. لكن لحسن الحظ، كان المعترفون كذلك أبطالاً. اعترفوا على آفراد قلائل. لا على المجموعات كلها. ولم يذكروا أسماء رؤساء المجموعات لهذا فالأثر ضئيل والخسائر محدوده.

وأجاب فوزى: عن المجموعات الطلابية :

- الذين عذبوا الطلاب، لم يعذبوهم- لحسن الحظ- لانهم مجموعة « هدامة » تعمل على اقامة الاشتراكية. ولكن نظروا اليهم كخليط: ناصرى، واخوانى، وتكفيرى، وشيوعى، لهذا وزعت وحشية المعذبين على هذه المذاهب الاربع ونال أعضاء مجموعاتنا « ربع التعذيب »، فلم يعترفوا. ليس فى قطاعنا خسائر.

أما راشد فقد أعطى فكرة عن قطاع العمال. قال:

- العمال، كما تعلمون متهمون دائما بالشيوعية! لهذا عانوا « أربعة أرباع » التعذيب الهمجى. تحمل البعض، وانهار

البعض الاخر. وقد دمرت مجموعة بأسرها ما عدا قائدها للحظ السعيد. فقد كان بطلا خرافيا. لم يعترف. ومازال معتقلا.

ومازال المجرمون يقطعون لحمه. وفيما عدا هذا فالخسائر فرد هنا ، وفردان هناك. وأما صوفى، فقد فاجأ الجماعة بقوله:

- لقد تحملت وحدى غارات الذئاب المسعورة. وحميت مجموعات« المقاولون» فلم يمس أحد منهم. ويبدو أنهم اعتبرونى رأسهم. ولما لم أعترف . وأشرفت على الهلاك، نقلونى الى المستشفى. لم تنغرس أنيابهم فى ضحايا آخرى.

خالد صامت ، يستمع. مجموعته لم تسهم- لحسن الحظ أو لسوئه- فى يومى الرغيف. لم يكن هناك قرار تنظيمى بالاشتراك. عبر عن رأيه للجماعة، بأنه يتخوف من تلك الحركات. ربما تسىء الى العمل الثورى. وأرجو ألا نسرع بالمعركة قبل أن تنضج الظروف الموضوعية.

هبت محبوبة فى وجهه، على الرغم من عاطفتها نحوه:

- الظروف الموضوعية مرة أخرى؟ تعبير سمعته منك، ومن زملائك، فى محاضراتهم. ولم استطع فهمه حتى الان.

ارتبك خالد. لم يتوقع من صديقته، هذه الغضبة. والسؤال يحتاج الى اجابة طويلة وصعبه. لاحظ فوزى ارتباكه، فأدركه:

- لعلك لا تقصد بنضوج الظروف الموضوعية، أن تتطور الصناعة، وتكبر القوى العاملة، وتتكتل وتصل إلى مرحلة من الوعى، تمكنها من الاستيلاء على الحكم.

وأجاب خالد:

- هذا بعض ما قصدته.

ورد فوزى:

- لكن هذه نظرة تقليدية. لا تتسق والثورات التى قامت بها الشعوب فى الصين، فيتنام، كمبوديا، كوبا، وغيرها. بل أن الطبقة العاملة فى روسيا كانت أضعف الطبقات العاملة فى آوروبا. وكانت الصناعة ضعيفة. وكانت تعتبر بلدا زراعيا، أكثر منه صناعيا.

- هذا صحيح. لكن روسيا كانت الحلقة الضعيفة فى الرأسمالية الغربية فأستطاعت الطبقة العاملة، بقيادة هائلة، كلينين، أن تهزمها.

- الرأسمالية في مصر، وفي أفريقيا، هي أيضا تمثل حلقة ضعيفة في الرأسمالية العالمية. فالقوى العاملة وغيرها من القوى الثورية تستطيع هزيمتها.

أما قيادة لينين للثورة السوفيتية، فالمهم هو الفكر الذي يبثه الزعيم بين الجماهير. وفكرنا مبثوث في الحقول والمصانع والجامعات وغيرها.

- الجماهير في مصر، مازالت غير واعية. ويعوق وعيها، ويمزقه، ماتبثه أجهزة الاعلام الحكومية. وكذلك ما تبثه الاحزاب والجماعات السياسية والدينية القائمة.

وأسهم مجاهد، الذي يحافظ على حياده في المناقشات:

- الكادر الذي نعده، وعيه عال، وتنظيمه كفء. الدكتور خالد نفسه اسهم في ذلك. الجماهير تستشعر الجوع في بطونها، والقهر يمزق ظهورها. ويخرس ألسنتها. هؤلاء كذلك جنود لحركتنا، أسهمت الحكومة الفاسدة المستغلة في تعاطفهم معنا.

رأت محبوبة الدائرة تضيق حول خالد. حاولت نجدته.

- معظم ما قيل الان، سمعناه من الرفيق خالد، في محاضراته، ومحاوراته معنا.

شجع ذلك خالد على القول:

- التحقق من نضوج الوقت للقيام بالثورة، أمر أساس يتوقف عليه نجاح الثورة أو فشلها. لهذا يجب أن يبحث بعمق وأناة، على مستوى الحركة كلها. وما موقف الجماهير؟ ما هو دورها فى عمل منظم. ما هى كفاءة التنظيم رقدراته؟

ما هى قوة الخصوم؟ ما هى الخطة: كيف نبدأ ومتى، وأين؟

- - - -

- ٣٠ -

افرج عن على. كان افراجا كالاعتقال، أو هو أسوأ . شرح جزارو المعتقل جسده تشريحا دقيقا. لم يعد التشريح مقصورا على الاموات، كما يفعلون فى كليات الطب والمستشفيات.

عجل على بالذهاب الى قريته. لم يذهب الى بيته. حيث أمه وأبوه الطاعنان الطعينان. وحيث أخواته الزهرات الذابلات اللائى سكبن على فراقه دمعا سخينا. غاض الدمع، فغدت العيون جافة صدئة. ذهب على الفور الى بيت محبوبة يبدو أن الجزارين فى

المعتقل لا يهتمون بالقلوب! مازال قلبه مفعما بحبها. رغم ما عانى من أهوال، تنفطر لها قلوب الرجال.

دخل الى منزلها. اتجه الى « المندرة» . تخطى عتبتها. وجدها مع خالد! فوجىء وفوجئا. لحسن حظه وحظهما، كانا متباعدين. خالد مستغرق فى حديث عن الثورة. وحينما يطرق خالد هذا الحديث، ينسى نفسه ومن حوله. تحتد ملامحه. ويندمج بكيانه كله فى الحديث. استولى الحديث على محبوبة. فهى عاشقة لهذه الموضوعات. تتساقاها بروحها وعقلها وقلبها جميعا. يفقد وجهها خلالها ملاحته. ينسم بجدية، تزم معها شفتيها وحاجبيها.

قفز خالد من مكانه ليعانق عليا. دفعه هذا بعيدا عنه. نظرا اليه. وجدا عينيه زائغتين. توارت فيها المعانى القديمة. ماذا جرى له؟ ليس بوجهه آثار للتعذيب. ترك البرابرة وجهه، لم يشرحوه. ومع ذلك كان هناك« شىء غلط » تكوينه الجسدى، ليس هو التكوين القديم. نظراته غائمة.

أنه يحيى محبوبة بحماسة. هل غضب لانه وجد خالد عندها؟ الغيرة؟ كيف يغير من انسان يكبر« محبوبته» بثلاثين عاما.

ويكبره بعشرين. زميل فى الثورة . استاذ فى الجامعة . لا يمكن أن تقوم بينهما علاقة حب. متزوج ، وأبناؤه فى سنها. أمنعه وجود خالد من أن يقبلها ، ويأخذها بالاحضان؟ التقاليد تمنع هذا العمل فى حضرة الناس . ولو أنه يمارس بطيش وجبن وسرقة من وراء ظهورهم. لا تمض فى تحليلك. كان على مع وحوش الغابة فاغفر له سلوكه.

قال له خالد فى مودة:

- أحك لنا قصتك من آولها.

أجاب على فى جهامة، وبصوت يشبه الصراخ:

- ليس هناك قصة.

- قصة الاعتقال؟

- هل تعتبر الاعتقال قصة، أم مجزرة للانسان؟ على أية حال، لا اذكر منه شيئا. صاحت محبوبة واجفة:

- ماذا تقول يا على؟

هذا هو خالد . زميلنا فى الثورة. لا تخشى أن تحدثنا عن الاعتقال .

- أعرف أن هذا خالد. ولكننى لا اعرف شيئا باسم «الثورة»!

- خفف عنك ، واسترح. ماذا أصابك؟

جزع خالد ومحبوبة جزعا شديدا. تلاقت خيبة الامل فى عينيهما. قطع على النظرات اليائسة بقولة:

- الان، هل يمكن أن أختلى بك يا محبوبتى؟

بلغ حرجها منتهاه. انقذها خالد. انتصب واقفا على الفور. وقال لهما:

- سلام عليكم.

اعترضت الفتاة:

- لا. لاتغادرنا. أرجوك. انتظر. لاتذهب هكذا محزونا.

أصر خالد على الانصراف. اخذ طريقه الى باب المنزل. لحقت به. تضرعت اليه أن يبقى. صمم على الذهاب. قالت له:

- هل تتركنى وحدى ، مع على ، وهو ممزق على هذه الصورة؟

الشهامة من شيم خالد. لا يتخلى عمن يطلبها منه. صديقا كان أو غير صديق. فما بالك بمحبوبة . كانت وحيدة، تخشى

الانفراد بعلى. وكان على، الذى أحبته وزاملته، ممزقا.

حالة على سحقت أعصابه أصبح هو أيضا فى حالة نسى معها الشهامة. لم يحس ضراعة محبوبة وحاجتها اليه. فى هذه اللحظة كره الدنيا. أصبح الجميل قبيحا والطيب خبيثا. لم يستجب لرجائها كانت أعز أمنياته أن يستجيب لها. قال لها، وشعور بالضياع يلتهم خلاياه:

- لا أستطيع البقاء. الى اللقاء.

عادت الى الغرفة طعينة. تطاطىء رأسها. طالما رفعت رءوسا كانت خفيضة. نفثت فيها الحياة، والخيلاء، والأمل. لا أحد يسهم فى رفع رأسها. تخلى عنها الانسان، الذى تكن له عاطفة، لا ككل العواطف. وهذا حبيبها ورفيقها، الذى كان انسانا، نزعوا منه هوية الانسان. تقدمت الى« المندرة» بخطى مثقلة. انحطت على «الكنبة» بعيدا عن على. قال لها:

- تعالى إلى جوارى.

ردت عليه بصوت، لايكاد يبين:

- لا. هنا «كويس».

- هكذا تلقينني بعد غياب سنة.

وجدت حججا تبرر بها تباعدها:

- أبى وأمى فى منزل جارنا. وسيحضران فى أية لحظة.

- لكنك كنت جالسه الى جوار خالد.

- كنت بعيدة عنه.

- لم تقبلينى؟ هل تذكرين لحظات حبنا العاصفة؟

- قلت لك أمى وأبى قادمان.

رجاها على مرة أخرى:

- قبلة عاجلة، تروى ظمأ السنين.

- لا أستطيع!

لمعت فى مخيلتها الايام الخوالى: أول شاب تفتحت براعمها على حبه. دفاعه عنها ضد كلاب الاقطاع، انتشاله لها من وحل حقول الارز. الشباب الذى جمع بين الثورة والحب. سراهما على شاطىء الغدير، الجزع، وانشراخ القلب، والمرض، حينما اعتقل. هكذا الانسان؟.. كل هذا، وابخل عليه بقبله، قد ترد

عليـه قلبـه؟ ومـاذا يدريني، قـد ترد عليـه عـقله وثورته. كـيف استطاع البرابرة أن يفرقوا بين عقله ووجدانه وبين قلبه. همت أن تذهب اليه، وتسلمه شفتيها. الا أن أبويها حضرا، ودخلا الغرفة. آخذوا علياً بالاحضان. لعن علي- الذى أحس بحركتها نحوه- الدنيا والاخرة. تبخر حلم، ظل يراوده سنة طويلة فى ظلام الزنازين. عندما غادر والداها الحجرة، تجدد الامل مرة آخرى. غير أن شرارة الذكرى كانت قد خبت فى وجدانها. اختلقت موضوعا آخر:

- « يادى الفضيحة» ، لم نقدم لك شرابا!

أسرعت الى خارج المندرة. سمعته يرجوها صادقا أن تبقى:

- انت شرابى، وغذائى.

شغلت نفسها فى اعداد شراب له. ضاق صدره بالانتظار. غادر البيت قبل أن تعود بالشراب. عندما عادت ولم تجده، سقطت صينية الشاى من يديها. لم يكن سقوطها لهفة عليه، كاللهفة القديمة. ولكن لانها تعزه، وتأسى له. فقدت فيه حبيبا وزميلا ثوريا.

هل جنت عليه،وغدرت به؟ انها لاتنكر أن قلبها قد رف لقلبه الرفة الاولى. أكانت اعجابا بشاب سمهرى،متعلم،يلبس البدلة والطربوش؟ خفقه قلبى له.كانت اكثر عمقا.كان أول انسان ينقل لى المعرفة الثورية.أكانت عاطفتى نحوه نوعا من العرفان بالجميل؟ لم يقل لى أبدا أنه يريد أن يتزوجنى.أيكون التعليم قد ولد عنده شعوراً طبقياً؟ جعله لا يريد أن يتزوج بنتاً فلاحة. لكن ثورته على الطبقات الأقطاعية والرأسمالية، يعلنها فى كل مكان وزمان. أيكون انشغاله بالثورة قد ملك عليه نفسه. فلا توجد فى قاموسه كلمه« الزواج » الآن؟

ترى أيكون خالد، قد أسهم فى أن أنسى عليا؟ ألا أنك لفتاة هالكة. خالد ذو الخمسين عاما، المتزوج، الاب، كيف ينسيك عليا؟ لا. ليس هو الذى أنسانيه. الحق أنى لست أدرى.

ماذا تسمين المشاعر التى تربطك به؟

على أن خالد حقيقة، لم ينسنى عليا. فأنا لم أقارن بينهما . أعلم أننى لن أتزوج خالد. على كذلك لم يفاتحنى فى الزواج.

ماذا لو عرض .عليك الزواج من قبل؟ سؤال صعب. لكن يجب

أن أكون شجاعة. الاجابة هى أنى كنت أقبل .. والآن؟

- الان.. أرفض!

- من أجل خالد؟

- لا. قلت من قبل، أن خالد ليس موضعا للزواج.

- لماذا ترفضين.

- أن عليا من غير ثورة ليس عليا. انتزع منه أمر غالٍ جميل: حرارة النضال من أجل الانسان.

- والعهد الأول، والشرارة الأولى للحب؟

- لم يكن هناك عهد.

- ليس من الضرورى أن يكون العهد كلاما أو كتابة. العهد يسكن فى القلب .

- الخفقة الأولى قد تصدر عن قلب يافع ، غير ناضج!

- الخفقة الثانية ، بعد أن نضجت، كانت قوية، دعمها النضال المشترك.

- واحسـرتاه عليك يا على. مـاذا أقـول؟ . لابد أن أعـتـرف. حينما جمعنا بين الحب والثورة همت بك هياما شديدا. أسأل ماذا أصـابنى بعـد اعـتـقـالك. أوشكت أن أترك صـفـوف الثـوار من أجلك. قلت لهم قولا صريحا: لا ثوره عندى بدون على. ولولا أن خالد أنقذنى، لفقدتنى الثورة .. لكننا يا على لم نرتبط بالزواج، ولا بوعد به ، ولا بحديث عنه. وها أنت يا على قد نهشت الذئاب لحمك وعظمك وعقلك. لم تعد تذكر الثورة والثوار. ماذا يمكننى أن أفـعل من آجلك؟ سـأذكـر أيامنا الحلوه يوم أن كـانت الدنيـا علياً ،والثورة عليا أنا مدينة لك بحياتى ووعى. وبالسعـادة التى تغمرنى، كلما حضرت اجتماعا ثوريا. هذه المعانى ستظل تتخايل أمام ناظرى. ومعها صورة الانسان الذى زرعها فى وجدانى.

لكننى استسمحك، ألا أستمر فى حبك! فأنا أحب الثورة، واتوله فيها، كما تعلم. وقد تخيلتك الثورة، فلم تكن منفصلاً عنها فى وجدانى. وحين خرجت من المعتقل واستلبوك أعز ما تملك، وهو الوجدان الثورى، لم تعد عليا. أصبحت بدون الثورة مخلوقا آخر. فقد أحلى ما يمكن أن يجمل الانسان. لهذا، كيف أحبك، وأنا أحب عليا ؟!

لا يعنى هذا اننى اكــرهك، أن الشــورى لا يكره. وهو من بـاب أولى لا يكره أولئك الذين علموه الثورة سأظل أحبك بقدر ما أحب ما ضيك. وسيظل قلبى يتفطر كلما القاك. لك الله ياعلى

ـ ٣١ ـ

خرج خالد من بيت محبوبة هائما على وجهه. تخبطت فى رأسه معان مهينة. تصيب شيئا كان يعتز به: احترامه لنفسه، واعتداده بقيـمـه. هل طعن صديقـا، فى أثمن مـا يمتلك : فى حبـه ؟ آواه: كيف أخون صديقا؟ محبوبة كانت تهيم به. سقطت صريعة أسى عليه، وهو فى معتقله. فى الفترة الاخيرة ، لم تكن تذكره كثيراً. تخافتت العاطفة فى جوانحها. أيجوز أن أسهم فى اخماد هذه الشعلة؟ لعمرى، أن عليا ليس صديقا فحسب. انه زميل فى الثورة. بطل من أبطالها. وهب نفسه للهجوم على أعداء الانسان، سرا وجهرا. شرب من التعذيب حتى ثمل، ركزوا على عقله حتى خربوه.

أأخون زميلا ثوريا؟ أنا الذى قضيت عمرى أحلم بتنظيم

للقوى العاملة الثورية، تتجمع لبناء مجتمع جديد. أطعنه فى ظهره؟ ألا تكفينى سياط القهر تحفر أخاديد فيه. أفصم ما بين قلبين، ربطهما الحب؟ يحلمان بعش الزوجية.. كما يحلمان بوطن لا استغلال فيه. أنهما ليسا حالمين. انهما مناضلان يبذلان الجهد، والعرق ، والدمع، لتحقيق الهدف الكبير.

كان« بطل الابطال» فى المعتقل. قطعوا أطرافه من خلاف. استحالت خلاياه شرائح، وأعصابه نتفا، مع آلات التعذيب التكنولوجية. ومع ذلك بقى بطلا. لم يعترف علينا. كان اعترافه سينقذه. وسيهدم تنظيمنا كله. فهو عضو فى أحد الجماعات القيادية. آلا حياك الله يا على. وحيتك الثورة هنيئا لك البطولة.أخذتها كلها لم تترك لى شيئاً وزوجتى الجميلة كيف أجرم فى حقها لا. أنا لم أرتكب جريمة .

- اقسم كذلك، اننى لم أضاجعها.

- لا.. أنت تكذب.

- اقسم أننى لم أضاجعها الا فى خيالى.

- هكذا أنت تعترف. فهذا دليل على رغبتك. بل أن خيالك يوحى بالواقع!

- لم تكن مضاجعة من النوع المألوف بين الناس. كانت هاجسة من هاجسات الخيال. كنت أتخيل رأسى راقداً على صدرها. لم استشعر أحساسا بالجنس. كنت أحس أننى أضطجع على أرضنا الحنون الخصيب. يتضوع منها عطر نوار الفول، وزهر البرسيم، وورد القطن.

مجرى العبير بين نهديها، ينساب منه الماء زلالا. يزيد الأرض خصبا ونماء. وجيب قلبها يشجينى. نبضاته تبعث لى برسائل الحياة والثورة. ايقاعها يفرد بالأمل، والنصر، والمجتمع المتحرر.

مافتىء خالد هائما على وجهه. هل خان علياً حقا؟ وخطف منه محبوبة؟ سنه، وزوجه، وولده، وثقافته. أنه لا ينكر أنه اعجب بالفتاة لأول وهلة. لكن اعجاب الرجولة بالانوثة توارى، حينما علم بعاطفة على نحوها. وبأنه ينوى الزواج بها. وتحور مع الوقت الى اعجاب بثورية فريده. اتتعارض هذه الرابطة مع الوفاء لرفيق؟

وعندما عنى بها أخيرا، كان ينقد ثوريه. توشك أن تنهار

لاعتقال حبيبها. كان يبذل جهده، حتى لاتضيع على الحركة هذه الدرة الغالية، التى تتجمع حولها درات الريف الحبيب.

ومع أن وخز الضمير بدأ يخف وطؤه، الا أنه لم يشف من الصدمة تماما.

هكت خالد اسبوعا، لايرى محبوبة. ولاتحادثه فى التليفون. اصبحت حالته النفسية أكثر سوءاً. وكانت هى فى قريتها مكتئبة كلك خيل اليها أن خالد يقدم لها علاقة جديدة حلوة. هذا هو يتخلى عنها فى أدق لحظات ضعفها واساها. ثم لايصلح ما أفسد. لم يأت الى القرية ليراها. وكان يأتى دائما لزيارتها.

بدأ الاسبوع الثانى. ليس هناك اتصال، استبدت به الوحدة. كانت زوجة وأولاده، يمضون أجازة طويلة فى الخارج. أنه يتوق اليها، وإلى حواراتها وآحاديثها التليفونية. كانت فيه بقايا ريفية. يستخدم كبرياءه استخداما بدائيا: لابد أن تبدأ هى! البنت الفلاحة. المعجونة فى التقاليد، تعليمها الأولى، وسنها. هل تبدأ؟ ما أقساك وما أبعدك عن الرشاد. على أن الرغبة فى

رؤيتهـا ، استعـرت فى كيـانـه. يود أن يثبت لهـا ، أنه لم يتـخل عنها. وانه مازال شهما!

بينمـا كـان يستـعـد للرحلة الى قـريتـهـا ، إذا بـالتليـفـون يدق: محبوبـة ! الصوت البدائى يفـقـد جرسـه. والكلمـات الطليـقـة، يقيدها العتاب:

- لن أكلمك بعد الان..« أنا مخاصماك».

- لا أقوى على الخصام.

- هل هذا يجوز؟

- لا. لايجوز . سأحضر اليك الآن!

فرحت. عاد ايقـاع الصوت البدائى من جديد. وصل الى بيتـهـا فى القـرية كـالبـرق. وجـدها واقـفـة على البـاب تنتظره. العيـون مقروحة. سلمت عليه بيد مرتخية. فى لقاءاتها الماضية ، كانت تضم يده بكلتـا يديهـا. تشـد عليـهـا. وتقربها من قلبـهـا. وكـأنهـا تقول له: هذه دقات قلبى. استمع لهـا. شعر بذنبه، عندمـا تخلى عنها فى محنتها. قادته الى المندرة. بدأت الحديث.

- ما كنت أتوقع أن تتخلى عنى.

- كنت مهزوز النفس ، جريحا. سامحينى.

- عشرة أيام لم آرك. ولم تأت. آهذا مكانى لديك؟

- أنت تعرفين مكانك. كنت فى معركة عاتية. أنا أعتذر .

- المهم أنك جئت.

- هل رأيت عليا ؟

- ويحى من على.

- ماذا حدث؟

- يأتى الى دارنا ليلا ونهارا.

انحدرت الدموع من عينيها. ثم أجهشت ببكاء، انقلب نحيبا. وضعت رأسها على كتفه. حاول أن يهدىء روعها . تلقى دمعها فى منديله، يده تربت على كتفها ورأسها.

- لا عليك أيتها العزيزة.

- عندما انتهت نوبة البكاء، قالت بعيون كسيرة:

- جاء يطلب يدى.

- ألم يقل لك شيئا عن الاعتقال؟

- أنه لا يتكلم أبدا عن الاعتقال، ولا عن الثورة. يبدو أنه ليس فى ذاكرته أثر لهما على الاطلاق!

- أمر غريب. هل تلقينه كثيرا ؟

- لقيته أول الامر، مرتين على انفراد. حاول تقبيلى بالقوة. ثم هجم على، لعناقى غصبا.

لكني افلت منه. لم يعد عليا، الذى اسلمته نفسى فى الدوحة فابقى على بكرا. ثم بدأ يتحدث عن الزواج، قلت لوالدى أن يبقيا معنا دائما.

- وماذا قلت له؟

- ماذا أقول. اننى لم أعد أحبه! خبت ومضة الحب ولهفته.

- كيف؟ هذا يعذبنى. أحسبنى أنا السبب.

- أنت بعيد عن الموضوع تماما. أنا لن أتزوجك. ولن أتزوجه.

- كنت مغرمة به.

- انه الان ليس عليا الذى أحببته.

- ضميرى يعذبنى، اذ فرقت بينكما.

- أنت لم تفرق بيننا. لابد أن أصارحك. أنا أعرف أن عطفك على، كان من أجل الثورة! فأنا لم أحبك بدلا منه. كذلك فالعوائق كانت أمامنا. وكنا على وعى تام بها. ثق تماما أنك خارج الحلقة. وعلاقتى بك مختلفة. فيها روابط بشرية فريدة. وكنت سأظل مرتبطة بك ، بهذا اللون من العاطفة، أحببت عليا ، أو تزوجته، أم أحببت غيره. فخفف عنك أرجوك.

تنفس خالد كثيرا من الصعداء. قال لنفسه: صدقها« اعمل معروف» هذه فرصة لتحرر نفسك من عذاباتها. وأراد خالد أن يقدم لعلى معروفا. لعله يخمد أصواتا، مازالت تتهامس فى داخله. قال لها:

- لماذا لا تتزوجين عليا ؟

- أهذا جزائى، وقد خففت عنك؟

- شاب متعلم. يحبك. بطل. كان أكثر المعتقلين بطوله.

- أنا أعرف ذلك عن على. طالما قال لى، أنه يرجو أن يعتقل

ليختبر ايمانه بالثورة. ومع ذلك، كيف اتزوجة لم يعد عليا. لم يعد ثوريا.

- أفترض أن شاباً غير ثورى، تقدم يطلب يدك. هل لا تتروجينة؟

- لا. أصبح هذا العنصر لصيقا بالرجل، الذى أقبله زوجا. الرجل غير الثورى، لا يروى لى عطشا، ولا يشبع جوعا!

- تزوجى رجلا غير ثورى. ونحن نملأ الجانب الثورى!

- أنت ملأته« واللى كان كان»!

سكتت لحظة، تنهدت فيها، وقالت:

- لا أستطيع زواج على. حتى ولو قبلت زوجا غير ثورى. فلن أقبل عليا.

- لماذا؟

- على كان صوره تجمع بين عناصر متكاملة. أحبه ككل. اذا تخلخل عنصر فيه، تخلخل الكيان كله، وبهتت الصورة. كيف أعيش حياة باهته مخلخلة؟

- لكننى سأظل أعتبر عليا بطلا، يبز كل الابطال.

- وأنا كذلك. غير أن البطل شيء، والزوج شيء آخر.

أصبح خالد على يقين بأنه لم يخن عليا، بعد هذه الحوارات والمراجعات. ومع ذلك ظل هناك صوت خافت فى اعماقه، يناديه: ضميرك لن يتحرر، الا بعد أن تعيد محبوبة الى على.

يجب أن يستأنفا حبهما. ويمضيا فيه إلى نهايته. ربما يكون قد راوده أمل فى أن يسترد عليا. تلك الطاقة الثورية الهائلة. لعله يأخذ مكانه فى المجموعة مرة أخرى قال لمحبوبة.

- على، يا محبوبة قوة ثورية كبيرة. دوره بالغ الحيوية فى الحركة. يجب ألا نفقده. هو كذلك مشغوف بك. وأنت تعلقت به طيلة هذه السنين. لابد أن تحاولى معه، لكى تسترديه ونسترده معك.

- ماذا اضنع والايام الماضية لا توحى بأمل.

- حبك له وللثورة، يتطلب صبرا، ومثابرة، وتضحيات، فحاولى.

لم تتخافت العاطفة فى قلبها نحوه، مع تخافت الثورة فى وجدانه فحسب. اصبحت تخاف منه. سلوكه معها لم يعد بهذبه الحب. أصبح شاذا عنيفا. لهذا قررت أن تلقاة فى حضرة والديها.

بذلت جهودا لتفصل الجانب الخاص بالثورة. التى نضبت فيه وتركز على الجانب الشخصى، ووضعها معه كزوجة. لكن جهودها فشلت. لا أستطيع أن أشطر رجلى شطرين. شطر جسدى أتخذ منه زوجا، واتناسى شطره الثانى، الوجدانى، الحق أن الفصل هنا مصطنع الشطر الجسدى ايضا أصابه الخلل.

باحت لخالد بمكنونها. مرة أخرى. تأسى لها كثيرا. لام نفسه أن قسرها على أمر لاتستطيعه. لماذا يحمل هذه الفتاة الغضة مالا تطيق ؟ ومع ذلك اقترح عليها:

- دعنا نصحبه إلى اجتماع المجموعة!

ذعرت محبوبة من الاقتراح. قالت له:

- هذا خطأ كبير.

رجاها. وألح فى الرجاء. أصبح شاغله عليا، كعنصر فاعل من عناصر الثورة. رافقته إلى لقاء الجماعة. كان لقاء كسيفا. أين

الثورة المتفجرة يا على؟ اين الشرر الذى كان يشعل الاجتماعات لهيبا؟ بقى على صامتا طول الاجتماع. لم يسهم فى الحوار. لم يستجب للذين حاولوا استمالته للحديث.

فقدت فيه الجماعة بطلا يبز كل الابطال.

-٣٢-

حمل فوزى إلى الجماعة قضية « تراجيدية ».

- قبل أن أكشف لكم الكارثة، التى تحيق بالوطن، أود أن أسأل استاذنا خالد:

ما هو حجم الدين الخارجى على مصر؟

- الديون نحو خمسين مليارا من الدولارات.

- الديون المدنية والعسكرية.

- نعم. هذا رقم تقريبى، لأن الديون العسكرية غير معروفة بدقة، الا أن هذا الرقم يستند الى ما تنشره الصحف والسفارات الاجنبية، والمؤسسات الدولية.

وتساءلت محبوبة.

- مليار يعنى ايه؟

وأجابها مجاهد:

- يعنى ألف مليون.

- أنا أعلم أن المليون هو ألف ألف. كأن المليار هو ألف ألف ألف . وبذلك تكون ديوننا هى ٥٠ ألف ألف ألف!

وأجاب فوزى

- نعم.

أوشكت محبوبة أن تطلق الصوت، الذى تطلقه النساء حينما يموت عزيز عليهن، وبدأت تمسك باطراف طرحتها ، لتأتى بالحركات التى تقوم بها النادبات. لولا أن صوت فوزى القوى، ونبراته الساخرة، أوقفتها:

- انتظرى يا محبوبة. لأصور لك الكارثة أولا. فقد لا يكفى فيها «الصوات والنديب». فقد نحتاج كذلك للطم الخدود.

والتفت فوزى الى خالد مرة أخرى ، وسألة:

- وما عدد السكان فى مصر؟

- نحو خمسين مليونا.

- كأن كل انسان فى مصر: طفل وشاب، ورجل وشيخ، ذكر وانثى يحمل على أكتافة دينا قدره ألف دولار.

- نعم.

واشترك صوفى:

- كل فرد غنى أو فقير، ساكن للقبور، أو لناطحات السماء. الملايين من شعبنا التى يفتك بها سوء التغذية. وتعشش البلهارسيا، وفقر الدم فى عروقها، ويشاركون الموتى الحياة الاخرة، ولا يمرون بالحياة الدنيا. كل فرد من هؤلاء مدين بألف دولار؟

وأكد خالد:

- نعم.

واستمر صوفى:

- كأن أسرتى، مدينة بسبعة آلاف دولار. فنحن سبعة أشخاص.

بدت العيون حيرى. وزاغت الابصار، آخذ كل فرد من

المجتمعين، يحسب فى سره الحسبة التى بدأها صوفى. وقالت محبوبة على الفور:

- الحمد لله« من شاف مصيبة غيره، هانت عليه مصيبته». ديننا سته آلاف دولار فحسب! الله.. انتم تتكلمون بالدولار . كم دولار فى الجنيه؟

وأجابها خالد:

- الدولار يساوى اكثر من جنيهين.

-« يالهوى ».

لحسن الحظ، كانت محبوبه مستغرقة فى حسبة الدين على أسرتها. فلم تطلق « يالهوى » بصوات النائحات. ولم تجعلها « يالهوتى» كما تفعل الندابات واستمرت:

- بهذا يكون الدين على أسرتى، هو ١٢٠٠٠ جنيه.

وأسرع راشد فى الاشتراك.

وأكون أنا وعائلتى« خيبتنا ثقيلة» : نحن عشرة آفراد: ابنائى وزوجتى أربعة وأخواتى ثلاثة، وأبى وأمى الطاعنين. ويكون

الدين علينا عشرين ألفا من الجنيهات.

وهكذا أخذ كل واحد من المجموعة يحسب الدين على أسرته. وآراد خالد أن يصور الفجيعة فاستخدم معلوماته الاقتصادية:

- ولما كان متوسط دخل الفرد في مصر هو ٤٠٠ جنيه في السنة ، وبذلك يكون الانسان في مصر مدينا بألفين ، ودخله ربعمائة جنيه!

ونازعه مجاهد في صحة هذا الرقم ٤٠٠جنيه . خذني مثلا أنا عامل قديم أتقاضى مائة جنيه في الشهر فيكون مرتبي، أي دخلي السنوي ١٢٠٠جنيه. وانفق على أسرة عددها اثنى عشر شخصا. فيكون متوسط دخل الفرد في أسرتي ١٠٠جنيه.ودينه ألفان وربعمائة جنيه. أي أن دينه ضعف دخله،أربعة وعشرون مره!

وقفزت محبوبة تواجه خالد:

- يبدو أن أرقامكم ايها الاقتصاديون، خاطئة،وخادعة! أنتم تقرأون كثيرا ، فتختلط الحقائق والارقام في رؤوسكم. وتبعدكم عن الواقع.

- حاسبي علينا ، ياست محبوبة :

- رقمك أثارنى. خذ مثلا آخر، أنا: أعمل فى الحقول مائة يوم فى السنة

فالعمل فى الزراعة موسمى. ويعطونى جنيه واحد فى اليوم، أى نصف أجر الرجل:« وللذكر مثل حط الانثيين، حتى فى الفقر. واخى البالغ يتقاضى جنيهن ويعمل نحومائة يوم كذلك. واخى الصبى لا يعمل وأختى الصغيرة تعمل فى منزل العمدة نظير ستة جنيهات فى الشهر.. وابى وأمى عجوزان لا يعملان. ويكون دخلنا ثلثمائة وستون جنيها فى السنة. أى أن الفرد يعيش على ستين جنيها فى السنة!

ظل أبو زيد صامتاً. قل كلامه بعد اعتقاله. لكنه وجد المأساة فاقعة شارك فى الحديث:

- لم أكن أود أن أعرض عليكم حالى ، وحال أسرتى. ولكن ما باليد حيلة:

اكسب العيش لاربعة عشر فردا: أولادى، وأخواتى وأمى. املك فدانا من الأرض الزراعية اخذته من الاصلاح الزراعى يعطينى مائتى جنيه فى السنة. وأعمل أنا بعد أن أفرغ من العمل

فى حقلى نحو خمسين يوما فى السنه. اتقاضى عنها مائة جنيه. فيكون دخلنا ثلثمائة جنيه. نصيب الفرد عشرون جنيها فى السنة. وعليه الفان من الجنيهات أى أن دينه ضعف دخله ١٠٠ مرة!

الحق أن خالدا كان يعلم هذا لكنه أعطى رقما متوسطا يستخدم فى الكتابات الاكاديمية، والنشرات الحكومية . قال لهم:

- انتم على حق.. أرقامنا المتوسطة، على تدهورها، لا تظهر الوجه القبيح للفقر، الذى تصبح معه أكثرية شعبنا وتمسىء أنها تهمل مشكلة توزيع الدخل.

كان فوزى سعيدا اذ أثار الموضوع. لبث ساكتا، يستمتع بهذه الصور التعيسة! التى اثارها الحوار. وعندما تخافت الحوار، أحياه مرة أخرى:

- هذه هى القصة، كما يحكمها الواقع، لكن مازال جانبها« التراجيدى» لم يتكشف لكم.

وتساءل الاعضاء:

- هل مازال للفاجعة وجه أكثر تراجيدية؟

وأجاب فوزى:

- أجل.. سمعت ضجة فى الحارة، التى أسكنها فى حى المغربلين. الحى الذى فرع من «غربلة» سكانه. وبعدهم « للطحن» ! نزلت الى الحارة. فوجئت بمجموعة من المواطنين يتجمعون فى مقهى من المقاهى البلدية. كانوا يتحلقون حول أحدهم. وقف بينهم ليقول: أن الخواجات الدائنين لمصر، سوف يقتحمون بيوت المواطنين، ومعهم محضرون. سيحجزون على « عفش» الناس سدادا لديون مصر! وما سمع المواطنون ذلك حتى هرعوا الى منازلهم، فى محاولة لانقاذها.

أحدثت رواية فوزى ذعرا حقيقيا لدى المجموعة.صدقها الجميع الا خالدا. هم خالد بالاعتراض على القصة.وسمها بالخيال والسخرية، التى اشتهر بهما فوزى.

لكن لماذا الخيال؟ قرية الرباعى بالشرقية، وصيف ١٩٣٣، المحضر والخواجه اليونانى يقتحمان دارهم. يشترك مع والدته ، وهو صبى هزيل الذراعين، فى حمل الاثاث، وتهريبه الى بيت جار لهم. ما الفرق بين الخواجة اليونانى والمحضر فى ذلك الوقت، وبين ما يقوله فوزى؟ باع الخواجات اليونانيون الاثاث الفقير. وانتزعوا

أرضهم. امتلكوها نظير الدين. الفرق أنهم كانوا يهربون الاثاث الى منزل جارهم الفقير غير المدين. لكن الان لن يجد الناس جيرانا ليسوا مدينين!

كان الخواجة اليونانى، دائنا لابيه فقط، كان دينا خاصا. ما الفارق بين الدين الخاص والعام؟ ومع ذلك لم يكن أبوه وحده المدين. كان هذا شأن الاغلبية الكبرى من ملاك الأرض الزراعية فى مصر. بطشت بهم البنوك العقارية الاجنبية، والمرابون الافراد الاجانب والمصريون.

الديون فى عهد الخديو اسماعيل كذلك، ،كانت عامة. حجمها كان صغيرا. كان نصيب الفرد منها ثمانية جنيهات. الترف والبذخ، شركة بين الخديو والسلطان . على أن الأخير بز كل الخديويين، والملوك، والاباطرة. هؤلاء بنوا قصرا أو قصرين. وهذا بنى القصور والاستراحات بالعشرات. اسماعيل استخدم جزءا من قروضه فى بناء الترع والطرق والخزانات. وهذا استخدم القروض فى اثراء أهله وحاشيته. اسماعيل بنى الاوبرا وهذا آحرقها!

«صندوق الدين» انشأه الانجليز والفرنسيون لتنظيم سداد

ديونهم على مصر. صندوق النقد الدولى يشرف عليه الامريكيون؟ مـا الفـارق بينهـمـا ؟ صندوق الدين وزع آقـاليم مـصـر على الدول الدائنة، لتـضـمن ايراداتهـا سـداد الدين، وصندوق النقـد الدولى، والسلطان، يقـدمـان مـصـر كلهـا ضـمـانا للدين: تجـويع شـعـبـهـا، التـحكم فى اقـتـصـادها. تقـديم أرضـهـا وسـمـائهـا وبحـارها قـواعـد وتسهيلات عسكرية للدائنين الكبار.

-٣٣-

الواحـدة بعـد منتـصف الليل. جـرس البـاب يدق. ذعـر. كـان وحـيـدا. الناس يتطيـرون ، اذا مـا طرقت أبوابهم فى مـثل ذلك الوقت. لكن خـوفـه كـان من نوع آخـر. السـاعـة الواحـدة قـريبـة من الثـالثـة. الوقت الذى يحدده زوار الفجر، لاقـتـحام بيـوت الآمنين. وكآن قوات الظلام تريد أن تمنع انبثاق الفجر وانبلاج الحياة.

على أن زوار الفـجر- وقـد ألف غـاراتهم- لا يدقـون الاجـراس. ولكنهم يقـرعـون الابـواب بآيديهم« ويرفـصـونهـا » بأرجلهم. حـملة اعـلام بالرعب والقـهـر. يريدونهـا أن تصل إلى المسـاكن المجـاورة. مـوسـيـقى الجـرس . بعـثت فـيـه بعض الطمـآنينة. ذهب يفـتح الباب. مجاهد!

فرح لمرآة، وقلق. قاده الى غرفة الجلوس. قال مجاهد:

- سامحنى، اذا حضرت فى هذه الساعة.

- لاعليك. مرحبا بك فى كل وقت.

- اضطرنى لذلك أمر خطير.

- أنت، يا مجاهد ، لا تحمل لى الا الامور الخطيرة.

- هذه المرة ، وددت ألا أحمله اليك.

- عجل به « ولا تخضنى »

- سوف ألقى عليك بالخبر مرة واحدة، دون تمهيد .

- قل« اعمل معروف» بسرعة.

- الجماعات القيادية قررت أن عليك أن تسافر إلى الخارج . وتغادر البلد فورا!

- هكذا دون أسباب أو تحقيق.

- الامر تقرر حرصا عليك.

- هل ستغتالنى القوى الرجعية؟!

- لا تستبعد ذلك، رغم تهكمك. دعنى أعرض عليك الاسباب : السلطة تراقبك منذ مدة طويلة. وهى على علم تام بنشاطك العلنى. وبالمحاضرات والندوات التى تسهم فيها. وآخر خبر جاءنا ، هو المحاضرة التى ألقيتها فى جمعية العلوم السياسية المشمولة برعاية السلطان وحرمه: كيف تذهب إلى عرين الاسد، وتهاجمه؟

- أولا ، أنا لا اعتبره أسدا. ثانيا، على الشورى أن ينقل أفكاره إلى الجماهير فى السر والعلانية.

- كان هذا رأى آغلبية جماعتنا، فى موضوع هبة الخبز. وقد كنت الصوت المتعقل الوحيد الذى انتقد الاشتراك فيها.

- كيف نرسم حدودا للعمل الشورى، وهو عمل متكامل بطبيعته.

- لكنك أعطيت للعمل العلنى جرعات أكبر مما توقعنا. وقد كنا نود أن نعلم بنشاطك.

- هل يتدخل التنظيم فى النشاط العلنى للاعضاء؟

- لا أقصد ذلك. العضو الشورى له الحرية فى اختيار الاساليب والظروف للتوعية بالحركة الديمقراطية . لكن وجود

بعض أفراد «الكادر» معك يفيدهم. وهم يسهمون معك بدورهم ، فى اثراء الحوار.

- جاءتنى الدعوة متأخرة. لم أستطع الاتصال بك.

- لا بأس. انت آستاذ حصيف. لكنك دعوت الجماهير فى محاضراتك الاخيرة لتغيير النظام. ألا تدرى ، بأنك كنت تحاضر فى تجمع سلطانى؟

أن محاضرتك نقلت بعد انتهائها مباشرة، فى منتصف الليل الى الاسماعيلية؟ واستمع الحاكم الى الشريط الذى سجلت عليه.

- لكن الندوة ، كان فيها محاضرون آخرون كبار: كفتحى رضوان، وكامل زهيرى.

الوطنيان اللذان ذكرت، تدرك الحكومة خطرهما. وتعلم تاريخهما. وتتعامل معهما بالاساليب ، التى تحد- فى نظرها- من ذلك الخطرولكنها فوجئت بمثقف جديد، يقول كلاماً خطيراً ينادى العمال والفلاحين والمثقفين والكادحين جميعا. أن ينهضوا لاسترداد الحكم المغتصب. ويقيموا الديمقراطية الحقيقية، التى تمثل الاكثرية.

- آليس هذا هدفنا فى المجموعات النضالية؟

- بلى. لكن أن نعلمه« للكادر» ونضع خطتنا لتحقيقه، شىء ، والاعلان عنه شىء آخر.

- ....

ـ أنا الان أحدثك عن خطر يحدق بك، وربما يحدق كذلك بالمجموعة كلها ـ كيف ؟

ـ أنت الان ـ طبقا للمعلومات التى لدينا ـ فى رأس القوائم السوداء. وسوف يعتقلونك قريبا مع كثير من الوطنيين والمثقفين المعارضين للنظام الهجوم أشتد عليه من اليمين واليسار. الكل يطعن فى فساد الحكم. انتهز السلطان فرصة الفتنة الطائفية - التى زرع بذورها ببث الجماعات الدينية بين طلاب الجامعات- ويعد الان خطة لاعتقال جميع المعارضين لحكمه، بحجة تدمير الوحدة الوطنية.

- الاعتقال لايهمنى. لقد جربته من قبل: جربته فى عهدى فاروق وعبد الناصر فلنجربه فى عهد السلطان.

- أنا لا أقلل من صلابتك. لكنك شهدت ما حدث لابى زيد

وصوفى. ورأيت عليا، الذى خربوا عقله. بعد أن نهشوا لحمه وعظمه. الاعتقال الان، أضيف الى وحشيته القديمة، وحشية تكنولوجية أمريكية.

- أنا لست أقل شجاعة من هؤلاء الزملاء.

- شجاعتك يعلمها تلاميذك، ورفقاؤك. انما السن تقدمت. والاحتمال البشرى له حدود. تتجاوزها الادوات البربرية. التى يستخدمها المتوحشون. ليس هذا ما يقلقنا. نحن نريد أن نحتفظ بعقلك، سلاحا من أسلحة المجموعة الديمقراطية والبرابرة لن يتورعوا عن تخريبه، كما فعلوا بعلى. المشوار أمامنا طويل. ولا نريد أن نفقدك فلا تضع المجموعات المناضلة، التى كنت تحلم ببنائها، فى موقف يضر بها. كما لا تحرمها من أن تظل تفيد من الطاقة الثورية المتفجرة من عقلك وروحك.

- أنا لا أريد أن تضار الجماعة بسببى.

تردد خالد برهة ثم قال:

- يا مجاهد.. أن اشتراكى فى حركة الجماهير ضد ظالميها، حلم أحلامى ووجودى حينما تنتصر الثوره الاشتراكيه، هو أمل آمالى.

كيف تحرمنى حلمى وأملى؟

- لست أحرمك. إن احساسا يراودنى أنك ستنال بغيتك. وما هذا الا اجراء مؤقت. نجنبك به. ونجنب أنفسنا معك، المتاعب . أنا أثق ، أننى سأبرق لك حينما «تنضج الظروف الموضوعية» كما تقول عبارتك المشهورة- لتحضر، وتسهم فى حركة الجماهير.

- أشكرك..

توقف خالد لحظة.. ثم أردف:

- لعلك تذكر ، أننى كنت سأعود الى الامم المتحدة ، فقد كتبوا لى يطلبون العودة للعمل، بعد أن استقلت، وعدت الى الوطن، لاعمل معكم ، فرفضت.... أين سأذهب لو سافرت إلى الخارج؟

- سمعت منك مرة، أن جامعة جوبا بجنوب السودان، كتبت اليك لتسهم فى تدريس الاقتصاد لطلابها. هذه فرصة.

- لحسن الحظ، خطابهم الاخير، مازال معى. يقولون فيه، التذاكر يمكن الحصول عليها من شركة الطيران السودانية.

انتصب مجاهد واقفا، وهو يقول:

- تذهب غدا للحصول على التذكرة . وتسافر على أول طائرة.

ذهب الى الخطوط الجوية السودانية فى اليوم التالى. حصل على التذكرة. فى اليوم الذى تلاه، كان يحلق فى السماء ، متجها الى السودان. وهل الى الخرطوم على مشارف الفجر ، كان زوار الفجر، فى القاهرة، يضربون باب شقته بأيديهم « ويرفصونه » بأرجلهم. لم يجدوا الفريسة ليفرغوا فيها ساديتهم. لكن خفف من خيبة أملهم،. أن الرعب قد انتقل الى خلفاء الفريسة: زوجه ، وابنه ، وابنته.

-٣٤-

جوبا ، عاصمة السودان الجنوبى. مدينة صغيرة. تشبه عاصمة مركز من مراكز الريف المصرى. طابعها الافريقى يخلع عليها ملامح متميزة: مبان من دور واحد، لم تغزها ناطحات

السحاب بعد . بضع محلات للبقالة والملابس. فلل تلتف حولها أشجار استوائية، وزهور المناطق الحارة.. يقيم فيها الاجانب والمستعمرون. الانطباع العاجل يوحى اليك، بأن الناس هنا يفرقون أحيانا بين الاجانب والمستعمرين: الاجانب قادمون من آوروبا وأمريكا . والمستعمرون وافدون من شمال السودان! الجاليات الاجنبية خليط غريب: دوائر دبلوماسية، وجاسوسية، ومخابرات.هناك فلل وأوكار للمخابرات الامريكية، والانجليزية، والفرنسية، وغيرها . ويوجد خبراء من كل لون، وفى كل فرع . سؤال يلح عليك: ماذا صنع هؤلاء الخبراء، ودولهم، ومؤسساتهم؟ وما هى نتائج عملهم؟ والفقر الكالح يمسك برقاب الناس. يتجلى فى اجسادهم، التى هزلها الجوع والمرض، وينعكس فى الاكواخ الصفيح، التى يسكنونها . تصهرها الشمس الاستوائية، لتصبح جحيما .

أغرب المجموعات الاجنبية، هى الارساليات الدينية. بعثت بهم الكنائس فى آوروبا وأمريكا . امبراطوريات مصغرة. لها نشاطاتها الاقتصادية ، والسياسية والدينية. لها مدارسها

وكنائسها، وأديارها. تملك مزارع، واقطاعيات، ومصانع ومتاجر. تسيطر على طرق للمواصلات، وخطوط للطيران. وعلى مرافق البريد والماء والكهرباء. تؤدى هذه المؤسسات الدينية للناس خدمات لاتقوم بها غير الحكومات. توزع البريد على الناس، وتتلقاه لارساله الى الخارج والداخل. تقوم بالتعليم ومن ثم عمليه« غسيل مخ » دينية كبرى للصغار والكبار. تشغل الناس فى مشروعاتها. والحكومة فى الشمال نائمة. تشاركها الحكومة المحلية، المكونة من أبناء الجنوب فى النوم. ويكونون معا الطبقة التى تحكم جماهير الشمال والجنوب جميعا. النشاط الوحيد، الذى يضطلع به الشماليون هو تجارة الجملة والتجزئة . المدينة منبتة الصلة بالشمال. المواد الغذائية والكسائية ، تحتكرها هذه الفئة فى بلد ليست فيها صناعة أو زراعة بالمعنى الحقيقى. ومن ثم يجمعون ثروة طائلة

المجموعة الوحيدة، التى ليس لها وجود، أو نشاط، بين الارساليات الدينية. هى المجموعة الاسلامية . رغم أن فرقا منها يتزايد صراخها فى الجوامع والجامعات، فى الشمال، وشمال الشمال!

أمضى يومه بين المدينة والجامعة. مبانى الجامعة متواضعة. منظر الطلبة السود والسمر يثير فيه ذكريات منعشة: صور من لندن، وداكار، والقاهرة والاسكندرية، حيث درس ودرس فى جامعاتها ومعاهدها. التقى بالمسئولين عن الجامعة. شخصيات رشيقة علميا وفكريا. لاحظ أن القيادة العلمية معظمها من أهل الشمال. وكان يومه الاول فى جوبا يوما سياحيا. كان يصحبه زميل مصرى . حليم الوجه الوحيد لمصر فى غربته.

فى المساء، آوى إلى مسكنه بين مساكن هيئة التدريس. خصصت له حجرة متواضعة: سرير سفرى ، ومنضده، وكرسى، يستخدمهما فى اعداد المحاضرات . كان حليم خبيرا بشئون السودان. استخدم طاهيا من آهل الجنوب. يتكلم العربية كاهل المنطقة، مكسرة تكسيرا جيدا! أعد لهما وجبة. كان من المستحيل أن يعرف ما هى. . أكلها برضاء. استمده من ماضية مع الغذاء فى وسية الخواجة اليونانى، وفى الجيش.

أخذ يجتر مناظر اليوم وأحداثه. خالجه شعور رضى. لا يتسق مع أنسان مطرود من بلده. لكن هذا الشعور توارى مرة واحدة.

زالت القشرة التى كانت تلف وجدانه. وتحول بينه وبين أن ينضح ما فيه من عناء. انطفأت الانوار فجأة. كان الظلام دامسا فى مسكنه، وفى المدينة الجامعية، وفى جوبا كلها. الساعة التاسعة، موعد اطفاء الانوار. المولد الكهربى، فى عاصمة السودان الجنوبى صغير وضعيف. لا يتحمل عبء انارة المدينة بعد التاسعة.

اضطر الى أن يخرج من مسكنه. جلس امامه فى الخلاء. السماء تتزين بنجوم كبيرة الحجم، قريبة المنال. مجموعات النجوم هى نفسها، التى تصادق معها فى جرن الخواجة اليونانى، كان ينام فيه. يتخذ من قش القمح، المكسر بالنوارج فراشا. ويزامل محمد خطاب الخفير فى دنياه. هذه هى مجموعة الدب الاكبر، تلك مجموعة الميزان. فوق رأسه، يتلألأ عنقود الثريا. لكن النجوم ليست عناقيد عنب كما كانت فى مصر. بدت كواكب درية. كأنها ثمرات من جوز الهند بلورية. اجتذبته النجوم. صعد اليها فرحا. لكنها تقاذفته بينها فى هذه المساحات الهائلة الحالكة.

أنه النفى اذن.. أحـقـا لفظتـه بلده؟ هذا البلد الذى سكب حبات عرقه على أديمه. ومرغ خديه فى ترابه وذاد عن ابنائه فى الحقل، والمصنع، والجيش والجامعة. حقا، أنه لم يقدم نفسه للوطن فداء، مرة واحدة. لكنه قدمها قطعة قطعة. ما الفرق بين أن يبذل المرء روحه فى سبيل بلده ومجتمعه دفعه واحدة ويستريح، وبين أن يهبها نفحة نفحة؟

كان يعمل كاتبا صبيا فى وسية خواجة يونانى. دافع عن الفلاحين، حتى لا يسرقهم الخواجة. ضحى بعمله، حيث طرده «اللورد» من الاقطاعية. كان مصدر عيشه الوحيد وأسرته سلم نفسة واسرته للجوع، يباشر فيهم عمليه الموت مباشرة متأنية.

انتفض للوطن، مع الطلاب، ضد الانجليز، والملك، والباشوات، فى النصف الثانى من الاربعينيات. أوشكت رصاصة أن تشج رأسه فى محطة الرمل بالاسكندرية. ثم اعتقل فى بادروم محافظة الاسكندرية، حيث البول والبراز والعبودية.

فى عهد عبد الناصر، نثر الثورة فى المصانع والمدارس فى مصر الجديدة، حينما كان أمينا للاتحاد الاشتراكى بها. ناضل

ضد القوى الرجعية، والرأسمالية المضادة للثورة الاشتراكية. نسى كل شيء، الا أن يتحرر الانسان في مصر من الاستغلال والقهر. حارب الاستغلال الجديد، الذى تمارسه طبقة صاعدة ورثت الوسية، ووأدت الاشتراكية . القى به فى معتقل القلعة، مع زهرة شباب مصر فى منظمة الشباب. المعتقل الذى بناه محمد على لسجن خصومه. وتفنن فى اعداده بأدوات القرون الوسطى الوحشية. نفس الوسائل التى استخدمها الامراء ورجال الدين الاقطاعيون فى آوربا، ضد الثائرين عليهم، والعاملين فى اقطاعياتهم. ثم جاء الانجليز، وأعطوه لمسه حضارية. استخدموا فى تطويره، ما أسفر عنه العقل البشرى، حينما يقتصر على استخدام قوى الشيطان فيه. وورثه حكام مصر، قبل ثورة يوليو، وبعدها. احتفظوا به حصناً، يفتكون فيه بالخصوم . ويمسخونهم بين جدرانه. أقام صلاح الدين الحصن ضد أعدائه الخارجيين. واستخدمه الحكام اللاحقون ضد قوى الشعب الداخلية . فى هذا الجب، شهد خالد كيف شاهت الانسانية وغبشت الحياة. لامراء أن فقد الحياة أخف من أن تغدو قميئة شوهاء.

فى عهد السلطان ، والانفتاح والهبر ، هب لمقاومة الفساد والاثراء الحرام حارب سلطة تربع على عرشها المتجرون فى المخدرات،والعملة،وارزاق الناس. هاجم اللصوص، والمضاربين، والمخربين للاقتصاد القومى والناهبين لعمل الجماهير .

كتبوا آمرا باعتقاله . نصحه رفاقه أن يفضل النفى ويغادر الوطن .

لكنه يغرم بوطنه، حتى دون هذه الالوان من النضال. جاء الى مصر ليشهد نصر اكتوبر. عندما وجد أن النصر وئد، وأن المؤامرة على مصر تحاك، انخرط مع المجموعات الديمقراطية فى حركتها . مكث مع المناضلين مدة، آخذها اجازة من الامم المتحدة.

بعد انتهائها طلب اليه العودة احتدمت حينئذ معركة عنيفة. هبت الجماعة الثورية كلها فى وجهه، حينما حمل اليهم الخبر. كانت محبوبة اشد المهاجمين له ضراوة.

مازال عنف الهجوم عليه، يدكره بتفاصيله ، قالت محبوبة:

- انتم هكذا، معشر المثقفين، تتخلون عن الثورة من أول نداء، كان ذلك نداء العلم، أو الترف، أو المركز، أم مستقبل الاولاد. كيف تجرؤ على الانسحاب من ميدان الشرف؟

حنانيك يا محبوبة أنا لم أنسحب، ولم أترككم. جئت فقط انبئكم بالامر.

-ما كان لك أن تخبرنا بأمر كهذا .يجب أن ترفض على الفور. استقل. واستمر فى أداء دورك الوطنى.

كانت الفتاة هائجة، بدرجة لم يرها زملاؤها عليها من قبل. حاول الاعضاء تهدئتها. لكن نوبة غضب جامحة كانت قد ركبتها. فبدت وكأن عفريتا من الجن قد تقمصها. انتفضت مرة أخرى واقفة، موجهة الكلام لخالد:

- اذا سافرت، أو انسحبت من هذه المجموعة، فسوف انسحب منها. ولن أعود للعمل الثورى مرة أخرى، بل اننى أقول لكم بصراحة، لا لبس فيها. إن الفتيات فى مجموعاتى، سيتخلين عن الحركة.

وجمت الجماعة كلها. وجوما شديدا. الفتاة عنصر حركى

نشـيط فى الجـمـاعـة. مـجـمـوعـاتها من أهم المجـمـوعـات فى الريف. على أن صـوت فوزى بدد الوجوم. غـمز محبوبة غـمزة، زادت الامر سوءا:

- ليس هذا كلاماً يا أختاه. تتخلين عن دورك الثورى، حين يعتقل على. ثم تنسحبين اذا انسحب خالد!.

لم تمنع سورة الغضب الفتاة من أن ترد عليه ردا مفحما:

- نحن لا نناقش هنا مسائل عاطفية. اننا نحمى حركتنا!

هم فوزى أن يرد عليها قائلا: نحميها بالتخلى عنها؟ إلا أن مجاهد كان أسرع منه. رجاه ألا يواصل حوارا غاضبا. ستكون نتيجته سلبية. استجاب فوزى. هدأت الشابة الفلاحة بعض الشىء، بعد أن باحت بمكنونها. وبعد أن خيل اليها أن هذه الهجمة- التى قصدتها تماما- سوف تفعل فعلها فى قرار خالد.

على أن المعركة الكبرى نشبت بينه وبين نفسه: لم يكن الصراع المستعر فى داخلة هو أن يبقى فى الوطن أو يهجره، فهو لا مراء يريد أن يبقى. ولم يكن الخيار كذلك بين أن يترك

المجموعة الديمقراطية، أو يواصل النضال معها. كان التنظيم، الذى يقوده العمال والفلاحون والطوائف الكادحة، أمل عمره لكن الحياة هنا مرة. مرتب استاذ الجامعة لا يكفى ليعيش. الغلاء فاحش. يكوى الوجوه والدخول والجيوب. الاولاد يكبرون. لابد أن يتعلموا ويتزوجوا التكاليف باهظة. لن ترضى أن تؤلف كتبا. تبيعها للطلبة. وتقتطع لقمة العيش من أفواه الفقراء.

«مرتب الامم المتحدة سخى.. يكفل العيش الرخى. لكنك لم تعبأ طوال عمرك بالمال. اهى الحرية تستشعرها خارج وطنك، وتفقدها داخله؟ فى المعهد الافريقى بداكار تدرس الطريق الاشتراكى الى التنمية بحرية تامة. حقا أنا أدرس الاشتراكية فى مصر. ولكنى أدرسها فى الجحور والكهوف. نسترق العلم. ونسترق الحرية. يتابعونا ليقهرونا ويجهلونا، وليجهضوا حركة التحرر من الاستغلال.

لم تستطع معركته مع المجموعة، ولا معركته مع نفسه، أن تنقذاه من الحيرة التى تلتهمه. أيبقى للصراع مع الاستغلال والقهر، أم يرحل للنعيم والحرية. ؟

واتاه حل مبرر: أن يسافر لتصفية أعماله وترحيل عزاله ثم يفعل الله ما يشاء! انه سيغيب عن زملائه فترة قصيرة والنضال طويل. وهو عائد اليه حتما. الاأنه لا يستطيع أن يقنع المجموعة بذلك. ان « العلقة » » التى أخذها ، كانت من محبوبة وحدها. الباقون يعرف آراءهم. مجاهد خيبة أمله كبيره فى رفيق كفاحه وآستاذه. فوزى: كان فى وداعه يوم ارتحل الى داكار، بعد أن خرج من معتقل القلعة عام ١٩٦٦ حمل عليه حينئذ حملة شعواء. رماه بالهروب من المعركة. لم يكن فى ذلك الوقت عضوا فى الحركة . ما بالك الان ، وقد أصبح عنصرا فاعلا فيها.

فارس: ويا للحسرة التى ستصيبه.. فتح عينيه على هذه الدنيا، ليعلم من أبيه محمد خطاب- خفير الجرن فى وسية الخواجة اليونانى - قصة الولد المكافح خالد. ودفاعه عن الفلاحين. أولئك الذين كان يلقبهم ابوه بالعبيد. لانهم كانوا يرتضون العيش الأذرة والمخلل غذاء أبديا. كيف يتخلى عنا خالد، وقد ناضل من أجلنا، وهو فى الخامسة عشرة. لماذا يتخلى عنا وقد جاوز الخمسين؟؟

أبو زيد : أرضعته أمه« السيدة » حب الصبى، الذى سرق لهم الاذرة من مخازن الخواجه ليلا، ليطعم أخواته البنات الخمس. كان ذلك قبل أن يشرق نور الحياة فى عينيه. شب على سيرته، التى حكاها له ابوه محمد محمود ، الفلاح فى الوسية، كان يمجده تمجيدا فروسيا. شبهه «بروبن هود» وغيره من فرسان «السينما» الابطال الذين يهاجمون الاغنياء، يغتصبون ثرواتهم، ليوزعوها على الفقراء. هكذا يفعل أيضا، بعض فرق« الالوية الحمرا » فى جنوب ايطاليا. لكن ابو زيد الان تطور وعيه ونضج . تلاشت البطولة الرومانسية لتحل محلها ثورية متعمقة. فجيعته فجيعتان: الأولى فى البطل الرو،مانسى ، الذى انقذ أسرته من الهلاك والثانية فى الاستاذ الثورى، الذى ينير بعقله السبيل أمام الشباب.

وصوفى . وما أدراك ما صوفى. سيقول على الفور: كيف يا رجل. تقتحم على دنياى. وتعكر صفوى ؟ كنت أجد السلام« الابدى» بين المقابر . واناجى الاجدات والعظام ، والجماجم. كنت سعيدا لا أفرق بين الدنيا والاخرة. ظللت تحاورنى إلى أن

قـوضت حـيـاتى. وها أنت ترى مـاصنعت بى وحـوش الحكومـة والمقاولون. أبعد أن أرى نور الحياة تطفئه؟ أبعد أن نفثت فينا شـعـاعـات من الامل، تتـركنا ؟ هل تريد الشـعـاعـات خـابيـة، والحياة دامسة؟

منعـتـه هذه الافكار أن يذهب الى الجمـاعـة مـرة أخـرى. فى فـتـرة من فـتـرات اليـأس والضـيـاع، قـرر أن يرحل، دون أن يودعهم. كم كان ذلك قاسيا، بالغ القسوة على مشاعره المرهفه. ومـحـبـوبة؟ هل يفـارقـهـا ؟ غـريب أمـر هذا القلب. الفـتـاة التى يتمثل فى ملامحها النضال والخصوبة والجمال. العيون المشرقة، والقلب النابض بالثـورة. أيتـرك هذا كله خلفـه؟ هذه المشـاعـر الغنيـة تجـد صـداها لدى انسـان سـوى. أمـا الانسـان الذى تمزقـه نقائص المجتمع.ونقائضه، هيهات أن يكون سويا.

-٣٥-

مازال يذكر قصة رحيله . وكأنه يقرأ من كتاب شاسع يضيئة هذا الحشد اللانهائى من النجوم المتلالئة فى سماء جوبا ».

انتشلته الطائرة من هذا الصراع . من« ترانزستورر » قوى ، بدأ صوت المذيع يتخافت. وتتلاشى رويدا رويدا ، النغمة المتكررة: الرئيس المؤمن.. القائد الملهم... نغمة أخرى تعلو ، ثم تتهافت ،الاخ العقيد.. بعد هنيهة يحل محلها. المجاهد الاكبر.. الحبيب.. يدهمها بعد دقائق : ممثل المليون شهيد. وتختتم الجولة بخير ختام: الخليفة الامام.سليل الرسول.قفز الى ذهنه سؤال محير: الاذاعات فى تلك البلاد متماثلة. هل تعتبر تلك المجتمعات وسايا ؟ تتشابه فى الجوهر، مع الوسية فى بلده، وأن اختلفت أشكالا وألوانا ؟

هذا التساؤل جثم على صدره. لكنه شغله مؤقتا ، عن الالم الذى أصابه ، من فراق عزيزين: الوطن والنضال.

هبط فى داكار. المطر الاستوائى المنهمر. تتساقط حباته كالحجارة على سطح الاطلنطى. لا يحس المرأ بارتطامها بهذه الصفحة الفسيحة من الماء. المحيط يشارك البيئة كلهاخمودها. حتى الامطار الهاطلة، لا تستطيع ايقاظه. لكن الغريب أن الارض فى المدينة تبتلع هذا السيل . ولا يظهر له آثر على سطحها.

الناس يمشون. والعربات تسير. حتى داكار، البلد الافريقى، لاتفعل به الامطار الكثيفة ما تفعله قطرات من الماء تتناثر فى القاهرة، فتفجر ما فى بطنها من مجارى. وتحيل الطرق بركا، والمدينة مستنقعا. تتقطع فيها اسلاك البرق والتليفون والكهرباء. وتظلم الدنيا. وتتوقف الحياة.

وصل الى شقته الفاخرة! جلس فى الشرفة الكبيرة، التى تستشرف قصر سنجور والمحيط الاطلنطى. لم ينبهر بها، كما انبهر من قبل. كان المذياع قد تحولت موجته الى داكار. المذيعون هنا، لا يقيمون زفة للحاكمين، كما يفعلون فى البلاد العربية. هناك يمجدون الحاكم. ينفخون فى آوداجه. يربطون نسبه بالله والرسول. ثم يقحمونه على الناس ليحتل نشرة الاخبار. ينقلون اليهم أنباءه ومقابلاته. وزياراته، حى ولو كانت شخصيةأنهم يذيعون رحلاتهم حتى الى الحمام والتواليت!

النغمة الخاصة بالرئيس فى داكار الافريقية، أكثر تواضعا. تخلو كثيرا من النفاق المقزز. ومع ذلك نستمع بين حين وآخر، إلى كلمات: الرئيس الشاعر. صاحب الفلسفة الزنجية. رائد

الديمقراطية فى آفريقيا! هذه الالقاب فيما يبدو، توازن الصورة الاخري للزعيم.. كان الرئيس نائبا فى البرلمان الفرنسى، أيام الاحتلال. وكان مع زميله« هوفويوانييه» رئيس ساحل العاج، ممثلين للفلسفة الغربية. سواء فى جانبها الديمقراطى، أو جانبها الاقتصادى الرأسمالى .

لهذا لم يغير سنجور ومجموعته فى السنغال شيئا. الاحتلال الفرنسى قائم، كما كان قبل الاستقلال. القواعد الفرنسية الجوية والبرية والبحرية، مازالت كما هى،تحميها الان القوات« الوطنية».الثقافة الفرنسية تضرب بجذورها عميقا فى العقل السنغالى. هذا شأنها فى المستعمرات الفرنسية جميعا. اللغة الفرنسية تسيطر على مراحل التعليم، من الحضانة إلى الجامعة. لهذا ليس هناك شعور عدائى بين السنغاليين، وبين الفرنسى المستعمر. إنه يواصل استعماره الاقتصادى والثقافى بعد الاستقلال.

الشركات الفرنسية مازالت تتخذ من السنغال مزرعة للفول السودانى . ويزرعه العامل السنغالى، الرخيص الاجر. ينهل

عرقه من جبينه. يختلط بتراب الارض يصبح طينا. يلطخ يديه وساقيه ووجهه. يختلط ببشرته السوداء. صورة للاستغلال شهدها خالد فى بلده، وفى البلاد الافريقية التى زارها: العامل الوطنى، يزرع الارض الوطنية، لينعم بخيراتها، وتستولى على كدحه، نفس القوى، التى تستغل الشعوب فى كل مكان.

الارض مملوكة للشركات الفرنسية، ولزعماء القبائل، ورجال الاعمال السنغاليين. يضاف اليهم فريق آخر: اللبنانيون. الدين كذلك يستغل بواسطة جماعة تجد لها شبيها فى كثير من البلاد. أولئك هم «المارابو»، أو «المرابطون» فريق تسلل من شمال القارة. استغل الاسلام للاثراء، واستعباد المسلمين واسترقاقهم. «المارابو» يملك الارض. وهو الامام فى منطقته. وهو كذلك «ممثل الله فى الارض» ولكل «مارابو» جماهير من «المريدين». يزرعون الارض له. تماما كما كان الرقيق فى عهد الاقطاع الاوروبى، فى العصور الوسطى، يزرع الارض لامير الاقطاعية. ويحظى «المريد» كالرقيق بلقيمات يقمن صلبه».

وقف «مارابو» يعظ جماهيره من «المريدين» الفقراء. قال لهم:

ـ أعطونى مالديكم من أموال. ولأتصلوا. سأصلى أنا بدلا منكم. وسأضمن لكم الجنة»!

عملية الاستغلال تتصاعد من القاع الى القمة: فى القاع عمل يكدح وفى القمة ملاك للارض، يحظون بناتج عمله. تجار التجزئة اللبنانيون، يقتطعون جانبا من «الكعكة» يسلمون الفول السودانى الى تجار الجملة والمصدرين الفرنسيين. وهؤلاء يقتسمون ناتج العمل السنغالى، والارض السنغالية قسمة أخوية. السفن الفرنسية الناقلة للمحصول الى فرنسا. تقتطع أجور النقل. ثم يأتى دور الصناعة الفرنسية، التى يثير دورها ضحكا كالبكاء. الفول السودانى يدخل الافران ثم يقشر. ومن العجيب أن الاصابع السنغالية الرخيصة، المهاجرة الى فرنسا، هى التى تقشره بيديها، أو بمعاونة الالات. ثم يملح. ويوضع فى علب من الصفيح. ويصدر مرة أخرى الى السنغال!

ويتكرر «المشوار» فى العودة، ليباع السودانى المقشر بعشرين ضعفا من ثمنه الذى اشترى به خاما من المزرعة .

تساءل صاحبنا، وهو فى هذه الشطحة: الفرنسيون يمنحون

الثقافة الفرنسية للشعب السنغالى، ولقيادته. كيف لا يمنحونه حق «تقشير وتمليح» واستخراج الزيت من محصوله الرئيسي؟. اتكون الثقافة الفرنسية المتاحة للافارقة مقصورة على الشعر، والأدب، والقانون؟ القائد، قدوة الشباب، شاعر وأديب. لماذا لايقلده الشباب السنغالى، والافريقى؟ الغريب أن الخيال، الذى ينساب من ابداع الزعيم، لم يحلق فى دنيا الصناعة، والتنمية والتقدم! اكتفى بالتقدم الرومانسى فى الشعر، والزنجية. كيف لا ينعطف خيال الرجل والمجموعة السياسية من حوله، نحو التصنيع فى أبسط صوره: «أن يقشر» محصولهم. ويعصر في بلاده. بذلك يحتفظون لانفسهم، كطبقة، بتلك الارباح، التى يبتزها الفرنسيون واللبنانيون.

أتكون «الحرية، والاخاء، والمساواة، التى حملها ابناء الثورة الفرنسية الى مستعمراتهم، هى «الحرية» فى أن تبتز الدول الغنية الدول الفقيرة؟ وأن «الاخاء» هو أن يعيش الفقير الجائع، أخا للغنى المترف. الذى يتسبب فى جوع أخيه الفقير وبأسائه. وأن يكون التصنيع، والارباح، والتقدم، من نصيب الدولة المستعمرة. وان تبقى المستعمرة زراعية فقيرة. تسعد بزراعة

الفول السوداني والقطن. وتصدرها خاماً الى الدول الصناعية. حتى ولو كانت تلك الصناعة تقشيرا «للسوداني» ، وغزلا للقطن. وبذلك يتحقق المبدأ الثالث للثورة الفرنسية: المساواة بين الطاحن والمطحون، والمتقدم والمتخلف.

عرجت به الافكار الى قصر سنجور. قصر متواضع. يكاد يرى ابهاءه وغرفه، وأثاثه بالعين المجردة. لكن الفضول يشتد به. استخدم المنظار المكبر، ليغزو به خبايا القصر. كيف سمحوا للناس (ومنهم أجانب) بالسكنى الى جوار الرئيس ؟ هل الرئيس هنا آمن . بينما الرئيس المؤمن ليس له أمان» ؟

القصر بسيط. لا جمهرة من الخدم والحشم. لاجيوش، ودبابات وأمن مركزى أولا مركزى.

اين هذا القصر المتواضع من القصور الباذخة للرئيس المؤمن. لقد طاف صاحبنا بشواطئ السنغال كلها، وبانهارها وبحيراتها. لم يشهد استراحات، كتلك التى تصطف على ساحل البحر الأبيض والاحمر، وقناة السويس، ونهر النيل، والبحيرات حلوة ومرة!

أجهدته السرحة، كما أجهده السفر. تدلت جفونه، لتغلق عينيه.. نام عميقا لا أحلام ولا هاجسات.

- - - -

(٣٦)

مازالت صور حياته فى داكار تواتيه ساطعة. النجوم الباهرة فى سماء جويا ترسمها أمام عينيه، كلمات وجملا من لالئ. وتفصل احداثها تفصيلا دقيقا:

فى الصباح ذهب الى معهد التخطيط. جو منعش. الوجوه السوداء المشرقة. الاعوادالافريقية الباسقة. تروح في المعهد وتغدو. غرفة المحاضرات هى نفسها. التى رددت صليل حنجرته،ونتاج فكره. من هذا المنبر، سكب رحيق التنمية الثورية. ارتشفه شباب يصر على تحرير قارته من التخلف والهوان. هنا، يناقش قضية التقدم، فى البلاد التى خربها الاستعمار، فى حرية، وعلانية. الطريق الاشتراكى، لابديل له لتقدم افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية.

استأنف محاضراته، مبتهجا. كان يعلم الاشتراكية العلمية

فى بلده، فى الخنادق والكهوف، المظلمة. «الكادر» الثورى كان يقبل عليها، ويتلقفها. لكن الظلام، حال دون أن يرى الاشراق فى عيون الثوار، حينما يتلقون جرعات الثورة. هنا يرى اثارفكره ، تقلب الوجوه السود اقمارا وتنفذ الى العقول، لتعبر عنها الايدى تصفيقا.

التصفيق اثار نحوه مشاعر صديقه، وربما مشاعر أخرى. سأله محاضر افريقى شاب،يتأرجح بين اليمين واليسار:

ـ لماذا يصفق لك الطلاب، وأعضاء المؤتمرات والندوات، حينما تتدخل فى المناقشة؟

وأجابه:

ـ ربما لاننى استخدم قليلا من العلم، وكثيرا من الاحساس. ربما لانى أجسد قضية البائسين فى البلاد المتخلفة، فى ثوب علمى مبسط.

ـ لكن الآخرين يفعلون.

ـ قد يكون الفارق فى طريقة التجسيد ، وفى جرعة الاحساس. لعلى أقول مايريد الطلاب المؤتمرين أن يقولوا.

ـ أنت محظوظ.

مضى صاحبنا سعيدا باداء دوره. اليست هذه هى القارة، التى تضم أبأس شعوب الأرض، واكثرها تخلفا؟ رحلاته فيها اتاحت له دراسة بلدانها واكتشافها. هذه الشعوب السوداء البكر، تستجيب للفكر التقدمى، ولدعوة التحرر. وذلك على عكس الدول القديمة التى اختلطت فيها افكار، يشوه بعضها بعضا.

لكن سعادته لم تكتمل . اقتحمَ رأسه سؤال: من الذى يستمع الى محاضراتك، ويحضر ندواتك. الموظفون! المعهد مؤسسة دولية. تتعامل مع الذين ترشحهم الحكومات الافريقية للدراسة. هل هؤلاء سيقومون بالثورة الاشتراكية فى بلادهم؟ لاجدال أن فيهم نفرا مستنيرا. لكنهم يأتون من الطبقة المتوسطة. وهى تميل ـ مهما استنارت ـ الى النظام الرأسمالى، مطرزا ببعض صور الاصلاح! لكنك نشرت افكارك بين طلاب الجامعات فى مصر. هؤلاء سيكونون الموظفين. اليس من بين ايامك الغر، أيام اعداد منظمة الشباب؟ الم تلتق بنماذج مشرفة منهم فى معتقل القلعة، وفى المجموعة الديمقراطية؟

ظل هانئ البال ، بدوره العلمى والفكرى. راضيا ، بطبيعة

الحال، بمرتبه الكبير! أولاده يتعلمون، ويطببون على حساب الامم المتحدة. بيئة حرة، يقول فيها ويعمل مايشاء. وذلك اذا غض الطرف عن بؤس الافارقة، الزارعين للفول السودانى، المحرومين من حق تقشيره فى بلدهم!

بقى على هذه الحال، الى أن جاءت مجموعة مصرية من الدارسين. تهلل لرؤيتهم. يعوضونه عن الغربة. قطعة من الوطن. أرسلها الله ووزير التخطيط المصرى اليه. لعلها تخفف من لواعج الشوق الى بلده.

أقبل عليهم بقلب مفتوح، وروح عطشى لاخبار الوطن: حاضره ومستقبله. تحدثوا عن حاضره فحسب. كأنه ليس للوطن مستقبل. الحاضر يتركز حول الغلاء الفاحش، والمرتبات الهزيلة، التى تعطيها الحكومة للموظفين. هذا هو كل الحاضر. لاحديث عن الديمقراطية. ولا عن الاستغلال، والثراء الفاحش. الذى «تهلبه» الطغمة الحاكمة من ثروة الوطن، وارزاق الشعب. ليس للرأسمالية ، والاشتراكية ، وحركات تحرر الشعوب نصيب من اهتماماتهم.

بادر أحدهم خالدا، عندما رآه، من أول لحظة:

ـ كم سيكون مرتبنا الشهرى فى المعهد؟!

ـ ثمانون ألف فرنك أفريقى.

ـ وكم يساوى ذلك بالجنيهات المصرية، أو الفرنكات الفرنسية أو الدولار؟

عاونه خالد على حسابها. ترك الرجل خالد يتحادث مع الاخرين. وعكف هو على حسبته.سأله آخر:

ـ هل تعرف أين يبيعون السيارات المستعملة فى باريس؟!

ـ لا علم لى..

كان هم الطلبة المصريين، هو ادخار أكبر قدر من مرتباتهم. يكادون لايأكلون ولا يلبسون، ولايسكنون. لايريدون الانتقاص من ثمن السيارة المستعملة التى سيشترونها من فرنسا. ويبيعونها فى مصر. ثمنها يفيدهم فى المعيشة أو الزواج أو استئجار شقة. وهم فى ذلك معذورون. انحطت الحكومة بدخولهم، وبمستوى معيشتهم. هكذا هاجر العمال والفلاحون، الموظفون ، والاساتذة. هدفهم الحصول على دخل يكفل لهم غذاءهم وكساءهم ومأواهم.

تفهم خالد موقف زملائه المصريين. جاءوا من دولة، لاتوفر لهم

العمل المنتج والدخل الكافى. مع ذلك أصابته خيبة أمل. كان يبحث عن شئ لديهم. الا أنه لم يجده. خيل اليه أن الوضع في بلده، سيلهب الثورة عليه فى كل عقل. ويغرس الوعى فى كل وجدان. توهم، فى لحظة أمل، أن يجد فيهم صورة، ولو مصغرة، لافراد المجموعة الديمقراطية. خاب أمله. وتجلت له الحقيقة بغيضة.

راقب المجموعة المصرية فى المحاضرات والندوات. وجدها ساكتة هامدة. لا تسهم فى الحوار، أو طرح الاسئلة. بدا أنهم معوقون. لايلمون بالانجليزية أو الفرنسية، اللتين تستخدمان فى التدريس بالمعهد. مواطنوه لا يتواصلون مع المحاضرين.لاينتقل اليهم علم أو فكر . كانوا أقل المجموعات الافريقية، وعيا سياسيا وثقافيا. وأسفاه! لن يفيدوا من الفكر التخطيطى المستنير، الذى يبثه المعهد فى أفريقيا.

اشتد ابتئاسه. رأى فى تلك المجموعة، بعض الموبقات التى تستشرى فى المجتمع المصرى. انهم لا يتقنون الانجليزية أو الفرنسية. ولا حتى العربية. «اتقان العربية؟» خاطر مدمر وبناء فى الوقت نفسه. نسف السعادة، التى خيل اليه أنه ينعم بها فى

هذا الوسط الافريقى. عاد بقصة مصر، والثائرين فيها، لتشتعلْ لهيبا فى صدره.

ذهب الى منزله . التقى بابنه وابنته. تفرس فى وجهيهما ! تحادث اليهما واصل الحديث. استمع بارهاف الى ردودهما عليه. الحديث بالعربية. وجم. لغتهما العرية فيها «لكنة» !كانا قد أمضيا فترة الحضانة في مدرسة فرنسية. والمرحلة الابتدائية فى مدرسة أمريكية. أعدتها كنيسة أمريكية، لتعليم أبناء المسلمين، والمسيحيين، واليهود في داكار! أبناء الفئات» الارستقراطية» الاجنبية، من خبراء الامم المتحدة، والسفراء. المصروفات المدرسية فادحة، رغم أن الذى يقوم بالتعليم مؤسسة دينية!

الولد فى الثانية عشرة. والبنت فى التاسعة. كان حريصا على أن يتعلما العربية تعليما متقنا. وأن يتحدثا بها حديثا طبيعيا. استأجر لهما مدرسا شيخا من الازهر ليعلمهما. كان المبعوث الوحيد للازهر فى هذا البلد الاسلامى.ولكى يتقنا اللهعجة العامية، احضر من مصر،فتاة قريبة له، لتتحدث معهما، وآل هو

على نفسه ألا يتحدث اليهما بغيرها.

ومع كل ذلك ، كانت« اللكنة » واضحة. فزع عند سماعها هذه المرة فزعا شديدا. لابد من العودة لمصر، قبل أن تستفحل اللكنة ، فتلجم لسان الطفلين. اذا كبرت معهما ، هيهات أن يستقيم لساناهما.

حول هذه النقطة تجمعت كل القوى المضادة لبقائه فى داكار. تلاشت المتعة التى يحسها وهو يحاضر مخططى القارة، فى الطريق الاشتراكى للتنمية. طغى عليها النضال الحقيقى، والذي كان يمارسه مع المجموعات الثورية فى بلده. الاثارة، هى أن تثير الناس فى الجحور، لتخرجهم من الظلمات الى النور. أن تتصل بالجماهير الكادحة نفسها، صاحبة الحق الديمقراطى فى الحكم.

ذهب الى المعهد ، فى اليوم التالى . قدم استقالته. علم بذلك أحد أصدقائه المقربين. حاول أن يثنيه عن عزمه:

ـ ماذا فعلت؟ أنت لاشك مخبول. دعنا نذهب لنسحب الاستقالة.

ـ لا . أنا مصر عليها.

ـ أين ستذهب؟ الى مصر؟ ألست تعرف حالها؟

ـ انها وطننا. لابد أن نعود اليه.

ـ البلد غدت وسية كبرى ، للمرتزقة، والطفيليين، وتجار المخدرات، ليس لك فيها مكان.

ـ مكانى أعرفه! يجب أن نعود ، لنخلصها من هؤلاء، ومن حكومات صنعتهم وارتبطت بهم.

ـ لماذا تتسرع؟ على الاقل، فكر قليلا، ولاداعى للعجلة.

ـ خير البر عاجله. أنا لا أستطيع أن أترك أبنائى، يغتربون عن بلادهم ويتكلمون عربية «مكسرة». لابد لهم من الانتماء الى وطن، يشرفون بالانتماء اليه. ويناضلون من أجل تحرره وتقدمه.

ـ ياسيدى الفاضل. الأولاد، يمكن أن تعلمهم في جامعات اكسفورد وكامبريدج على حساب الامم المتحدة. اذا ذهبت الى مصر. أين سيتعلمون؟

ـ أنا أفضل التعليم المتردى فى مصر، على أن يتلقوا تعليما متقدما فى انجلترا أو أمريكا! ثم يصبحون خواجات. عندها ،

سـوف لا يشـعـرون بأنهم مـرتبطون بطين أرضنا. وانهم قطعـة من أهلنا. ياصـديقى. انا فـلاح، أريد أن أرى طين بلدى وترابه، يعلق بأرجلهم، وبأيديهم، أريدهم أن يناضلوا من أجله. ويسـعـدوا بالانتماء اليه. ويحسوا بأن لهم وطنا رءوما، فلا يصيبهم الضياع، عندما تتقدم بهم الايام.

ـ على الرغم من أنك قطعت شوطا كبيرا فى التعليم. وأفكارك تقدمية، الا أنك مازلت خياليا.

ـ ألا تدرى، ما هو الوضع في بلدنا الان. معتقل كبير، عزبة للحكام وطغمتهم. الحياة مستحيلة. حرام عليك أن تزج بطفليك الرقيقين فى هذا الخضم. وزوجتك ماذنبها، لتلقى بها فى هذا الاتون؟

ـ زوجتى تستحثنى منذ زمن، على العودة لمصر. ان لى دورا يجب أن ألعبه فى بلدى. ويجب أن تؤدى أنت كذلك دورك. كيف يهرب المثقفون من بلادهم؟ ويتركونها نهبا لعصابات تسفك دمها. وتمزق لحمها. علينا أن نعود، ياصديقى، لنؤدى دورنا الانسانى نحو شعبنا. انى أنصحك بالعودة قبل فوات الأوان.

ـ يبدو أن بك مسا من الجنون. أنا ياسيدى باق. افعل بنفسك ما تشاء. لقد أسديت لك النصح. اللهم فاشهد.

كانت «اللكنة» التى أصابت لسان طفليه، هى السبب فى تعجيله بالرحيل وحسمت حربا ضروسا، دارت فى جوانحه، منذ أن غادر بلده. ومنذ أن ترك أعز أمنية غازلته طول حياته: الانضمام الى حركة الشعب الكادح لتحرير مصر.

ذهب الى مكتبه، ليجمع أوراقه. دخلت عليه امرأة افريقية، سامقة الطول، باذخة العرض، مكتظة اللحم. ترتدى اللباس السنغالى: فستان طويل. وعلى رأسها «ايشارب» ملفوف فى شكل «طاقية» عالية مزركشة. قالت له:

ـ وحشتنا.

هكذا دون مقدمات؟ رد عليها:

ـ أهلا وسهلا.

ـ لم أرك منذ مدة طويلة.

حملق فيها. بعض هذه الملامح أليفة لديه. غير أنه لايستطيع

أن يجمعهـا معـا، لتـكون وجهـا يتـعرف عليـه. كان مجاملا. قال لها:

ـ وأنا كذلك لم أراك منذ مدة!

فطنت المرأة الى أنه لايتذكرها. قالت له:

ـ ألا تعرفنى؟أنا «أميناتو»!

ـ أميناتو؟ غير معقول..

ـ أهكذا تنسانا؟

ـ ماذا فعلت بنفسك؟

ـ تزوجت وأنجبت ولدين.

«سبحان مغير الاحوال» أين ياأميناتو غصنك البانى،وجسدك الابنوسى؟ ما بال الرمانتين السوداوين،قد انتفختا، وتهدلتا، وأصبحتا بطيختين.أين ذلك الصدر الفاحم، الاملس، النافر، الذى كان ينبض بالحب ويسكر باللمس. فجعه واقع أميناتو. مسخت الصورة الشاعرية التى طالما داعبت خياله سألها سؤالا لايتسق مع حالها وحاله:

ـ ما اخبار النضال ضد قوى الاستغلال الاجنبية والمحلية؟

اجابت بنغمة متكسرة:

ـ القهر الفرنسى السنغالى المشترك خرب حركتنا .والزواج والعيال والعيش «هدت حيلنا»

سكتت «أميناتو» قليلا،ثم قالت فى صوت متثائب:

أنا الان موظفة فى المعهد. نريد أن نراك.

ـ انشاء الله

كان يقصد أنه «انشاء الله» سيغادر داكار الى بلده. لم يعد لبقائه فى أفريقيا نفعا أو مذاقا.

- - - -

-٣٧-

- انطلق من داكار بالطائرة، عائدا وأسرته الى وطنه. لم يعبأ بالاغراءات التى خلفها وراءه . لم يكترث بالاخطار والمتاعب، التى تنتظره وولديه. استولت عليه فكرة واحدة: أن يعود الى وطنه ليرتمى في أحضانه، وفى أحضان أولئك المناضلين الابطال. قبل

ارتحاله، وجد فى صندوق بريده خطابا. وضعه فى جيبه لكى يقرأه فى الطائرة:

أستاذنا خالد:

عز علينا كثيرا، أن تفارقنا، دون أن تودعنا. كيف جاز لانسان كبير القلب. يحمل طاقة ثورية مشتعله، وفكرا مستنيرا، أن يغادر رفاقه دون أن يلتقى بهم. اذا كان «العيش والملح»، الذي أكلناهما سويا بكميات كبيرة قد هانا، فكيف يهون النضال،والمجتمع الافضل ، الذى نريد بناءه؟ لم يصدق أحد من أولئك الذين نفثت فيهم كلماتك، وعيا قويا، أن تتركهم فجأة. أفراد مجموعتنا يرتبطون بك ارتباطا عاما وشخصيا. الرابطة العامة، هى الثورة، كما تعلم. ولكل منهم معك قصة شخصية. كان أشد المحزونين على فراقك، أبوزيد، وفارس .بينهما وأهليهما، وبينك، علاقة التاريخ والكفاح، منذ أيام الوسية اليونانية. اغرقت أهلهم ببطولتك الفردية. قاتلت الخواجة من أجلهم وانتشوا بالفكر الثورى، الذى أجريته قانيا فى عروقهم. وأصبح نسيجا فى خلاياهم، وطاقة موقدة فى صدورهم. أتدرى ماذا حدث لهذين البطلين؟ أبوزيد بطل «الفلوكلور» وفارس اللذان يقومان بدور ستفاخر به، هذان الفارسان ذرفا دمعا سخينا

على فراقك . وهما رجلان يؤمنان بأن البكاء مقصور على النساء!

وصوفى، أوشك أن يرتد . خطر له أن الثورة كذب وبهتان. وأن الاجدر به أن يعود الى القبور. الناس هناك لايغادرون الوطن! أما محبوبة فصامتة منذ غادرتنا.خبا السنا في عينيها. ذبل الورد فى خديها. تراخى صدرها. لم تعد جرعاتك ولمساتك الفكرية، تنفخ فيه.

اقترح أحدنا فصلك من المجموعة، ومن الحركة. وعلى غير ماتوقعت، هب الجميع فى وجهه. لم يتمكن من شرح موقفه. سحب اقتراحه، وآثر السلامة. كاد اليأس يغشاهم. قلت لهم: ان خالد لا يستطيع أن يعيش من غير ثورة. ولا يعترف بأن مجتمع ، سوى المجتمع الاشتراكى ، الخالى من الاستغلال والقهر. واطمئنوا انه قادم.

أرجو أن نستردك فى ساحة النضال قريبا. لا. انى أثق أنك لم تغادر تلك الساحة. وانى لعليم بما تقوم به فى أفريقيا. الا أنك تدرك، أن النضال هنا أحلى. وقطوفه دانيات. فارجع الى تلاميذك ورفاقك... «مجاهد»

ظل يقـرأ الخطاب مـرارا، الي ان أخذت الطائرة تهبط فى مطار القاهرة. ترك زوجته وأولاده فى طابور «الجوازات» ذهب «يتلفن» مجاهد. رفع مجاهد سماعه التليفون.

ـ آلو .. من ؟

ـ أنسيت هذا الصوت؟

بهت مـجاهد للمفاجأة. كـان قـادرا على اخفاء عواطفه. هادئ الاعصاب، متزن المشاعر. لكن الصوت فجأه، فهز هذه الخصال جميعا. حاول السيطرة على نفسه. همت دمعة من مقلته. كبتها. لم تجد طريقا تنهل منه على خده. رجعت الى حلقة «خشخشت» من صوته:

ـ كيف أنسى، وصوتك فى عقولنا ، قبل آذاننا.

اتفقا على لقاء. قاده مجاهد فى الحال، الى مكان تجتمع فيه المجموعة. لم يكن أحد يعلم بمقدم خالد. اخذوا على غره. تصرف كل منهم حسب وقع المفاجأة عليه. وحسب الشحنة العاطفية التي تربطه بخالد، ومدى غضبه منه. انتفض البعض واقفا في مكانه. ظل البعض جالسا. اندفع نفر منهم نحوه، فى عناق. سلم عليه

الاخرون سلاما رسميا، اشاحت محبوبه عنه بوجهها. وظلت جالسة. غالبت دموعا، طفر بها الشجن على خديها. أدارت وجهها، لتمسحها. وحتى لايشعر خالد بأنه عزيز. تقدم لها خالد. سلم عليها. سلمت عليه بيد مرتخية، وأهداب مسبلة.

رغم ذلك، كان لقاء المجموعة له جياشا.. اختلطت فيه «النظرات بالعبرات» لم يستطع مجاهد أن يدير اجتماعا، يبحث شئون الحركة. أجل الاجتماع، حتى لاتنطلق الاحاسيس من عقالها. ربما تنحرف الى محاكمة خالد من جديد. عندما تهدأ النفوس يكون الاجتماع القادم أكثر رشدا.

رأى خالد فى اللقاء، مكافأة له. سرى خدرها الى عروقه. الوطن، ككل لايظهر امتنانه لبنيه،فافضاله تغرقهم. ولكن المكافأة الحقيقية، هى مشاعر الناس الذين يتواصل معهم. وهاهى مجموعته تقدم مشاعرها الغالية له هدية تبز كل الهدايا.

لكن الجزاء الذاتى، هو الاصل. عاد الى أمه مصر. جاء بأبنائه، يتغبرون بترابها، ويغتسلون بنيلها. عادوا ليسهموا فى تحرر شعبهم. نفسه راضية سعيدة. ما أجمل رضاء النفس، وما أنقى سعادتها.

كانت هناك مكافأة لم يتوقعها. منحته سعادة افعمت قلبه. قال له ابنه رفيق بعد أن تخرج مهندسا من جامعة عين شمس:

ـ ان أعظم ما فعلت، أنك أتيت بنا من داكار ، الى وطننا مصر. ونحن مازلنا ايفاعا. استقامت لغتنا العربية والتصقنا بوطننا. وأصبحنا قطعة من معاناته، وعنصرا فاعلا للنضال من أجل الانسان، الذى يعيش فيه.

- - - - -

كان الشعور بالنفى يسرى فى ذهنه. ويواكب هذه الصور، التى شاغلته، وهو يحملق في سماء جوبا. غير انها كانت مرضية له: اننى لم أفعل ما يغضب وطنى لينفينى. كان زملائى على صواب: قارنوا بين المعتقل والنفى اختاروا لى النفى. وهو وان بدا، وكأنه أخف الفاجعتين، الا أنه ليس كذلك».

أوغلت به خواطره فى جوف الليل الى مشارف الفجر. النوم يداعب أجفانه . وغدا يوم جديد ، ووجوه جديدة.

- - - -

ذهب الى الجامعة فى الصباح. المكان يموج بشباب أسود، مطرز بنماذج سمراء أتت من غرب السودان، وشرقه، وشماله. انداحت فى جسده رعدة لذيذة. شباب الجامعات فى كل مكان يبهجه.

دخل قاعة المحاضرات: عشرون فتى وفتاة. فى عيونهم تطلع الى المعرفة. وعطش الى العلم. المحاضرات بالانجليزية. قدم لهم نفسه. المواد التى سيدرسها: تاريخ الفكرى الاقتصادى، والتنمية الاقتصادية. أقبل الطلاب عليه، اقبالا حميما. يستمعون ويحاورون بشغف واستيعاب. كانوا أكثر حرارة وانفعالا من الدارسين فى معهد داكار. شباب طليق، لاتعوقه الوظائف الاسلاميون منهم مستنيرون كذلك. يقبلون على المناقشة. يفيدون من المحاضرات والحوار. يثرون خطهم الفكرى: الاسلام لايتعارض مع التحليل العلمى، الهادف، لتحرير الانسان من الاستغلال، والمضى به فى طريق التقدم. بل ان الاسلام يوجب هذا المنهج العلمى.

فرح خالد كثيرا بطلابه. أنسوه أنه منفى. لم يشعر بالاغتراب بينهم. الشعور بالاغتراب قد يخالج شعبا بأسره. وهو رابض فى

وطنه. القلة الباغية تفترس عمله. تحوله الى ثورة خاصة بها تحرم الجماهير المنتجة للثروة، من ثمار عملها. وتعزلها عن الناتج الذى خلقته. الثورى كذلك، يسعده أن يجد حوله من يؤمن بافكاره حينئذ لا يحس اغترابا. هذا نتاج قريحته يزهر فى بيئة تحنو عليه.

هكذا أمضي يومه الأول، راضيا مرضيا: مجموعة شابه، تتلقف فكره العلمى والمستنير. وتشغله عن فكره ابتعاده عن وطنه. فى المساء هجع الي غرفته . وافاه حليم، الذى يدرس علم السياسة، بنفس المنهج العلمى. أعد لهما الطباخ وجبة للعشاء، غير معروفة «الهوية» كذلك. أكلوها لتشجيعه. ولكى يمضى فى ابتكار هذه الوجبات، التى يأكلونها، لتدرأ عنهما غائلة الجوع فحسب.

فى التاسعة تماما، خبت الانوار، ودمس الظلام. خرجا يلتمسان نورا من النجوم. جلسا خارج المبنى. أدار حليم مفتاح الراديو. المحطات حول جوبا ضعيفة. الخرطوم لا تسمع . كذلك الدول الافريقية على حدود الجنوب: كينيا، والحبشة، والصومال وأوغندا. لكن كانت هناك محطة قوية: «صوت أمريكا» ! لعل صوت

أمريكا يحمل لهما أنباء من الوطن . نشرة الاخبار تبدأ بمصر: سلطان مصر يعتقل عددا كبيرا من معارضية . يبلغون الفا وخمسمائة معتقل. السلطان لا يفرق بين اليمين واليسار والوسط. المعتقلون من القوى السياسية، والمجموعات المثقفة، والصحفيين، وأساتذة الجامعات. منهم مشايخ وقسس. وعلى رأسهم البابا شنوده، الذي أعتقل فى دير فى الصحراء. من بينهم باشوات، كسراج الدين وصحفيين، كحسنين هيكل. وكذلك أعضاء الاحزاب، والجماعات الاسلامية والمسيحية ،والشيوعيين، والناصريين، وغيرهم.

ـ قال حليم لخالد:

ـ الحمد لله. لو كنا هناك، كان اعتقلنا.

لم يكمل حديثه، حتى كان الخبر التالى:

وقد اعتقل سلطان مصر مجموعة من السياسيين، واليساريين، وأساتذة الجامعات وأعضاء لجنة الدفاع عن الثقافة القومية وغيرهم. كانوا يعملون على «قلب نظام الحكم. وهذه هى أسماؤهم:

ـ محمد عبد السلام الزيات.

ـ فؤاد مرسى.

ـ خالد حسن خالد.

ـ لطيفه الزيات.

ـ حليم الشرقاوى.

أكثر من عشرين شخصا.

ـ نقلب نظام الحكم، ونحن على بعد خمسة آلاف كيلو متر من بلدنا؟

ورد حليم، الذى كان مشهورا بمعارضاته، وسخرياته:

ـ هذا ممكن. اشتركنا فى تدبير المؤامرة، قبل أن نرتحل الى السودان. وبقية المجموعة تعمل على تنفيذها!

قلق خالد وسعد. قلق، لانه لم يشترك مع هؤلاء، فى «قلب نظام الحكم». انه حتى لا يعرف أكثرهم. غير أنه سعد. لم يكن من بينهم اسم من أسماء رفاقه فى المجموعات النضالية. وسأل حليم:

ـ هل كانت هذه الجماعة تعمل حقا على قلب نظام الحكم؟

واجابه:

ـ هكذا يقول الاتهام.

ـ دعك من أسلوبك الشهير للحظه. واجب على سؤالى.

ـ كيف أعرف، وأنا معك؟ فاذا كنت قد اشتركت فى قلب نظام الحكم، فقد اشتركت أنا كذلك.

ـ كأن هذا تلفيق. ولماذا يلفق لنا الرجل التهمة؟

ـ التلفيق ليس مقصورا علينا. هذه الالاف المعتقلة، لفق لها تهمة كبيرة: اثارة النزاع الطائفى، وتدمير وحدة الامة. فلا تستغرب.

ـ الرجل وأجهزته، قد أختاروا المجموعتنا اسما للمؤامرة المزعومة. أطلقوا عليها اسم «المستنقع». الحق أن الرجل بليغ. وصف فى كلمة واحده، ما آل اليه البلد الذي يحكمه

ـ المهم الان ماذا نصنع؟

كانا من الصعب أن يفكرا تفكيرا سليما. بعد فترة صمت قال خالد:

ـ موقفنا حرج. السلطان صديق للحاكم فى السودان. الصداقة هنا ليست شخصية، بقدر ماهى صداقة بين النظم الفاشية العسكرية.

ـ لقد جابت هذه الخاطرة ذهنى. وهى لاشك تعقد المشكلة.

كان حليم صديقا لشخصيات سودانية في المجال السياسى والثقافى من بينها مدير جامعة جوبا. اقترح خالد عليه أن يذهبا معا للقائه. ومناقشته فى الموضوع فى صراحة. كان مدير الجامعة مستنيرا ، بدرجة تفوق خطه السياسى اللبرالى. قال لهما:

ـ جامعة جوبا حصن يحمى كل من ينتمى اليها! منطقة جوبا، والجنوب كله كانت مصدر قلاقل لحكومة الشمال. ظلت فى حرب أهلية مع الشمال لبضع سنوات. الجامعة كانت مركزا من مراكز هذه الحركة. استمرت الجامعة مغلقة طوال الاضطرابات . فلا يستطيع النميرى أن يقوم بأى عمل قد يثير عليه الطلبة. ويشعل المشكلة بأسرها من جديد. ومازال الاتفاق مع الجنوب لم يجف مداده.

سارع خالد بالتساؤل:

ـ هل يثور الطلاب لتسليم معتقلين مصريين الى سلطان مصر؟

ـ طبعا. أنه يثورون لأى عمل ، يوجه للجامعة، مهما صغر.

وأراد المدير أن يتخفف، فأضاف:

ـ وانتما مهمان!

وعادلحديثه مرة أخرى:

ـ لـن يستطيع النميرى أو غيره، أن يمسكما ، وانتما فـى الجامعة.

خرجا من عند مدير الجامعة أكثر اطمئنانا. وما أن استقرا فى مسكنيهما ، حتى عاودت حليم فلسفة الاحباط. كان يجيد هذا اللون من الحوار، وكأنه هوايته. ساله خالد، عما اذا كان يطمئن الى توكيد مدير الجامعة لهما :

ـ طبعا ، أنا غير مطمئن.

ـ كيف؟

ـ مدير الجامعة يريد أن يهدئ من روعنا. لكن في ظل نظام النميري الفاشى لا أحد يستطيع أن يطمئن..

ثم واصل ساديته:

ـ ومع ذلك من يعلم؟ قد يكون كلامه معقولا.. لكنى لا أستطيع أن أوكد! هكذا أمضي خالد أيامه : موجات من الطمأنينة، تتلوها موجات من القلق. لكن المخاوف أصرت على أن تغزو رأسه: النظامان السلطانيان فى مصر والسودان، يتبادلان الشخصيات السياسية، المتهمة بالعداء للنظامين. فتسليم النميرى لنا لسلطان مصر ، أمر وارد تماما.

أخذ يشغل نفسه برحلات حول المنطقة. انه يشغف بالغابة. الغابة الاستوائية الجنوبية، على بعد بضعة كيلومترات.. كم يحب أن يكتشفها. قبل أن يقوم برحلته الى الغابة، كان يحلو له أن يتريض مشيا ، في وادى جوبا. كان يمشي رغم معوقات كريهة.. كان عليه أن يقطع مسافة طويلة، وسط مرحاض شاسع يحيط بالمدينة! الشعب السودانى الجنوبى يذهب الى الحقول زرافات ووحدانا ، ليقضى حاجته! الرجال والنساء. والصبية والصبايا ، والاطفال. كان يظن أن الناس يتنزهون مثله، عندما يناديهم الاصيل.. لكنه لاحظ أنهم يتوارون بين الاعشاب والشجيرات. كذلك فالرائحة «زاعقة» . كان الناس يتوزعون للقيام بهذه العملية، دون فواصل ذات بال، بين النساء والرجال.

أسرع الخطى ، ليتخلص من هذا الاصطبل الكبير. اصطبل لم يجرح احساس المؤسسات الدينية ورجالها . ولا الحكومات الامريكية والانجليزية والفرنسية وبعثاتها . لم تنل من آدميتهم هذه المهانة. لم يبذلوا جهدا او مالا لعمل مجارى فى بلد هبطوا عليه، مذ قرن من الزمان. يبدو أنهم كانوا يهتمون برأس الانسان فحسب. يملئونها بأفكار مشوهة. لا شأن لها بمعيشة الانسان وبمستواه الثقافى . لهذا أهملوا بطون الناس. لا يهتمون باشباعها ، وبالتالى بما تفرزه من بقايا.

عندما تخلص من الاصطبل وعفنه ، استقبلته السماء بمهرجان من الالوان ، عجبا : السماء فى واد والارض فى واد ! الشمس شاحبة تتهادى الى الافق . تبعث بألوان الطيف لتنعكس على الغمامات التى تناثرت على القبة الزرقاء . الشعاعات البرتقالية لاتتجمع فى الغرب فحسب . طعنت السماء الي الشرق . وسرت فى الجنوب والشمال. سبحت فى السماء كلها غمائم من البنفسج والياسمين والتمر حنه .

نسى الارض ، وهام فى السماء ، المهرجان السماوى يغريه برؤيته اصيل كل يوم . يعبه عبا . انساه جويا ، واكواخها ،

ومرحاضها الشاسع . لكنه تساءل : كيف تختال السماء فى ابهى حللها . وتترك الارض تغوص فى القبح والهوان؟

وصل الى النيل . النهر العظيم بدائى . كما وجد منذ الابد . تمضى مياهه فى جلال، وتركض . نحو الشمال . الا ان هذه المياه الهائلة ، ليس لجوبا منها نصيب، ليس فى هذا البلد مستودع للمياه النقية ! تحمل الهيئات لخبرائها ،وكهنتها ، والعاملين فيها الماء من النيل فى فناطيس. يكرر كل منهم الماء على هواه. شعب جوبا يشرب الماء «بالغرين» ! نصيحة قدمها له الشيخ سليم، «باشخولى» وسية الخواجة اليونانى ، عندما كان يعمل فيها كاتبا صبيا ، قال له « اشرب الماء بطينه ، هذا الطين غذاء وصحة» ،وقد بقيت اثار الطين فى امعائه ، الى ان تقدم به العمر.

- - - - -

كان ولعه برؤية الغابة شديدا ، غازلته فى الكتب ، وعلى شاشات السينما والتليفزيون.لم يقتصر ذلك على صورها الطبيعية الخلابة : البلابل والببغاوات ، والطيور الباهرة،تصدح على افنانها ، اشجار جوز الهند تسمق فى السماء. جذوعها «السرحة» الملساء ، ثمارها اليانعه تتساقط على الناس ، تساقطا

طليقا.تقدم لهم الطبيعة وجبه مجانية ، فاكهة شهية ، فى بطنها رضاب من لبن وعسل ، الطبيعة اكثر عدلا وحنانا للانسان من اخيه الانسان .

لم يكن غرامه بالغابه ، بسبب الحيوانات ، التى تمرح فيها ، والمطاردات المثيرة بين ما يسمونه بالحيوْانات « المتوحشة » والحيوانات الضعيفة ، لكنه كان يريد ان يتعرف على العلاقة بين الانسان والانسان ، والانسان والحيوان ، والحيوان والحيوان .

ملأ كتاب الانثروبولوجيا ، والجغرافيا ، والتاريخ ، راسه عن انسان الغابة البدائى ، والحيوانات المفترسة فيها ، حيث يفترس القوى الضعيف ، ويأكل المتوحش الاليف.

وجد انسان الغابة ودودا ! اذا ابتسمت له ، يبتسم لك ، بل يقرئك السلام ، لايهاجمك ولايفر منك ، اذا كنت زائرا صديقا للغابة ، يخاطبونك بلغة لاتفهمها. غير أنها تصل إلى وجدانك. كيف خلعوا على انسان الغابة أو صاف البربرية والتوحش؟ أنه لا يبدؤك بأذى، الا اذا بادأته. يصاحبك فى مسارب الغابة، ويرشدك إلى انحائها. غير أنه لا يأخذك إلى بيته. ليس له بيت. الغابة كلها بيته!

وقع صاحبنا فى حبال الباحثين يوما. وصف معتقل القلعة، بأنه غابة. ألقوا به فيه ، لأنه صدقهم، وبث الاشتراكية بين الشباب. التعذيب البشع، الذى يجرى فيه، لا يحدث الا فى مجتمع الغابة. الا أنه بعد أن رأى الغابة، أيقن أنه ظلمها. الفارق كبير بين المعتقلات فى بلده، وبين الغابة. لم يجد فى الغابة انسانا، ينهش لحم أخيه حيا وميتا، كما شهده فى المعتقلات. الذين يعذبون الثوار فى المعتقلات، لا ينهشون اللحم، ولكنهم يستمعون بنهشه. ولايحطمون العظام. ولكن يتسلون« « بمصمصتها ». ولايسفحون الدم، ولكن يلغون فيه، انسان الغابة لا يفعل شيئا من هذا.

اذا أراد الباحثون والعلماء، أن يتعرفوا على الانسان الوحش حقا. فليذهبوا الى غابات القلعه، والطور، وأبى زعبل، والواحات.

انتقلت خواطره إلى مهمة الغابة الوطنية. حركات التحرر الوطنى، والاجتماعى فى أفريقيا بدأت من الغابات. من هذه الغابة، قامت حركة ثوار جنوب السودان ضد حكومة الشمال. ومن مثيلاتها فى كينيا، قامت حركة «الماو ماو » التى طردت

الانجليــز من كــينيــا. ومن غــابات انجــولا. ومــوزمــيــق، والرأس الأخضـر، قـامت الحـركـات الوطنيـة التى هزمت البـرتغـال، وحـقـقت الاسـتـقـلال. وأخذت تمهـد الطريق للاشـتـراكـيـة. كـذلك فـعـل ثوار أثيوبيا والكونجو، وزيمبابوى، ومازال يفعل ثوار ناميبيا وجنوب أفريقيا. الغابة مضيافة للثوار فى كل مكان. أم رءوم تغدق الخير على بنيها. وتسدل الحماية عليهم فى كهوفها وخمائلها تمنى لو غزت الغابات أرض مصر!

أوحت اليه الغابة بخاطر. كان مصدرا لطمأنينته. لم يمنحه له مصدر آخر:

هذه الغــابة، اســتــضــافت ثورة بأكــملهــا. لاشك أنهــا ســوف تســتــضــيـفنى وتوؤينى. الغــابة على بعـد بضـعـة كليـومـتـرات من جامعة جوبا. يمكنى أن أقطعها فى ساعة، اذا ماجد الجد. فلأهتف بسقوط سلطان السودان كما هتفت بسقوط سلطان مصر. لم أعد بعد اليوم خائفا.

- - - -

جاءه خطاب من مجاهد جاء في وقت اشتد فيه شوقه لاخبار الوطن، والثوار فيه الخطاب مكتوب على الالة الكاتبه استخدم فيه« الكود » قرأ من خلال «شفرات » الخطاب:

الوطن يزداد سوءا. المعتقلات مليئة بالاحرار، وغير الاحرار. باليسار واليمين. لحسن الحظ، المعتقلون من مجموعاتنا قلة،. أولئك الذين كانوا يجمعون بين النشاط العلنى والسرى.

ولعلك قرأت ، أنك أحدهم ياحلو! مجموعتنا اجتازت الأسى على فراقك ، إلى دورها النضالى، الذى لا يعوقه غياب فرد أو أفراد.

هزه الشوق إلى ابنه وابنته وزوجه. ماذا فعل بهم السلطان ورجاله؟ وماذا صنع بهم زوار الفجر؟

فى اليوم التالى جاءه خطاب من لندن. الظرف فقط من لندن. والخطاب داخله من مصر! من زوجته وأولاده. شعر لأول وهله بشعور مريح. زوجته أعطت الخطاب لمسافرة إلى لندن. وهناك وضع

فى ظرف آخر، وارسل لجوبا. قدمت له زوجته تقريرا مطولا، عما حدث منذ مغادرته القاهرة:

الليلة التالية لاقلاعك، دهمنا زوار الفجر. قرعوا الباب باقدامهم، وركلوه بأرجلهم. احدثوا ضجة كبيرة، ايقظتنا فزعين من نومنا. ذهبت إلى الباب. نظرت فى العين السحرية. وجوه قبيحة، مغبرة. اجرام يجرى فى ملامحها، بينهم بعض الضباط، وبعض المدنيين. ذكرونى، على الفور، بالمجموعة التى اقتحمت علينا عشنا، فى عهد عبد الناصر. فى أول الامر ترددت فى فتح الباب. اشتد القرع والرفص. كان لزاما على أن أفتح الباب، حتى لايكسروه.

- اين الدكتور خالد؟

- ليس موجودا.

- اين ذهب؟

- لا أدرى.

كان ابنه وابنته قد فجأهما المنظر. كان رفيق ثلاث سنوات، وشيرين بنت ثلاثة أشهر، حينما هاجم البيت، حراس الوسية

السـريـين، فـى عـهـد عـبـد النـاصـر . لكنهـمـا الان يافـعين، سـأل أحدهم رفيقا:

- أين والدك؟

أجاب بصراحة على الفور:

- سافر إلى السودان.

- لماذا ؟

- ليدرس فى الجامعة هناك.

- أى جامعة؟

- وما يدرينى؟

تفرق المهاجمون فى غرفات الشقة، يبحثون عن الدكتور. وعن الوثائق التى تدينه فى « قلب نظام الحكم». لم يجدوا شيئا. ذهب بعضهم الى المكتبة يفحصون الكتب. قالت لهم زوجته فى جرأة غير مألوفة عنها:

- لن تستطيعوا قراءة الكتب، ولا فهمها. فيها علم. وشعوب تتحرر من القهر. بلغ المهاجمون الاهانة. كانت واقعية شديدة

الواقعية. غادروا الشقة، بعد أن أحدثوا فى قلوبنا الهلع، الذى أرادوا أن يحدثوه. ولكن «ولا يهمك» اعطيتهم درسا!

أما الصحافة، فكانت حقيرة. أقصد ما فيها من صحفيين مرتزقة. صوروا المجموعة المثقفة الثورية فى مصر، وكأنهم خونة. قالوا عنهم كلاما قميئا يزرى بهم، قبل أن يمس المثقفين الشرفاء.

بقية الخطاب كلمات فيها تشجيع وحب. وفخار سطرها كل من رفيق وشيرين فى عبارات قصيرة بليغة.

هدهد الخطاب مشاعره. الاولاد بخير والغابة الحقيقية، لم تفترسهم.

ظل هكذا حاله. ينعم بمحاضراته وندواته. وبالخطابات التى تأتيه من أسرته ومن مجاهد، والتى لم تعد كلها بالشفره. اصبح مجاهد يرسل الخطابات من استكهولم، وباريس ولندن وداكار ! كما تفعل زوجته، لهذا أصبحت أكثر تفصيلا وثراء. لم يكن هناك خوف من الجانب السودانى. الخطابات إلى جوبا، تأتى من نيرونى. تحملها طائرات الكنيسة النرويجية ولا تمر على السطات السودانية!

كان يحج الى الغابة، بين الفينة والفينة. يتسلهمها الطمآنينة.

غيـر أن هذه الطمـأنينة بلغت أجلهـا. انتـهى الموسم الدراسى. أجريت الامتـحـانات. وانفض المولد. غـادر الطلاب الجـامـعـة الى ديارهم بدأ أعضاء هيئة التدريس يرتحلون. حين أصبحت الجامعة خاوية. شعـر بزوال الحـماية التى وفـرها له الطلاب. هبطت عليه المخاوف من كل صوب. فكر فى اللجوء إلى الغـابة لكنه عندما أعـاد التـفكيـر، تبـخـرت الفكرة. حيـاة الغـابة قـد تلائم مـحـاربا جنوبيا. لكنها لا تلائمه كذلك فهو محارب وحيد. كيف يحارب من بقعة نائية، تبعد خمسة آلاف كيلومتر عن أرض المعركة؟

ناقش مع حليم، خطة الخروج من جوبا. عرض عليهما عميد الكلية. أن يبقيا فى الجامعة، اذا شاء! ويستأنفا التدريس فى الموسم القـادم. الجـو فى جـوبا قـائظ. الجـو السـياسى أشـد قـيظا. سيكونون وحيدين، دون حماية الطلبة. كان حليم أكثر اطمئنانا من خالد. أهى أعصابه الهادئة أم صداقاته الكثيرة؟ مـاذا تجدى الاعصاب الهادئة، والاصدقاء، فى نظام النميرى؟ قال حليم:

- ماذا ستفعل يا أبا الخلد؟

- البركة فيك، يا أبا الاحلام!

- دعنا نفكر معا. سألت أصدقائى السودانيين: هل هناك خطر علينا، عند مغادرتنا السودان. أجابوا: لاخطر على الأطلاق. الحكومة السودانية، لا تعرف أنكم هنا.

- هل يعنى ذلك أننا سنذهب إلى الخرطوم، ونطير من هناك؟

- نعم.

- لا ياعم! أنا ذاهب من هنا إلى نيروبى. وأقلع من هناك.

- وما الفارق بين السفر من جوبا إلى الخرطوم، وإلى نيروبى؟

- فى الخرطوم، نكون قريبين من فك الاسد. أما هنا فقد لاتدركنا مخالبه.

- أنا ذاهب إلى الخرطوم على أية حال.

- أما أنا فاتسلل إلى نيروبى من هنا.

كان قد عمل فى الجامعة العربية، مديرا للادارة الاقتصادية. كتب إلى صديقه «عبد الحسن زلزلة»- الامين العام المساعد للشئون الاقتصادية فى تونس. كانت الجامعة العربية، قد انتقلت إليها. بعد أن أبرم حاكم مصر معاهدة كامب ديفيد مع

الاسرائيليين عرض عليه العمل رحب به الرجل الشهم.الكنيسة النرويجية مؤسسة كبيرة فى جنوب السودان. لها خطوط للطيران. تربط مركزها فى جوبا، بالمراكز الفرعية فى الجنوب، وبنيروبى فى كينيا. لا يريد أن يبقى يوما واحدا فى جوبا، بعد رحيل الطلبة والاساتذة. كانت أول رحلة لطائرات الكنيسة، لا تصل إلى نيروبى. ولكنها تهبط فى بلد قريب من الحدود مع كينيا. قرر أن يأخذها .

- - - -

فى فجر اليوم الذى سيرتحل فيه ايقظته الببغاوات، التى هجرت الغابة وتحوم فى حواشيها. ايقظته بغنائها المألوف. أطربته أصواتها المستقاة من الغابة . خليط من سقسقة الطيور الاخرى، ومأمأة الماعز والغزال، وأحيانا زئير الأسود.

جرس الباب بصلصل فى هذا الوقت المبكر. فتح الباب: خادمته الافريقية.

سألها بعربية« كسرها » خصيصا لتتابعها:- ما الذى جاء بك فى هذا الوقت المبكر؟

- جئت أعاونك فى الاستعداد للرحيل..

سكتت، وكأنها مترددة. ثم واصلت:

-... وكذلك جئت أودعك!

امرأة فى نحو الخامسة والثلاثين من عمرها. ملامحها زنجية بدائية. فيها فجاجة الغابة. وتقاطيع انسان الغابة الاول! لم يكن يلتفت اليها طوال خدمتها له.لا لشعور طبقى، فهو يقاتل مجتمع الطبقات، وانما للتذوق الجمالى لديه.

الظاهرة الوحيدة التى يقبل تقسيمها الى طبقات ، هى الجمال! الحسناء جميلة فى ذاتها. أيا كانت البيئة الاجتماعية، التى أنبتتها. فالبنت الفلاحة الجميلة ارستقراطية، فى دنيا الجمال، حتى لو كانت حافية. والسيدة الثرية الارستقراطية، تعتبر فى نظره« خادمة» اذا ما كانت قبيحة!

لم يزهد فى هذه المرأة لانها قبيحة. ولكن زهد فيها ، من كثرة القلق والخوف اللذين سيطرا عليه فى جوبا. فالمنطقة فقيرة فقرا مدقعا. والجنس ينتشر تحت ضغط الحاجة والعوز. وهو لذلك سهل تنغمس فيه البيئة كلها، ومع الجنس تنتشر أقذر الامراض فتكا بالانسان.

أثار مجيئها فيه مشاعر انسانية خبيئة حلوة. هل يضم الانسان بين جوانحه مشاعر بهذا الثراء؟ لماذا لا يكشف عنها أولا بأول؟ ويعرضها على أقرانه، لتحلو الحياة . ويقترب الناس من بعضهم بعضا. تأثر كثيرا. طفرت من عينيه دمعة، لا تطفر الا فى المواقف الانسانية الحارة. قال لها:

- لماذا تتعبين نفسك ، وتأتين فى هذا الوقت المبكر؟

قالت كلاما، لم يستطع متابعته . لكنه فهمه من البريق فى عينيها. ومن الاشراق فى بسمتها. فهم أنها تقول له:

- تعبك راحة!

عاونته فى حزم حقائبه. وفى حملها إلى السيارة، التى ستنقله إلى المطار.

كان لديهما وقت للكلام، قبل أن يودعها ، قالت له:

- أين وجهتك؟

إلى نيروبى.

- رأسا؟

- سأهبط فى مطار على حافة الغابة، يشارف الحدود الكينية.

- هذا البلد هو موطن قبيلتى.

اعطته اسم أخيها وعنوانه. وقالت له:

- أن أخى يعرف عنك الكثير. أرجوك الاتصال به. سيكون لك عونا.

الخادمة صاحبة الملامح الافريقية الفظة، لها قلب من ذهب. تحضر فى جوف الليل لوداعه. كانت الوحيدة التى ودعته. تقدم له معونة غالية، فى هذه المناطق المجهولة. لماذا لم يكتشف هذا الكنز من قبل.

ودعته الخادمة السودانية الجنوبية. هم بتقبيلها ! لكنه تردد. كانت المغريات كثيرة. هذا الشعور الانسانى النبيل. هذا القلب الجميل، يضمه جسد بدائى. هذه الشفاه المكتنزة اكتنازا هائلا. عندما تردد، مضت اللحظة التى كانت تحمل له متعة ثمينة. فى اللحظة التالية، جاء السائق. ضاعت فرصة من أغلى الفرص، التى ومضت فى حياته. سلم عليها بحرارة. ظل يلوح لها الى أن ابتلعتها غبشة الفجر.

فى المطار الخاص بطائرات الكنيسة، وجد مفاجأة أخرى: طالب صديق ثورى وجده فى انتظاره.

- ما الذى أتى بك يا جو؟

- جئت أرافقك.

- لماذا تتعب نفسك؟

- أنا لم آت لوداعك. جئت كرفيق لك فى الرحلة. الرفقة ليست فكرية فحسب.

- إلى أين أنت ذاهب؟

- إلى المكان الذى ستذهب إليه.

- هل ستأتى معى إلى تونس؟

- كنت أود. لكن ليس فى استطاعتى. نحن نكافح فى سبيل العيش. لا فى سبيل السياحة! سأرافقك إلى البلد، الذى ستهبط فيه الطائرة. فهناك قومى.

عندما هبطت الطائرة، وجد ثلة من الافارقة. أقارب جو فى انتظارهما. تفتت الشعور بالاغتراب، الذى وافاه بعد مغادره

الطلاب للجامعة. عانق المستقبلون جو. امتد العناق اليه. تناولا الغداء في منزل جو. وجبه تذكره بوجبات الطباخ الافريقي في المدينة الجامعية بجوبا. ركبا عربة جيب. رافقهما احد اخوة جو. عليم بجغرافيا المنطقة، بدرجة أكبر من أخيه. قال لهما خالد:

- أن العاملة في مسكننا الجامعي، أعطته عنوان أخيها. هل يستطيع الاتصال به؟ عندما قرأ العنوان ، قال له أخو جو:

- هذا نجع بعيد من نجوع بلدنا. اذا كنت ستمضى الليله هنا ، يمكن أن تراه.

الطائرة إلى تونس، ستقلع فى الصباح. أسف خالد. سوف لا يحظى بالمساعدة التى عرضتها عليه خادمته.

فى الطريق الذى يحف بالغابة، كانت الحيوانات» الاليفة» تطل عليهم من الغابة بين آونة وأخرى. الفيل ، جاء يستقى من الغدير، الذى يوازى الطريق. يشرب، ثم يرفع خرطومه، تحية لهم. الزرافة ترمقهم من عل. تختال بجمالها وقوامها. الغزال الرشيق، يأتى إلى الغدير. وينظر بحذر إلى هذه المخلوقات، ومركباتها الميكانيكية. القرود الضاحكة. تضحك على أخيها الانسان! أنها

تأكل بيديها، كما يأكل. تمتاز عنه بأنها تمشى على أربع، تارة، وعلى اثنين، تارة أخرى. لكنها أكثر حرية وانطلاقا من حفيدها الانسان.

لم يشرف الغدير ملوك الغابة، أو حاشيتهم المفترسة. يبدو أن لملوك الغابة ينابيع للحياة. لا تردها جماهير الحيوانات!

على الحدود، لم تستغرق المحادثة بين أخى جو، وحارس الحدود الكينى الا بضع دقائق. سمح لخالد بعدها بالدخول الى كينيا. لحسن حظه، لم يكن فى حاجة إلى «تأشيرة»» بالدخول فكينيا بلد سياحى. الدخول اليه، والخروج منه يسير. شبكة الطرق فى كينيا جيدة. بناها المستعمرون الانجليز لخدمة أغراضهم الاقتصادية والاستيطانية. ذهب إلى نيروبى، باحدى السيارات، دون عناء.

الليلة التى أمضاها فى مطار نيروبى مسلية. المطار أنيق فيه سلع معمرة، وغير معمرة. وفيه سياح وسائحات. شغلن جانبا كبيرا من ليله. فيه مضيفات كينيات يجدن الانجليزية. يختلن فى طرقات المطار، رغم أنهن قصيرات القوام. عقد صداقات سفر عارضة معهن. تبادل معهن محادثات قصيرة، معروف أجلها. ينهيها النداء على الطائرة.

شعـر بلون من الحـرية. خـرج من سـجن النمـيـرى الكبيـر، الذى حماه فـيـه طلاب جامـعة جوبا. فى الصـباح انطلقت بـه الطائرة إلى جده. بقيت الطائرة وقتا قصيرا. أقلعت بعده إلى تونس.

-٤٠-

تونس الخـضـراء البـيـضـاء. بلد جـمـيـل. فـقـيـر فى مـوارده الطبـيـعـيـة. لكنه أكـثـر تقـدمـا من كل الدول العـربيـة. مسـتـوى التعليم، والمعيشة، والتنظيم والنظافة. السياحة مورده الاقتصادى الاول. ينافس دولا سياحية تليدة، كأسبانيا وايطاليا واليونان، لا يملك آثارا ثرية، كـالتى تملكهـا مـصـر: فـرعـونيـة، وقـبطيـة، واسـلامـيـة، ليس له من الشـواطى غـيـر سـاحل البـحـر الابيض المتوسط. نفس السـاحل، الذى تملكه مصر، بالاضافة إلى شاطىء البحر الاحمر، وشاطىء النيل الخالد. السيـاحة يصنعها الانسان، بدرجة أكبر مما تفعله الطبيعة والتاريخ.

ساح فى تونس، شرقا وغربا وجنوبا. انبهر بالبلد وبأهله. لكن سـؤالا خـالدا ألح عليـه. هل يمكن أن يطمـئن فى هذا البلد؟ مـاذا يجـدى الجـمـال، والتنظيم، والتـقـدم، والسـيـاحـة فى الطمـأنينة

السياسية؟ فى حكم الدكتاتور الشهير« فرانكو» كانت أسبانيا جميلة ، منظمة. بؤرة من بور السياحة فى العالم.

« بورقيبه» المجاهد الاكبر. كبير زعماء العرب. يتيه بديمقراطيته، التى اقتبسها من فرنسا. يزهو، بأنه يمثل الثقافة والحضارة الغربية فى العالم العربى. هل يحافظ كبير الزعماء العرب على ابنائه المواطنين العرب، المضطهدين سياسيا؟

أم هو الاخر متعاون، سسلمه الى حكام بلده؟ لكنه كبير. والكبراء لا يقدمون على الصغائر إلا أن هذه القاعدة لها استثناءات. كبير العائلة فى مصر، يعتقل ابناءه. بالالاف. بورقيبه، قطع علاقاته السياسية بمصر. بعد أن وقع السلطان معاهدة كامب ديفيد مع اسرائيل. ليس من المتوقع أن يصادق حاكمها بتسليمه خصومه السياسيين.

خاطر مطمئن سرى فى داخله: بورقيبه يعتز بأنه رسول الحرية فى العالم العربى والافريقى. يفاخر ببلده. ويتطلع لزعامة العرب. هذه المعانى تمنعه من تسليمه الى حكام مصر. وعندما انتقلت الجامعة العربية من القاهرة الي تونس بعد كامب ديفيد، تحققت

أمنية من أعز أمانيه. هى أن تكون بلده مركزا للحركة العربية. أضافة الى كونها منارة أوربا على العالم العربى. موظفو الجامعة العربية، ومستشاروها، يجب أن ينعموا بالحماية الكافية، بهذا تصبح تونس جديره باستضافتها. الجامعة كذلك مصدر سياحى كبير للدخل. مرتبات موظفيها العاليه. المؤتمرات التى تعقدها. المنظمات العربية الاخرى، التى لحقت، وستلحق بالجامعة الام.

لفحته نسمة من الطمآنينة. ألقت به فى خضم البحوث الاقتصادية، فأنتج فيها انتاجا غزيرا. ثم ألقت به على شواطىء تونس. نعم بما يقدمه الجمال التونسى من نفحات.

لكن أويقات السعادة خاطفه.. فى المساء استمع الى اذاعة القاهرة : السلطان المؤمن، تحتفل به جامعة الاسكندرية. ويكرمه حشد كبير من اساتذة مصر. رواد حضارتها. قرائحهم تنضح بالعلم، وتعج بالمعرفة. يجتمعون لتكريم الرئيس. رغم أنه ليس هناك مناسبة للتكريم. وقف وزير التربية! والتعليم، يخطب كان يشتهر باتجاهاته الاسلامية. عين وزيرا فى عهد عبدالناصر. واحتل نفس المكان فى عهد خليفته. قال كلاما قميئا مقززا. . ارتفع بالرجل الى السماء. تجاوز به مراتب النبيين، والصديقين،

والشهداء. وقف بعده مدير الجامعة، ليتضع بنفسه وبالجامعة اتضاعا محزنا. لاغرو. فالرجل عالم من علماء الدرجة الثانية. أراد أن يبلغ الدرجة الاولى، بهذا النفاق الرخيص. السلطان تهتز شواربه تيها، بنفاق الوزير والمدير.

رجع بخواطره الى وقت أن كان طالبا. الاساتذة، حينئذ، كانوا يملأون أروابهم« . لا يملأونها لحما وشحما. ولكن يملأونها بعزة العلم، وكبرياء الانسان. كانوا يتحدثون عن الحاكمين وكأنهم تلامذة لهم. يعتدون بآنفسهم، فيعلون من كرامة العلم والعلماء

كان لابد للسلطان أن تنتفخ أوداجه، ويتراقص شاربه، وتعلو حنجرته، وهو يلقى خطابه:

« أحمد الله العلى على نعمانه. لقد ولدت فى ليلة القدر! وقمنا بثورة ٢٣ يوليو فى ليلة القدر. (ولو أنى ذهبت فيها الى السينما، مع حرمى ، لأن عبد الناصر لم يتصل بى.) وتوليت أمر هذه الامة فى ليلة القدر. وأوحى الله لى أن أذهب إلى تل أبيب، فى ليلة القدر. ووقعت معاهدة كامب ديفيد مع اسرائيل فى ليلة القدر!

أردت أن أحـــدثكم عن هذه المكانه، التى خـــصنى بهـــا ربى.
(تصفيقى حاد).

لم يســتطع خــالد، أن يواصل الاســتمــاع الى الاذاعــة. قــفل الراديو. بات ليلة مع « كوابيس» ثقيلة، أبهظت صدره.

حمد لله فى الصباح. اذا جاءه خطاب من مجاهد المجموعات الثائرة لاتشارك وزير التربية ومدير جامعة الاسكندرية فكرتهما عن«السلطان المؤمن» مهمة الجماهير هى القضاء على هذا الرياء، وأن يمنعوا اســتخــدام اسم الله، والاســلام لســرقــة الجـمــاهيــر، واستغلالها، وقهرها. كان الخطاب، أخطر ما كتب مجاهد. رجع مرة أخرى إلى لغة« الشفرة» يبدو أنه لم يكن يطمئن الى السلطان فى تونس. أخذ يقرأ الخطه هى أن نبدأ اضرابات متواصلة منظمة. تبدأ بها نقابات العمال. كل قطاع منها يضرب فى يوم محدد. يتلوه فى اليوم التالى قطاع آخر. يعقب ذلك تحديد يوم لأضراب العمال جميعا على مستوى الجمهورية. ثم تقوم النقابات المهنيــة بالاضــراب تبــاعــا. ســتبــدأ نقــابة المحــامين، ثم القــضــاء. والصحفيون والفنانون والمهندسون، والزراعيون .. وهكذا. ثم يتلو ذلك يوم، تضرب فيه النقابات المهنية فى يوم واحد. ثم يبدأ

الاضراب فى الريف. وقد بذل أبو زيد، ومحبوبة ، جهدا كبيرا. بين الفلاحين. ويعقب ذلك اضراب عام، يضم طوائف الشعب جميعا. ثم يتبع ذلك اضراب البوليس!

وفى يوم اضراب الشرطة، تتجمع الجماهير، لتملأ الشوارع، وتطوف المظاهرات بالاحياء. وتذهب إلى مواخير الفساد، وأوكار السلطة. ومراكز السرقة والاستغلال وتهتف سلميا بسقوط الحكم.

اذا افلحت هذه الوسائل فى طرد الحاكم بأمره وطغمته« فيادار مادخلك شر «أما اذا لم تفلح، فسوف تنفذ الخطة الثانية الخاصة. وهذه لابد أن تحضر، لتخوض معنا غمارها. وسوف نتصل بك.

حدد للبدء فى خطة عزل السلطان وبطانته، اليوم التالى لاحتفالات ٦ اكتوبر.

آراد خالد، أن يستمع الى الاحتفال باليوم فى الراديو . كان السلطان المؤمن فى أوج عظمته وجلاله. يرتدى حلة القائد الاعلى للجيش ، يتشع بالوشاح الرفيع للقضاء .تطرزه رموز خاصة ، تمثل الامة وسلطتها التنفيذية والتشريعية والقضائية جميعا. جلس فى المنصة السامقة. الاوداج منتفخة. الرأس يطاول السماء الاعلام

مـزركـشـة. البطانة مـخـتـلفـة الالوان. الجـيش المدرع، والراكب ، والمشـاه تتـخطر فى السـاحـه وسط هذا كله. انطلقت رصـاصـات. جاءت من اليمين. صرعت السلطان. وافسدت خطة الشعب.

أعلنت الاحكام العرفـيـة، واسـتـمـر القـهـر. كـان على الحركـة الديمقراطية، أن تعيد النظر فى خططها. وأن تبدأ تنظيم النضال من جديد..